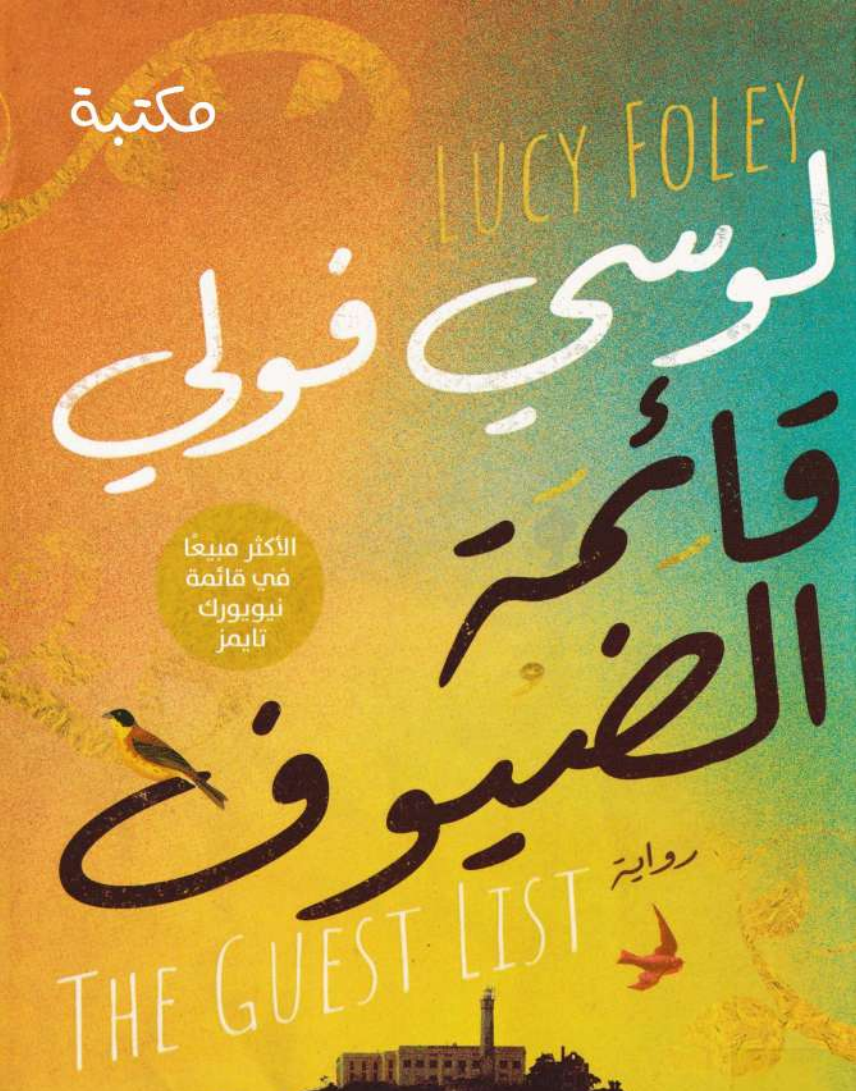


تُعيدنا إلى أجواء كلاسيكيات أجاثا كريستي العظيمة ... ذكية، وكُتبت ببراعة.
-The New York Times Book Review

عصير الكتب

ترجمة: مريم ناجي

قائمة الضيوف





إدارة التوزيع:

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي: The Guest List

● العنوان العربي: قائمة الضيوف

● طُبع بواسطة:
HarperCollins Publishers Ltd

● ترجمة: مريم ناجي

● تحرير: محمد الجيزاوي

● تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد

● تنسيق داخلي: علي خلف

● الطبعة الأولى: يناير / 2023م

● رقم الإيداع: 2021/25342م

● الترقيم الدولي: 978-977-6902-77-0





LUCY FOLEY

لوسي فولي

قائمة الضيوف

الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز

رواية

THE GUEST LIST

تُعيدنا إلى أجواء كلاسيكيات أجاثا كريستي العظيمة ... ذكية، وكُتبت ببراعة.
-The New York Times Book Review

عصير الكتب

ترجمة: مريم ناجي

أهدي هذا العمل إلى كيت وروبي، الأخوين الأكثر دعمًا اللذين قد تتمناهما أي فتاة... لحسن الحظ أنهما لا يشبهان من في الكتاب أبدًا.

ليلة الزفاف

تنقطع الكهرباء.

يلف الظلام كل شيءٍ في غمضة عين. تتوقف الفرقة عن العزف. يتذمر المدعوون ويتشبثون ببعضهم بعضًا داخل الصيوان. لم يُضف النور المنبعث من الشموع على الطاولات إلا إرباكًا على الإرباك، مُطلِقًا ظلاله تركض على الجدران القماشية. محال معرفة من يقف أين ولا سماع من يقول ماذا؛ تضطرم الرياح المحمومة وتغطي على أصوات الضيوف.

تحتد العاصفة في الخارج، تزمجر من حولهم وترج الخيمة. مع كل هجمةٍ من العاصفة يتقوس قوام الخيمة كله ويصطك مُصدرًا صريرًا معدنيًّا عاليًا. يتكمش المدعوون في ذعرٍ وحذر. تتحرر الأبواب من أربطتها وترفرف عند المدخل. يضطرب لهيب مشاعل البرافين التي أنارت عتبة الباب. كأن هذه العاصفة تأخذ هبوبها على محملٍ شخصيٍّ، وكأنها ادخرتْ كل ضراوتها لهم.

هذه ليست المرة الأولى التي تنقطع فيها الكهرباء، لكن الأنوار عادت في غضون دقائق آخر مرة، وعاد المدعوون لرقصهم وسكرهم وانتشائهم ومغازلاتهم وأكلهم وضحكهم... ونسوا ما حدث.

كم مر من الوقت الآن؟ من الصعب التحديد في هذا الظلام. عدة دقائق؟ ربع ساعة؟ ثلث الساعة؟ يتسلل الخوف إلى قلوبهم، الظلمة متوعدة على نحوٍ ما، تضمر شرًّا. كأن شيئًا قد يحدث أسفل ستارها.

ترتعش المصابيح عائدةً للحياة أخيرًا. تعلو صيحات مبتهجة من الضيوف. يشعرون بالحرج الآن من الشاكلة التي عاد النور وهم عليها، جاثمون على

الأرض كأنهم كانوا يتأهبون لملاقاة هجوم. ينفضون شعورهم ضاحكين، محاولين إقناع أنفسهم بأنهم لم يكونوا مرتعبين.

كان مفترضًا أن يكون المشهد المضاء في خيمات الصيوان الثلاثة المتلاصقة مشهدًا للاحتفال، لكن الخراب يطغى عليه. تخضّلت الأرضية الصفيحية ببقعٍ من النبيذ في خيمة الطعام، وانتشرت لطخات قرمزية على الكتان الأبيض. تكوّمت زجاجات الشمبانيا على كل الأسطح، تشهد على مساءٍ عامرٍ بالحفاوة والفرح. وبرز طرف حذاءٍ رماديٍّ منبوذ أسفل مفرش الطاولة.

تستكمل الفرقة الأيرلندية عزفها في خيمة الرقص بأغنيةٍ مثيرةٍ لاستعادة روح الحفل. يهرع مدعوون كثر ناحيتها في توقٍ للترويح عن أنفسهم. إن أمعن أحدهم النظر في موضع خطواتهم فقد يرى العلامات حيثما داس أحد الضيوف على زجاجٍ مكسور بأقدامٍ حافية وترك طبعات دموية على صفائح الأرضية، ستجف وتتحول إلى لطخاتٍ صدئة، لكن أحدًا لم يلاحظها.

تجتمع مجموعة أخرى من الضيوف في زاوية الخيمة الرئيسية، يحيطهم ضباب بقايا دخان السجائر. إنهم يكرهون البقاء هنا، لكنهم كذلك يكرهون مغادرة مأمن الصيوان والعاصفة ما زالت في أوجها. ولا أحد في وسعه مغادرة الجزيرة. لم يئِن الأوان بعد. لا يمكن أن تأتي القوارب إلا حين تخبو الرياح.

تنتصب الكعكة الهائلة وسط كل شيء. مثلتْ أمامهم طيلة اليوم، مكتملةً ومثاليةً، وزخارفها السكرية تلمع في الأضواء. لكن قبيل أن تنقطع الكهرباء بدقائق كان المدعوون متجمهرين حولها لحضور طقس تمزيقها أشلاء. أما الآن، فكان قلبها الهش الأحمر يتثاءب على وسعه في وجوههم.

ثم يأتي من الخارج صوت جديد. ربما تحسبه الرياح، لكنه يعلو في حدته وقوته حتى يزول عنه التباسه. يتيبس المدعوون في أمكنتهم. يحدقون إلى بعضهم بعضًا. يشعرون بالخوف بغتةً، مرة ثانية، بخوفٍ يتجاوز خوفهم حين انقطعت الكهرباء. الكل يعي ما يسمع. إنها صيحة رعب.

البارحة

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

وصل كل مدعوِّي الحفل تقريبًا، وهكذا وتيرة الأمور على وشك أن تسرع، ستقام بروفة العشاء هذا المساء بصحبة الضيوف المختارين، ما يعني أن حفل الزفاف سيبدأ الليلة.

وضعتُ الشمبانيا في الثلج استعدادًا لمشاريب الاستقبال. إنها شمبانيا بولينجر معتقة، ثماني زجاجات منها، إضافةً إلى النبيذ الذي سيُقدَّم على العشاء وصندوقين من بيرة جينيس، كله وفقًا لتعليمات العروس. لا يخصني الأمر لأعلق عليه، لكنها تبدو كميةً مبالغًا بها بعض الشيء، لكن كلهم راشدون. أنا على ثقةٍ بأنهم يعرفون كيف يضبطون أنفسهم. أو ربما لا. يبدو على الإشبين أنه كثير المشكلات، صراحةً أظن أن كل أصدقاء العريس دائمًا على هذه الشاكلة. حتى وصيفة العروس، شقيقتها من أبيها، رأيتها تتجول وحدها في الجزيرة، تنحني وتسرع في مشيتها كما لو أنها تحاول الهرب من شيءٍ ما.

يطّلع المرء على أتفه الأسرار وهو يشغل وظيفةً كهذه. ترى أمورًا لا يحظى أحد آخر بفرصة رؤيتها. تصلك كل النميمة التي قد يتلهفُ المدعوون لمعرفتها. كونك مُنظِّمًا لحفلات الزفاف يعني أنك لن تحظى برفاهية أن يفوتك أي شيء. عليك أن تكون متيقظًا لكل تفصيلة، لكل الدوامات الصغيرة الدائرة أسفل السطح. إن لم أُولِ كل اهتمامي لها فإن أحد التيارات قد يكبر

متحولًا إلى فيضانٍ جارفٍ يدمر كل ترتيباتي المعتنى بها. وهناك أمر آخر تعلمته، أحيانًا التيارات الأصغر هي الأقوى.

أتمشى بين غرف الطابق السفلي في قلعة الفلي، أشعل كتل الخث[1] في المدافئ لتحترق جيدًا حتى يحين وقتها هذا المساء. أخذتُ أنا وفريدي نقطع ونجفف خثّنا الخاص من المستنقعات، تمامًا كما كان يُجرى تحضيره منذ قرون. ستثري رائحة نيرانه الترابية الجو المحلي للمكان وأظنه سيعجب الضيوف. إننا في منتصف الصيف لكن الهواء يبرد ليلًا على الجزيرة. تُبقي جدران القلعة الحجرية الدفء خارجًا وليست بارعةً في احتوائه داخلها.

اليوم دافئ على نحوٍ مفاجئ، على الأقل قياسًا للمكان من حولنا، لكن ليس متوقعًا أن يكون هكذا في الغد. قيل في آخر توقعات الطقس التي سمعتها في الراديو إن الرياح ستهب. إننا نعاني بسبب الطقس؛ تهبّ العواصف هنا بقوةٍ أشد مما تصل إلى البر الرئيسيّ، كما لو أنها تنهك قواها علينا. ما زال الجو مشمسًا في الخارج لكن حدث هذا المساء أن تأرجحت الإبرة في البارومتر القديم المُعلَّق في الردهة وتغيرت من «معتدل» إلى «متقلب». أنزلته عن الحائط، لا أريد أن تراه العروس، رغم أنني لا أظن أنها من النوع الهلوع، بل تميل أكثر إلى النوع الغاضب، أو من يبحث عن شخصٍ ما ليلقي اللوم عليه. وأعرف طبعًا من سيكون على خط النار.

ناديت في المطبخ: «فريدي، هل ستبدأ بإعداد العشاء قريبًا؟».

أجابني: «نعم، الأمور كلها تحت السيطرة».

سيتناولون الليلة يخنة السمك المُعدَّة على طريقة شوربة صيادي كونمارا التقليدية: سمك مدخّن والكثير من الكريمة. أكلتُ هذا الطبق في أولى زياراتي لهذا المكان، حين كان لا يزال أناس يسكنون هنا. ستكون هذه الأمسية نسخة راقية من الوصفة المعتادة، بما أن من نستضيفهم هم مجموعة راقية منتقاة، لكن سنرى ماذا سيحدث حين يثملون.

---

(1) الخُثُّ هو فحم نباتي، وهو الطبقة السطحية للتربة المتكونة من مواد عضوية متحللة جزئيًا. يشتق في الأغلب من مواد نباتية تراكمت وسط ظروف من التشبع بالمياه ونقص الأكسجين وارتفاع درجة الحموضة. يستخدم مصدرًا أساسيًا للتدفئة في واسكتلندا وروسيا وأيرلندا.

قلت ثانيةً وأنا أراجع القائمة في رأسي: «سنحتاج إذًا أن نبدأ بتحضير الكانابيه للغد».

- توليت أمره.

- والكعكة، نحن بحاجةٍ إلى إنهائها في وقتٍ قصير.

إن للكعكة منظرًا يسُر الأعين. عليها أن تكون كذلك لأنني أعرف تكلفتها. لم يطرف للعروس جفن حين رأت المبلغ. أظن أنها معتادة على أن تحظى بالأفضل من كل شيء. أربع طبقاتٍ من الكعك الهش المخملي أحمر اللون، مغطاة بكريمة بيضاء صافية، وتتناثر عليها زينة خضراء من السكر لتتماشى مع زينة الأزهار في الكنسية والصيوان. إنها هشّة للغاية ومُعدَّة وفقًا لطلبات العروس بالضبط، وقد قطعتْ طريقًا طويلة لتصل إلى هنا من صُناع كعكٍ خصوصيين في دبلن. لم يكن جلبها بحرًا وإيصالها قطعة كاملة مهمة سهلة. طبعًا ستُدمَّر غدًا، لكن الأمر كله لأجل اللحظة، الزفاف. الأمر كله لأجل اليوم نفسه. إنه لا يخص الزواج ذاته فعلًا، عكس ما يقول الجميع.

أترى، وظيفتي هي أن أنسّق السعادة مثل قائد أوركسترا. لهذا السبب تحديدًا اخترتُ أن أكون مُنظِّمة حفلات الزفاف. الحياة تعج بالفوضى. هذه حقيقة مُسلَّمٌ بها. تعلمتُ في طفولتي أن الأشياء الفظيعة تحدث للجميع، لكن بغض النظر عما يحدث، الحياة ما هي إلا سلسلة من الأيام. لا يمكنك السيطرة على أكثر من يومٍ واحد. يمكنك تنظيم أربع وعشرين ساعة. حفل الزفاف هو بمنزلة قطعة صغيرة أنيقة من الزمن، يكون في وسعي أن أصنع فيه شيئًا كاملًا ومثاليًا نُكِن له محبةً في أذهاننا طوال الحياة، لؤلؤة من عقدٍ تالف.

يظهر فريدي من المطبخ مرتديًا مئزر الجزارين المبقّع: «كيف تشعرين؟».

أهز كتفي بلا مبالاة: «متوترة بعض الشيء إن أردت الصدق».

- بإمكانك فعلها يا حبيبتي. فكري كم مرة أنجزت هذا.

- لكن هذه المرة مختلفة، نظرًا إلى أهميتهم...

إقناع ويل سلاتر وچوليا كيجان أن يقيما حفل زفافهما هنا كان إنجازًا حقيقيًا. عملتُ مُنظِّمة مناسبات في دبلن فيما مضى. إعداد المكان هنا كانت فكرتي بالكامل، جددنا القلعة المتهاوية والمحطمة وحولناها إلى عقارٍ فاخرٍ

ذي عشر حجرات للنوم، مع حجرةٍ للطعام ومرسمٍ ومطبخ. نعيش أنا وفريدي هنا بشكلٍ دائم لكننا نستخدم جزءًا صغيرًا من مساحته ونحن وحدنا.

- اهدئي.

يتقدم فريدي مني ويعانقني. أشعر بجسدي متيبسًا في البداية. أصبُّ كامل تركيزي على قائمة الأعمال وأشعر أن هذا تراخٍ ليس عندنا وقت له. ثم أترك نفسي لأسترخي في عناقه، أن أقدّر دفئه المريح المؤنس. فريدي معانق رائع. إنه النوع الذي قد نسميه «حَبُوب». يحب طعامه، وهو وظيفته. كان يدير مطعمًا في دبلن قبل أن ننتقل للعيش هنا.

يقول: «كل شيءٍ سيسير على أكمل وجه. أعدك. كل شيء سيكون مثاليًا».

يطبع قبلةً على رأسي. لقد اكتسبت خبرةً لا بأس بها في مجال عملي هذا، لكن لم أعمل قط على تنظيم حدث استثمرت فيه بهذا القدر. والعروس امرأةٌ انتقائيَّةٌ للغاية، الأمر الذي -إنصافًا لحقها- يتلاءم مع عملها في إدارة مجلتها الخاصة. شخص آخر كان قد اشتعل غضبًا من طلباتها، لكنني استمتعتُ بها. أحب التحديات.

على أي حال، يكفي هذا عني، ففي نهاية الأمر، تدور عطلة نهاية الأسبوع هذه حول الحبيبين السعيدين. لم تدُم فترة خطبة العروسين طويلًا بكل المقاييس. ونظرًا إلى أن غرفة نومنا في القلعة أيضًا مع البقية، فكان بوسعنا سماعهما ليلة البارحة. قال فريدي فجأةً ونحن مستلقيان على السرير: «يا إلهي! لا يمكنني أن أسمع هذا».

فهمت مقصده. أمر غريب أنه حين يغرق شخص ما في خضم المتعة يصدر صوتًا مشابهًا للألم. يبدوان غارقَين في الحب، لكن أي شخصٍ ساخرٍ قد يقول إن الحب وحده هو السبب الفعلي لكونهما عاجزَين عن الافتراق لحظة واحدة. كونهما غارقَين في الشهوة سيكون وصفًا أدق.

مضت على علاقتي أنا وفريدي مدة تفوق العقدين من الزمان وإلى الآن هناك أشياء أخفيها عنه، وأنا متأكدة أن العكس صحيح. يدفعك اتقاد هذين الاثنين للتساؤل عن مقدار ما يعرفانه عن بعضهما بعضًا. إن كان كل واحدٍ منهما يعرف أحلك أسرار الآخر حقًا.

هانا

المُرافِقة

تعلو الأمواج أمامنا، يكسو رؤوسها البياض. إنه يوم صيفيٌّ جميل على البر، لكن الوضع صعب للغاية هنا. غادرنا أمان الميناء منذ عدة دقائق، خلالها غمق لون المياه وارتفعت الأمواج عدة أقدام.

إنها عشية الزفاف، ونحن في طريقنا إلى الجزيرة. سنقضي الليلة هناك لكوننا من «الضيوف المميزين». إنني متلهفة له فعلًا. أظن ذلك على الأقل، أحتاج إلى شيءٍ من التشتيت الآن على أي حال.

أتت صرخة من كابينة القبطان من خلفنا: «تشبثا!». اسمه ماتي. وقبل حتى أن نحظى بثوانٍ لنفكر فيما قال، اندفع الزورق الصغير على موجةٍ ومنها إلى أخرى. رشّنا الماء برذاذ موجةٍ هائلة.

صاح تشارلي: «يا إلهي!» بلّه الماء تمامًا من جانبٍ واحد. أما أنا فبمعجزةٍ ما لم يصبني إلا بلل خفيف.

سأل ماتي مناديًا: «هل ابتللتُما من المياه؟».

أجبر نفسي على الضحك، فما حدث كان مخيفًا قليلًا. تسببتْ حركة الزورق للأمام وللوراء ومن الجنب للجنب في آنٍ واحدٍ في أن تقلب معدتي رأسًا على عقب.

«أف». أشعر بالغثيان يغوص بداخلي. أتذكر الكعك الكريمي مع الشاي الذي تناولته قبل أن نصعد على القارب وتدفعني ذكراه إلى الرغبة في التقيؤ فجأةً.

ينظر تشارلي إليَّ ويضع يده على ركبتي ويضغط عليها بحنو: «يا إلهي، هل بدأ بسرعةٍ هكذا؟».

يصيبني دومًا غثيان رهيب في البحر، أي غثيان في الحقيقة، كان أسوأ شيءٍ في فترة حملي.

- مممم تناولت حبتين لكنهما لم تخففا شيئًا.

قال بسرعة: «انظري، سأقرأ لك عن المكان لنُلهيك عن الدوار».

راح يقلب في هاتفه. كان قد حمَّل كتيبًا إرشاديًّا عليه، روح المعلم مسيطرة على زوجي. اهتز القارب ثانيةً وكان هاتفه الآيفون على وشك أن يفلت من قبضته. فزع ولعن، أمسكه بكلتا يديه؛ لا نملكُ ثمنه لنستبدله.

قال بنبرةٍ معتذرة حين عثر على الصفحة: «لا أجد الكثير عنه هنا. الكثير عن كونمارا.. لكن ليس عن الجزيرة نفسها. أظنها صغيرةً للغاية... (حدق إلى الشاشة كما لو أنه يحاول إقناعها بالإفصاح أكثر) أوه.. هنا. وجدت شيئًا (يسلِّك حلقه ثم يبدأ بالقراءة بالصوت الذي أظنه يستخدمه في دروسه) إنيش آن آمبلورا، أو جزيرة كورمورانت في الترجمة الإنجليزية، مسافتها من أولها لآخرها ميلان، وطولها يفوق عرضها. تتكون الجزيرة من كتلة من الجرانيت تطفو بمهابةٍ على مياه الأطلسي، وتبعد مسافة عدة أميالٍ عن ساحل كونمارا. تغطي معظم سطحها سبخة هائلة تحتوي على فحم المستنقعات، أو «الخث» كما يسمى محليًا. أفضل طريقة، والوحيدة طبعًا لرؤية الجزيرة، من على متن قاربٍ خصوصيٍّ. أما عن القناة بين البر والجزيرة على وجه الخصوص فهي متقلبة الحال....».

تمتمت: «إنهم محقون في هذا»، وأنا متشبثة بالحافة بينما تؤرجحنا موجة أخرى وتلقي بنا بحرًا ثانيةً. تضطرم معدتي من جديد.

صاح ماتي من كابينته: «في وسعي إخبارك بأكثر من هذا. (لم أعرف أن بإمكانه استراق السمع على حديثنا من هناك) لن تعرف الكثير عن آمبلورا من كتيبٍ إرشاديٍّ».

أسير أنا وتشارلي متعثرَين إلى الكابينة لنسمعه. لدى ماتي لكنة ثرية جميلة. راح يقص علينا: «أول أناسٍ سكنوا هذا المكان، بحسب ما نعرف، كانوا طائفة دينية مضطهدة من قِبل بعض سكان البر».

قال تشارلي وهو يقلب في صفحات كتابه: «أوه صحيح. أظنني قرأت شيئًا عنهم...».

قال ماتي: «لن تجد كل شيءٍ مكتوبًا في هذا الشيء. (قطَّب جبينه ولاح انزعاجه من مقاطعة حديثه) عشت هنا طيلة حياتي، تعرف؟ وعاش أهلي هنا منذ قرون. يمكنني أن أخبرك بأكثر مما سيخبرك به الإنترنت».

أجاب تشارلي خجلًا: «آسف».

يكمل ماتي: «على أي حال. منذ عشرين عامًا أو أكثر، عثر عليهم علماء الآثار. كلهم كانوا في سبخة الخث، جنبًا إلى جنب، محشورين ومتلاصقين. (شيء ما يشعرني بأنه مستمتع بما يحكيه) محفوظين بمثالية. هذا ما يقال. لأن المكان خالٍ من أي هواء في الأسفل. كانت مذبحة. مزّقت أجسادهم إربًا إربًا».

يقول تشارلي وهو ينظر إليَّ: «أوه.. لستُ متأكدًا أن...».

فات الأوان، الفكرة تغلغلت في رأسي الآن: جثث مدفونة منذ الأزل تظهر من الأرض السوداء. أحاول ألا أفكر فيها لكن الصورة تؤكد نفسها مثل عطل ثبّت الصورة في مقطع مصور. أتى هجوم الدوار من صعودنا الموجة التالية مثل البلسم، واحتل تركيزي كله.

يسأل تشارلي مبتهجًا في محاولةٍ لتغيير سير الحديث: «وما من أحدٍ يعيش هناك الآن؟ غير الملّاك الجدد؟».

أجاب ماتي: «لا، لا أحد سوى الأشباح».

ينقر تشارلي على شاشة هاتفه: «يقال هنا إن الجزيرة كانت مأهولةً حتى التسعينيات، حين قررت القلة الأخيرة من السكان أن تعود إلى العيش على البر تفضيلًا للمياه الجارية والكهرباء والحياة العصرية».

- أوه أهذا ما يقال عندك، صحيح؟

يبدو ماتي مستمتعًا.

أسأل وأنا أحاول إيجاد صوتي: «لمَ؟ أكان هناك سبب ثانٍ لرحيلهم؟».

يبدو أن ماتي على وشك أن يقول شيئًا. ثم تتغير صفحة وجهه. يصيح بصوتٍ مدوٍّ: «احترسا جيدًا!».

أتمكن وتشارلي من الإمساك بالحاجز قبل ثوانٍ من نفض السطح لكل شيء فوقه، هوينا في الجانب الآخر من الموجة، ثم ارتطمنا بأخرى. يا إلهي.

عليَّ أن أبحث عن نقطة ثابتة حين يهجم عليَّ دوار البحر. أثبّت نظري على الجزيرة. ظهرتْ في مرمى رؤيتي طوال الطريق من البر، بقعة مزرقة في الأفق شكلها مثل سندان مسطح. ليس من شيم چولز أن تختار مكانًا يبث دهشةً أقل من هذه، لكن لم أتمكن من كبح شعوري بأن هيكلها المعتم يبدو وكأنه رابض ومحملق خلافًا لليوم المشرق.

يسألني تشارلي: «مدهشة للغاية، صحيح؟».

أجيب بطريقةٍ مبهمة: «ممم... لنأمل أن يكون بها ماء جارٍ وكهرباء هذه الأيام. سأحتاج إلى حمام لطيف بعد كل هذا».

يبتسم تشارلي: «أعرف چولز. إن لم يكونوا قد أصلحوا السباكة والكهرباء، فإنهم حتمًا يفعلون ذلك الآن. تعرفين طبعها. إنها بارعة!».

إنني متأكدة أن تشارلي لم يقصد، لكن كلامه يبدو مثل مقارنة. لستُ أبرع نساء العالم، لا أدخل أي مكانٍ إلا وأُحدث فوضى عارمة، وبيتنا في حالةٍ يرثى لها منذ أن أنجبتُ الطفلين. حين يحدث -فيما ندر- ويزورنا ضيوف، أجدني ألقي بالأشياء في الخزانات وأحشرها لإغلاقها، لذا أشعر أحيانًا أن المكان كأنه يحبس أنفاسه محاولًا ألا ينفجر. حين لبينا دعوة چولز على العشاء وذهبنا لأول مرةٍ إلى منزلها الأنيق الڤيكتوري في إزلنجتون، كان يشبه منزلًا خرج من مجلة، يشبه شيئًا خرج من مجلتها، مجلة نسائية إلكترونية تُدعى «The download». رحت أفكر في أنها ربما تحاول أن تخفيني عن الأنظار في مكانٍ ما، حين تلاحظ كيف سأبرز مثل إبهامٍ متقرّح بملابسي العادية وشعري الذي زالت الصبغة من جذوره. بل حتى وجدتُ نفسي أحاول تلطيف لكنتي وتنعيم المدود في حديثي المانشستري.

إننا على طرفي النقيض، أنا وچولز. أهم امرأتين في حياة زوجي. أميل على الحافة وأتنفس أنفاسًا عميقةً من هواء البحر.

يقول تشارلي: «قرأتُ مقدارًا لا بأس به في المقال عن الجزيرة. قرأت أن بها شطآنًا بيضاء الرمال، وهي مشهورة في هذا الجزء من أيرلندا. ولون الرمال يعني أن المياه تتحول إلى لونٍ فيروزيٍّ جميل في الخلجان».

- أوه.. يبدو هذا أفضل من مستنقع للخث.

يجيب تشارلي: «بالضبط. ربما نتمكن من السباحة فيها معًا». يرمقني بابتسامة.

أنظر إلى الماء الذي يميل لونه إلى أخضر الأردواز أكثر من الفيروزي، ويقشعر جسدي. لكني أسبح في شاطئ برايتون، وهي القناة الإنجليزية، صحيح؟ لكن ولو. يبدو مكانًا أليفًا أكثر بكثيرٍ من هذا البحر الهائج القاسي.

يقول تشارلي: «ستكون هذه الإجازة تسليةً رائعة، أليس كذلك؟».

أجيب: «نعم، آمل ذلك».

سيكون هذا أقرب شيءٍ نناله يشبه العطلة منذ وقتٍ طويل. وأنا فعلًا بحاجةٍ إلى عطلة حاليًا. ثم أردفتُ: «لا أفهم لمَ اختارت چولز جزيرة عشوائية بعيدة عن ساحل أيرلندا».

يبدو من شيمها صدقًا أن تختار مكانًا شديد الحصرية لدرجة احتمال أن يغرق أحد الضيوف محاولًا الوصول إليه. ثم تابعتُ: «ليس وكأنها تعجز عن تحمُّل كلفة إقامته في أي مكان تريده».

يقطب تشارلي. لا يحب الحديث عن المال، يحرجه. إنه أحد أسباب حبي له. ما عدا أحيانًا، أحيانًا فحسب، أتساءل عما ستبدو الحياة لو كان معنا مال أكثر قليلًا. ذُقنا الأمرّين كي نحسم اختيارنا من قائمة الهدايا وخضنا جدالًا حولها. عادةً لا ندفع أكثر من خمسين جنيهًا استرلينيًّا، لكن تشارلي أصر أن علينا زيادة الرقم لأن صداقته وچولز وطيدة. ولأن كل ما ذكر في القائمة كان من متجر ليبريتي، فإن المئة والخمسين التي اتفقنا عليها أخيرًا لم تُمكنا سوى من شراء وعاء من السيراميك عادي الشكل. كان هناك شمعة عطرية بمئتي جنيه!

بينما يتهاوى الزورق ثانيةً قبل أن يصطدم بشيءٍ يبدو وكأنه أصلب من الماء بكثير، ثم يترنح لأعلى مع ضرباتٍ فجائيةٍ يمنةً ويسرة، يقول تشارلي: «تعرفين چولز، تحب أن تفعل كل شيءٍ على نحوٍ مختلف. ولعل للأمر علاقة بكون أبيها أيرلنديًّا».

- لكني ظننتُ أن علاقتها متوترة بأبيها؟
- إنها أكثر تعقيدًا من هذا. لم يكن موجودًا في حياتها وهو بغيض بعض الشيء، لكنها أحبته دومًا حد العبادة. لهذا السبب أرادتني أن أعطيها دروسًا في الإبحار طيلة تلك السنوات. كان عنده يخت ورغبت في أن يفخر بها.

من الصعب تخيُّل چولز تشعر بالدونية لدرجة أن ترغب في أن يفخر بها شخص ما. أعرف أن أباها يعمل مطوِّرًا عقاريًّا مهمًا وأنه رجل عصامي. ولكوني ابنة سائق قطارات وممرضة، وقد نشأتُ نشأةً ينقصها المال على الدوام، فإنني دائمًا منبهرة -ومرتابة قليلًا- حيال الناس الذين يكسبون أموالًا طائلة. أراهم وكأنهم كائنات أخرى، سلالة من قطط ضخمة الحجم، ناعمة وخطرة.

أقول: «أو ربما ويل هو من اختاره. يشبهه، أظنه يحب كل ما هو غريب».

أشعر بوخزةٍ من الحماس في معدتي من فكرة لقاء شخص ذائع الصيت. صعب أن يفكر الواحد في خطيب چولز على أنه شخص حقيقيٌّ تمامًا.

كنتُ أتابع مسلسله سرًا. إنه رائع على الرغم من صعوبة التحلي بالموضوعية. وتذهلني فكرة ارتباط چولز بهذا الرجل... إنها تلمسه، تقبِّله، تنام معه. وبصدد الزواج به!

المنطلق الأساسي لمسلسل «النجاة من الليل» إلقاءُ ويل في مكانٍ ما ليلًا، مقيد الجسد ومعصوب العينين. لنقُل في غابةٍ مثلًا، أو وسط سهلٍ جليديٍّ في القطب الشمالي، وليس في حوزته أي شيءٍ عدا الملابس التي عليه وربما سكين مُعلَّق في حزامه. ثم عليه أن يفك قيوده ويشق طريقه نحو نقطةٍ منشودة معتمدًا على ذكائه ومهارات تجواله فقط. المسلسل مملوء بالكثير من الأحداث الدرامية المشحونة، يضطر في إحدى الحلقات أن يعبر شلالًا في الظلمة الحالكة، وتتعقبه الذئاب في حلقةٍ أخرى. أحيانًا تتذكر بغتةً أن طاقم

التصوير يحيط به، يراقبه، ويصوره. إن كان الوضع سيئًا لهذا الحد فإنهم بالطبع سيتقدمون لمساعدته؟ لكنهم أدوا عملًا مذهلًا في إشعارك بالخطر.

يكفهر وجه تشارلي عند ذكري لويل. يقول: «ما زلتُ لا أفهم لم ستتزوجه وهي لم تعرفه سوى فترةٍ وجيزة. هذه هي چولز. تتصرف بسرعةٍ حين تحسم قرارها، لكن تذكّري ما سأقول يا هان: إنه يخفي شيئًا. لا أعتقد أبدًا أنه الشخص الذي يدّعيه».

لهذا السبب تحديدًا أبقيتُ مشاهدتي لمسلسله سرًا. كنت أعرف أن تشارلي لن يعجبه الأمر. أحيانًا يراودني شعور بأن بغضه لويل يشبه الغيرة. آمل حقًا أنه ليس غيرةً منه! لأنه ماذا سيكون معناه؟ ربما لشعوره صلة بحفل توديع عزوبية ويل. حضره تشارلي، ويبدو أنه كان قرارًا خاطئًا كونه صديق چولز. عاد منزعجًا من الحفل الذي أقاموه في السويد. وفي كل مرةٍ آتي على ذكر الحفل يتصرف بغرابةٍ وارتباك. لذا نسيتُ الأمر كله. ألم يعد سالمًا غانمًا؟

يهتاج البحر أكثر. يتأرجح زورق الصيد القديم ويتقلب في كل اتجاه، مثل لعبة الثور المترنح تلك، كأنه يحاول أن يلفظنا من بطنه. أسأل ماتي: «هل فعلًا من الآمن أن نواصل طريقنا؟».

يجيبني من بين صوت رذاذ المياه وزمجرة الرياح: «نعم! إنه يوم لطيف، مقارنةً ببقية الأيام. قاربنا على الوصول إلى جزيرة آمبلورا».

أشعر بخصلات الشعر الرطبة تلتصق بجبيني، بينما تضخمت بقيته في سحابة هائلة متشابكة حول رأسي. في وسعي تصوُّر منظري أمام چولز وويل والبقية حين نصل أخيرًا.

يصرخ تشارلي مشيرًا إلى شيءٍ ما: «غاق!». إنه يحاول تشتيت انتباهي عن غثياني، أعرف هذا. أشعر أنني مثل طفلٍ منقادٍ إلى عيادة الطبيب ليأخذ حقنة. أتبع إصبعه نحو قمة داكنة وملساء، تبزغ من بين الأمواج مثل منظار غواصةٍ منمنمة. ثم تغوص ثانيةً أسفل السطح، أثرًا خاطفًا وأسود. تخيل أن تشعر براحةٍ غامرةٍ في ظروفٍ عدائيةٍ كهذه.

يقول تشارلي: «قرأت في المقال شيئًا عن طيور الغاق تحديدًا. (يمسك هاتفه من جديد) آها.. هنا. إنها تنتشر بكثرة في هذه البقعة من الساحل، كما هو واضح. (يعود لصوت المعلم) الغاق هو طائر شوهت سمعته الحكايات

الشعبية بشدة. (أوه يا عزيزي!) تاريخيًّا، مثّل الطائر رمزًا للجشع وسوء الحظ والشر».

يراقب كلانا الغاق وهو يخرج من الماء ثانيةً. يحمل في منقاره الحاد سمكة ضئيلة، لمعتْ لمعانًا خاطفًا قبل أن يفتح الطير بلعومه ويبتلعها كاملةً.

تجيش معدتي. أشعر كأنني أنا من ابتلع السمكة، سريعةً وزلقة، تعوم في بطني. وبينما راح الزورق يميل في الاتجاه المعاكس، أنحني على حافته وأتقيأ الكعك الكريمي والشاي.

جولز

العروس

أقف أمام المرآة في غرفتنا، الحجرة الأكبر والأفخم وسط حجرات القلعة العشر بطبيعة الحال. لا أحتاج من مكاني هنا إلا أن أميل رأسي ميلًا يسيرًا فتقع عيناي على البحر من النافذة. جو يومٍ مثالي، أشعة الشمس تتلألأ على الموج بإشراقٍ طاغٍ لدرجة أنه يصعب النظر إليها. يستحسن به أن يبقى على حاله حتى الغد.

تقع غرفتنا على الجانب الغربي من المبنى، وتقع هذه الجزيرة في أقصى الغرب قبالة الساحل، يعني أنه لا يوجد شيء، ولا أحد، بيني وبين الأمريكتين آلاف الأميال فحسب. أحب الإثارة الكامنة في هذه الحقيقة. القلعة نفسها هي مبنى شُيِّد في القرن الخامس عشر ورُمِّم ببهاء، يعبر الخط الفاصل بين الرفاهية والخيال، العظمة والراحة، مؤثث بسجادٍ عتيق على أرضية حجرية، ومغاطس بيضاوية بأرجلٍ عتيقة، ومدافئ تشعل بالخث المكمور. قلعة فسيحة كفاية لتكفي كل مدعوينا، لكنها كذلك صغيرة بما يكفي لتبث شعورًا بالحميمية. مثالية. كل شيءٍ سيكون مثاليًّا.

لا. تفكري. في. الرسالة. يا جولز.

لن أفكر في الرسالة.

اللعنة! اللعنة! لا أعرف لم أثّرت فيَّ هكذا. لم أكن شخصًا قلقًا طيلة حياتي، الشخص الذي يجفل مستيقظًا في الثالثة صباحًا، مضطربًا. لم أكن هكذا حتى وقتٍ قريب على الأقل.

وصلت الرسالة عبر صندوق بريدنا منذ ثلاثة أسابيع. قيل فيها ألا أتزوج بويل.. أن ألغي الأمر برمته. بشكلٍ ما اكتسبت فكرتها هذه السطوة المظلمة عليَّ. يخالجني شعور مريع في معدتي كلما فكرت فيها. شعور يشبه الفزع. وهو السخف بعينه. عادةً لا ألقي بالًا لمثل هذه الأشياء.

أعود وأنظر في المرآة. إنني أرتدي الثوب، الثوب الأبيض المعني. ظننتُ أن المهم أن أقيسه مرةً أخيرة، في عشية الزفاف، لتأكيد التأكيد. قستُه الأسبوع المنصرم لكني لا أترك شيئًا للصدفة أبدًا. وكما توقعت، مثالي. حرير كريمي اللون يبدو وكأنه صُبَّ عليَّ صبًا، يحدّ الكورسيه القوام المثالي والمطلوب بالضبط لجسدي الذي يأخذ شكل الساعة الرملية. بلا دانتيل ولا أي بهرجات أخرى، ليس أنا. زغب الحرير غاية في النعومة لا يمكن أن يتعامل معه إلا بقفازين أبيضين مميزين، اللذين، طبعًا، أرتديهما الآن. كلفني ثروة، لكنه استحقها. لستُ مهتمةً بالموضة لذاتها، لكني أُكِن احترامًا لسلطة الملابس في خلقها الانطباعات الصائبة. عرفت من فوري أن هذا الثوب هو صانع ملكات.

لكن في نهاية الأمسية سيكون متسخًا على الأغلب، حتى أنا شخصيًا لا يمكنني منع هذا. لذا سأقصّره لأسفل الركبة قليلًا وأصبغه بلونٍ أغمق. العملية هي أهم سماتي. إنني دائمًا، دائمًا، عندي خطة، هكذا كنت منذ نعومة أظافري.

أتحرك إلى مكان خطة توزيع الضيوف التي علّقتها على الحائط. يقول ويل إنني أشبه جنرالًا يُعلّق خرائط معاركه. لكنها مهمة، أليس كذلك؟ تؤثر توزيعة الجلوس في خلق المرح أو قتله إلى حدٍ كبير. أعرف أنني سأنجزها بمثاليةٍ هذا المساء. مربط الفرس هو التخطيط، هكذا حوّلت «ذا داونلود» من مدونةٍ إلى مجلةٍ مكتملة الأركان تضم ثلاثين موظفًا في عامين.

سيصل معظم الضيوف غدًا لحضور الزفاف ثم يعودون لفنادقهم على البر، استمتعت وأنا أكتب «زوارق في منتصف الليل» مستبدلةً فكرة «العربات» المعتادة في الدعوات. لكن سيبيت أهم مدعوينا على الجزيرة الليلة وغدًا، هنا في القلعة بصحبتنا. إنها قائمة خاصة نوعًا ما. كان على ويل أن يختار المفضلين من بين أصدقائه لأنهم كثر. لم يكن الأمر صعبًا عليَّ بالمرة لأن كل ما لدي هو وصيفة واحدة، شقيقتي من أمي أوليڤيا. ليس لدي صديقات كثر

لأنه ليس عندي وقت للنميمة. وتذكّرني تجمعات النساء بذكرى شلّة الفتيات اللعينات في مدرستي اللواتي لم يقبلنني بينهن قط. كانت مفاجئةً رؤية نساءٍ كثيراتٍ في حفل توديع عزوبيتي -لكن أغلبهن صاحبات رفاق ويل أو موظفاتي من المجلة- اللواتي أعددنها مفاجأةً غير سارةٍ تمامًا. أقرب صديقٍ لي رجل، تشارلي. وفي الواقع، سيكون هو إشبيني.

تشارلي وهانا في طريقهما إلى هنا الآن، آخر الواصلين من الضيوف الليلة. سيكون أمرًا رائعًا لقاء تشارلي. أشعر أنه مر وقت طويل منذ أن تسكعنا معًا مثل الكبار، دون ابنيه معنا. تعودنا فيما مضى أن نلتقي طوال الوقت، حتى بعد زواجه بهانا. خصص دائمًا وقتًا لي. لكن حين رزق بطفليه صار الوضع وكأنه انتقل إلى ذاك الملكوت الآخر: الملكوت الذي يعني فيه السهر هو الساعة الحادية عشرة، وكل شيءٍ لا يشمل الأطفال يجب أن يخطط له بعنايةٍ فائقة. حينها فقط بدأت أفتقد أيام ما كان لي وحدي.

- تبدين في غاية الروعة.

- أوه!

وثبت حين رأيته في المرآة: ويل. يستند إلى الباب ويراقبني. قلت همسًا: «ويل! إنني أرتدي الثوب! انصرِف! ليس مفترضًا أن ترى....».

لم يتحرك: «أليس مسموحًا لي بالمعاينة؟ ولقد رأيته الآن. (يتقدم نحوي) لا فائدة تُرجى من البكاء على الحرير المسكوب. تبدين -يا إلهي- لا أطيق صبرًا حتى أراك تسيرين في الممر وأنت ترتدين هذا». يتحرك ليقف ورائي، ويمسك بكتفيَّ العاريتين.

عليَّ أن أشتعل غضبًا. أنا فعلًا كذلك، لكني أشعر بسخطي يتلاشى. لأن يديه عليَّ الآن، تتحرك من كتفيَّ إلى ذراعيَّ، وتخالجني رجفة الحنين الأولى. أذكّر نفسي أيضًا بأنني أبعد ما أكون عن الريبة حيال رؤية العريس لثوب الزفاف قبل الأوان، لم أومن قط بأشياء كهذه.

أقول بفظاظة: «لا يجدر بك أن تكون هنا». لكنها فظاظة فاترة بعض الشيء.

يقول بينما تتلاقى أعيننا في المرآة، ويقتفي بإصبعه جانب وجنتي: «انظري إلينا. ألا نبدو رائعَين معًا؟».

وقد كان محقًا، نبدو رائعين. أنا، سوداء الشعر وبيضاء البشرة، وهو أشقر وضارب إلى السمرة. إننا الحبيبان الأجمل في أي مكان. لن أدّعي أن تخيُّل ظهورنا أمام العالم لا يشكّل جزءًا من الإثارة، وأمام الضيوف غدًا. أفكر في الفتيات في المدرسة اللواتي ضايقنني مرةً لكوني مهووسة بالدراسة وسمينة (ظهرتْ إمكاناتي متأخرًا) وأقول في نفسي: «انظروا من يضحك أخيرًا!».

يعض جلد كتفي الحاسر. أشعر بالإثارة، كأن رباطًا مطاطيًّا قُطع فجأةً. ثم يذوب ما تبقى من مقاومتي.

- ألم تقاربي على الانتهاء من هذا؟

ينظر إلى أعلى كتفي إلى خطة توزيع الضيوف.

أجيب: «لم أحسم أمر أمكنة الجميع بعد».

يحلّ صمت وهو يتفحصها، أنفاسه دافئة على رقبتي، تموج على عظمة ترقوتي. أشم رائحة عطر الحلاقة الذي وضعه: رائحة خشبية ترابية. سأل بلطف: «هل دعوت بيرس؟ لا أتذكر أنه كان في القائمة».

بطريقةٍ ما تمكنت من ألا أقلب عينيّ. أنا من أنجز كل الدعوات. أنا من أعدّ القائمة، ومن اختار شكلها ومكان طبعها، ومن جمّع العناوين، ومن اشترى الطوابع، ومن أرسلها دعوةً دعوة. كان ويل يسافر كثيرًا، مشغولًا في تصوير مسلسله الجديد. وبين حينٍ وآخر، يرميني باسمٍ جديد، شخص نسي ذكره. أظنه تحقق من القائمة بدقةٍ شديدة في النهاية، قائلًا إنه يريد التأكد من أنه لم ينسَ أحدًا.

بيرس كان إضافةً متأخرة.

أعترف: «لم يكن في القائمة، لكنني قابلتُه وزوجته في حانة جروتشو وسألتني عن الزفاف، كان من غير المعقول ألا أدعوهما. أقصد، لمَ لا؟». بيرس هو منتج مسلسل ويل. رجل لطيف وويل دائمًا على وفاقٍ معه. لم أفكر مرتين حيال توسيع دائرة الدعوة لأجله.

يقول ويل: «حسنًا. طبعًا، هذا منطقيٌّ». لكن في صوته حدة. لسببٍ ما أزعجه الأمر.

قلت وأنا أحيط عنقه بذراعي: «انظر يا عزيزي. ظننتك ستسعد بحضورهما. لقد سرَّتهما الدعوة فعلًا».

أجاب حذرًا: «لا أمانع. تفاجأت فحسب. (يحرك يديه إلى خصري) لا أمانع البتة. على العكس، إنها مفاجأة جميلة. سيكون من اللطيف قدومهما».

- طيب. سأضع الأزواج والزوجات بجانب بعضهم بعضًا. هل سينفع هذا؟

راح يقول بسخريةٍ بالغة: «المعضلة الأبدية».

- يا إلهي، أعرف... لكن الناس يهتمون بشدة بهذه التفاصيل.

أجاب: «حسنًا. لو كنت أنا وأنت مدعوين لأي زفاف فأعرف أين أريد الجلوس».

- أوه فعلًا؟

- قبالتك تمامًا، لأتمكن من فعل هذا.

تتسلل يداه لأسفل وتطويان التنورة الحريرية، متسللًا إليَّ.

أقول: «ويل! الحرير...».

تعثرت أصابعه على حافة الدانتيل.

أقول بشبه انزعاج: «ويل! ما الذي تفعل...». ثم تنزلق أصابعه وتبدأ بالتحرك ثم لا ألقي بالًا إلى الحرير بعدها. يهوي رأسي على صدره.

هذا ليس من شيمي بالمرة. لستُ من اللواتي يوافقن على الخطبة بعد شهورٍ قليلة من معرفة شخصٍ ما... أو تتزوجه عقب أشهر قليلةٍ بعدها، لكن سأحتج بأنه لم يكن قرارًا أرعن، أو متهورًا حتى، كما سيرى البعض. بل على العكس كليًا. إنه، أن تحسم أمرك وتنتهي، أن تعرف ما تريد وتتصرف بناءً عليه.

يقول ويل، صوته همهمة دافئة على عنقي: «بإمكاننا فعلها الآن، معنا وقت. صحيح؟».

أحاول أن أجيب «لا»، لكن أصابعه مستمرة فيما تفعل، فتحولت إجابتي إلى تأوهٍ طويل.

كنت أضجر في غضون أسابيع مع أي شريكٍ آخر عرفته، سرعان ما تتحول ممارسة الحب إلى أمرٍ مبتذل، عمل رتيب، لكن مع ويل، أشعر أنني لن أمل أبدًا، حتى -بالمعنى الحرفي- أشعر براحة أكثر مما فعلتُ مع أي شخص آخر. ليس للأمر علاقة بكونه وسيمًا -وهو وسيم طبعًا- من ناحيةٍ موضوعية. يعود سبب هذا التعلق إلى شيءٍ أعمق من هذا. إنني واعية لشعوري برغبة تملُّكه. تأتي مع كل فعلٍ كمحاولة لامتلاك غير محققٍ أبدًا، جزء جوهريٌّ منه يتملص دائمًا من قبضتي، ينزلق أسفل السطح.

هل للأمر علاقة بشهرته؟ بحقيقة أنه حين يكتسب المرء صيتًا فإنه يصبح، بطريقةٍ ما، ملكية عامة؟ أم هو شيء آخر، شيء متجذر به؟ سري ومجهول، خفي عن كل عين؟

قادتني هذه الخاطرة، كرهًا لا طوعًا، للتفكير في الرسالة. لن. أفكر. في. الرسالة.

تستمر أصابع ويل فيما تفعل. أقول بتراخٍ: «ويل، قد يأتي أي أحدٍ».

يرد همسًا: «أليست هذه هي الإثارة بعينها؟».

نعم، نعم، أظن ذلك. بالتأكيد ويل وسَّع آفاقي الحميمية. عرَّفني على فعلها في الأماكن العامة. أندهش من نفسي حين أتذكر هذا، لا أصدق أنني أنا من فعل هذه الأمور. چوليا كيجان لا تخالف القانون.

إنه كذلك الرجل الوحيد الذي سمحتُ له بتصويري عارية معه، مرة واحدة. وافقت على هذا فحسب بعد خطبتنا طبعًا. لستُ حمقاء! لكنه ما يفضله ويل، ومنذ بدأنا فعل هذا الأمر -ولا يروقني- فهو يمثل فقدانًا للسيطرة، وفي كل علاقةٍ دخلتها كنت أنا المسيطرة. لكنه يسكرني بهذا الانفلات. أسمعه يفك حزامه، والصوت، وحده الصوت يبعث شحنةً عبر جسدي. يدفع بي للأمام نحو التسريحة في شيءٍ من الخشونة. أتشبث بالطاولة. أشعر به متأهبًا لفعلها.

- مرحبا!! مرحبا!!؟ هل من أحدٍ هنا؟

فُتِحَ الباب مُصدِرًا صريرًا.

اللعنة.

يبتعد ويل عني وأسمع ارتباكه مع بنطاله، مع حزامه. أشعر بتنورتي تسقط. لا أقوى على الالتفات.

إنه يقف هناك، متكئًا عند عتبة الباب: چونو، إشبين ويل. منذ متى وهو هنا؟ هل رأى كل شيء؟ أشعر بالحرارة تتصاعد إلى وجنتيَّ وبالغضب من نفسي، ومنه. إنني لا أحمرّ خجلًا أبدًا أبدًا.

يقول چونو: «معذرةً يا شباب. هل قاطعت شيئًا؟ (أتعلو وجهه ابتسامة؟) أوه! (تقع عيناه على ما أرتديه) هل هذا...؟ أليس هذا مفترضًا أنه فأل سيئ؟».

أود أن أمسك بشيء ثقيل أضربه به، أن أصرخ في وجهه لينصرف، لكني مهذبة الآن. أستعيض بقولي: «أوه حبًا في الله!»، وآمل أن تسأله نبرة صوتي: «هل أبدو من البله الذي يؤمنون بشيءٍ كهذا؟»، أرفع حاجبيَّ وأعقد ذراعيَّ قبالته. إنني محترفة في لعبة رفع الحواجب، أستخدمها في العمل وتؤتي أُكلها. أتحداه أن ينطق بكلمةٍ أخرى. أظن چونو يخافني قليلًا على الرغم من تبجّحه. الناس، عمومًا، يخافون مني.

أجيبه: «كنا نراجع خطة توزيع الضيوف، لذا، نعم، قاطعت هذا».

- يا لحماقتي... (أراه أذعن بعض الشيء. رائع) لقد أدركت أنني نسيت شيئًا في غاية الأهمية.

أشعر بنبض قلبي يتسارع. لم ينسَ الخاتمين. أخبرت ويل ألا يعهد له بخاتمَي الزفاف حتى جفّ حلقي. لو نسيهما فعلًا فلستُ مسؤولةً عن أفعالي.

يقول چونو: «إنها بذلتي. جهزتها وكل شيء، في العبّارة... لكن في آخر لحظة... لا أعرف ما حدث. أظنها مُعلّقةً على باب منزلي».

أشيح بنظري عن كليهما وهما يغادران الغرفة. أركّز بكل قوتي على ألا أقول شيئًا أندم عليه. عليَّ أن أسيطر على انفعالاتي هذه الأيام، التي أعرف أنها تتغلب عليَّ دومًا. لستُ فخورة بهذه الحقيقة، أجد نفسي عاجزةً عن السيطرة عليها تمامًا، لكني أتحسن. الغيظ ليس إطلالةً مناسبة للعروس.

لا أفهم لمَ ويل يصادق شخصًا مثل چونو؟ لمَ لمْ يقطع صلته به حتى الآن؟ طبعًا السبب ليس أحاديثه الشائقة التي تُبقيه في حياة ويل. الرجل ليس مؤذيًا، على ما أظن... على الأقل، أفترض أنه ليس بمؤذٍ، لكنهما شديدا الاختلاف عن بعضهما بعضًا. ويل طموح وناجح وذكيٌّ في الطريقة التي يقدم بها نفسه. چونو بليد، واحد من هوامش الحياة. حين ذهبنا لنقلّه من محطة القطار على البر، كانت تفوح منه رائحة الحشيش وبدا مثل المتشرد. توقعته أن يهذب ذقنه وشعره على أقل تقدير قبل أن يأتي إلى هنا. ليس كثيرًا أن تطلب من إشبينك ألا يبدو مثل رجل الكهف. سأرسل ويل لاحقًا إلى غرفته بماكينة حلاقة.

يعامله ويل بلطف. بل اتضح حتى إنه أعدَّ لچونو تجربة أداء كي يشارك في مسلسل «النجاة من الليل»، وطبعًا لم ينجح فيها. حين سألت ويل عن سبب ملازمته لچونو، لخص إجابته في «بيننا ماضٍ». قال: «لا تجمعنا أمور مشتركة كثيرة هذه الأيام، لكننا صديقان منذ زمنٍ بعيد».

لكن ويل في مقدرته أن يكون حازمًا قاسيًا بعض الشيء. وكي أكون صادقة، هذه إحدى سماته التي جذبتني إليه حين التقينا أول مرة، وأحد أول الأشياء التي أدركتُ فورًا أنها من قواسمنا المشتركة. رغم وسامته الفاتنة وابتسامته التي تأسر القلب، ما جذبني به هو الطموح الذي أشم رائحته تعبق منه، من تحت سحره.

لذا فإن هذا ما يقلقني. لمَ يُبقي ويل صديقًا مثل چونو حوله لأجل ماضٍ مشترك فحسب؟ إلا إن كان في هذا الماضي شيء يلوي ذراعه به.

چونو

الإشبين

يصعد ويل خارجًا من الباب القلّاب، يحمل صندوقًا من بيرة جينيس. نجلس في أبراج القلعة، وننظر عبر فجوات المبنى الحجريّ. الأرض بعيدة تحتنا وبعض الحجارة هنا متقلقلة قليلًا. إن لم يكن رأسك ثقيلًا متزنًا في المرتفعات فقد تتأثر وتتأذى هنا. يمكن أن نرى من هذا العلو الطريق كلها حتى البر. أشعر بأنني ملك هنا والشمس على وجهي.

يُخرج ويل علبةً من الصندوق: «تفضل».

- آه الشراب الرائع. شكرًا يا صاحبي. وأعتذر أني دخلتُ فجأةً هناك. (غمزت له) ظننتكما ستؤجلانه إلى ما بعد الزفاف؟

يرفع ويل حاجبيه، بريء تمامًا: «لا أعرف عمَّ تتحدث. كنت وچولز نراجع توزيعة الضيوف».

- أوه فعلًا؟ أهذا ما يسمونه هذه الأيام؟ لكن أنا آسف حقًا على البذلة يا صاحبي. النسيان يدمرني.

أريده أن يعرف مدى استيائي، وأنني جاد في رغبتي لأكون إشبينًا كفئًا له. إنني كذلك فعلًا، أريده أن يفخر بي.

يقول ويل: «ليست أزمة. لا أعرف إن كانت بذلتي الاحتياطية ستكون على مقاسك لكن لا بأس إن أخذتها».

- هل أنت متأكد أن چولز ستتقبل الأمر؟ لم تكن سعيدةً تمامًا.

يلوّح ويل بيده: «نعم، ستكون بخير». وهو ما يعني أنها لن تكون بخير لكنه سيتولى الأمر.

- حسنًا، شكرًا يا صاحبي.

يتجرع جرعةً كبيرةً من بيرته، ويميل على الجدار الحجريّ من خلفنا. ثم يبدو عليه أنه تذكّر شيئًا: «أوه بالمناسبة، لم ترَ أوليڤيا، أليس كذلك؟ شقيقة چولز. إنها تختفي كثيرًا. إنها...»، يشير بيده إشارةً تعني «مجنونة»، لكن ما يقوله هو «حسّاسة».

قابلتُ أوليڤيا مطلع اليوم. إنها طويلة وسوداء الشعر، ذات شفتين عابستين مكتنزتين وساقين تمتدان حتى إبطيها. أجيب: «يا للأسف. لأن... لا تقل لي إنك لم تلاحظ؟».

يقول ويل: «چونو، إنها في التاسعة عشرة، يا إلهي! لا تكن مقززًا. وكذلك هي شقيقة خطيبتي!».

أقول سعيًا لإثارة غضبه: «التاسعة عشرة؟ يعني بلغت السن القانونية. إنه العُرف، أليس كذلك؟ يختار الإشبين إحدى الوصيفات، لكن توجد وصيفة واحدة فحسب، ليس وكأن بيدي خيارًا...».

يلوي ويل فمه كما لو أنه تذوق طعمًا مقرفًا: «لا أظن أن هذه القاعدة تطبق حين تصغرك الوصيفة بخمس عشرة سنة يا أحمق»

إنه يتصرف بتزمتٍ حاليًّا لكن النساء كُنَّ شاغله الشاغل دومًا. وكان هو شاغلهن في المقابل، اللعين المحظوظ. ثم تابع: «إنها محظورة عليك، اتفقنا؟ أدخِل هذا في رأسك الغليظ». ثم يدق على رأسي بمفاصل أصابعه.

لا يعجبني جزء «رأسك الغليظ» قليلًا. أدري أنني لستُ الألمع ذكاءً لكن لا أحب أن أُعامَل مثل الغبي كذلك. ويل يعرف هذا. كان هذا أحد الأشياء التي طالما أثارت غضبي منه ونحن في المدرسة. لم أُلقِ لقوله بالًا رغم ذلك. أعرف أنه لم يقصد.

يقول: «اسمع، لا يمكنني تركك تحوم وتغازل أخت زوجتي المراهقة. چولز قد تقتلني. وستقتلك أنت أيضًا».

أجيبه: «حسنًا. حسنًا».

يردف بصوتٍ خفيض: «ثم... لا تنسَ حقيقة أنها، تعرف... (يشير بيده إشارة «مجنونةٍ» مرةً ثانية) بالتأكيد ورثته عن والدة چولز. الحمد لله أن چولز أفلتت من هذه الجينات. على أي حال، لا تقربها، اتفقنا؟».

- طيب، طيب...

آخذ جرعةً من البيرة وأتجشأ بقوة.

يسألني ويل في محاولةٍ واضحة لتغيير دفة الحديث: «هل تمكنت من ممارسة التسلق مؤخرًا؟».

أقول: «لا، ليس تمامًا. لذا نبت هذا (أربت على كرشي) من الصعب إيجاد وقتٍ له حين لا تقبض راتبًا عليه، مثلك».

المثير للسخرية هو أنني كنتُ المهتم دومًا بهذه الأشياء. مغامرات الهواء الطلق. حتى وقتٍ قريب، أصبح هو ما أفعله لأكسب قوت يومي كذلك بعملي في مركز مغامراتٍ يقع في منطقة ليك ديستريكت.

يجيب ويل: «صحيح، أظن ذلك. إنه عمل ظريف، لكنه ليس ماتعًا كما يبدو حقًا».

أرد: «أشك في هذا يا صاحبي. بإمكانك تأدية أفضل عملٍ في العالم في وظيفتك!».

- حسن، أنت تعرف... لكنه ليس حقيقيًا، ثمة الكثير من الدخان والمرايا.

أراهن على أنه يستخدم كومبارس ليؤدي الأشياء الصعبة بدلًا عنه. لا يحب ويل أبدًا أن يخوض كل هذه المشقة بنفسه. إنه يدّعي أنه تمرن كثيرًا لأجل هذا المسلسل، لكن لا تزال شكوكي قائمة.

يضيف: «وهناك الكثير من المساحيق وتسريحات الشعر، وهو أمر سخيف جدًا حين تصور برنامجًا عن النجاة».

أقول بغمزة: «أراهن أنك تحب كل هذا. لن تتمكن من خداعي».

إنه مختال بنفسه بعض الشيء. أقول هذا بحبٍ طبعًا، لكني أستمتع بإثارة حفيظته. إنه رجلٌ وسيم ويدرك ذلك. بإمكان الواحد ملاحظة أن كل الملابس التي يرتديها اليوم، حتى بنطاله الچينز، كلها قطع فخمة، باهظة الثمن. ربما

هو تأثير چولز، إنها سيدة أنيقة ويمكنني تخيُّلها تحثه على دخول متجر فاخر للملابس. لكن لا أتصوره يمانع كثيرًا.

أقول وأنا ألكزه على كتفه: «إذن! جاهز لتكون رجلًا متزوجًا؟».

يبتسم ويومئ: «نعم. جاهز. ماذا في وسعي أن أقول؟ إنني متيّم».

تفاجأتُ حين أخبرني ويل بأنه سيتزوج، لن أكذب. دائمًا ما رأيته رجلًا محبًا للمتعة والتسلية. لا يمكن لامرأةٍ أن تقاوم سحرًا كهذا. أخبرني في حفل توديع عزوبيته عن المواعدات التي خاضها قبل چولز.

- أقصد، كانت رائعةً للغاية نوعًا ما. لم أحظَ بإثارة رهيبة مع فتيات كثيرات مثل التي عشتها بعدما سجّلت في تلك التطبيقات، ليس حتى وأنا في الجامعة. كنت أذهب للفحص كل أسبوعين! لكن منهن المجنونات، والبائسات المتعلقات، تعرف؟ ليس عندي وقت لكل هذا بعد الآن. ثم أتت چولز. وكانت... مثالية. إنها شديدة الثقة بنفسها، بما تريده من الحياة. إننا لا نختلف عن بعضنا بعضًا.

أراهنك على أن المنزل في إزلنجتون لن يضر، ولا الأب الثري. لم أقُل هذا. لم أجرؤ على المزاح في هذا الأمر، يصبح الناس غريبي الأطوار حين يتحدثون عن المال. لكن لو كان هناك شيء واحد ويل أحبّه دائمًا، ربما أكثر من حبه للنساء، فهو المال. ربما هو من آثار طفولته، أنه لم يحظَ بقدر ما حظي البقية في مدرستنا قط. أتفهم هذا. كان يدرس هناك لأن والده كان المدير، بينما أنا التحقت بها عبر منحةٍ رياضية. عائلتي ليست ثريةً بالمرة. لفتُّ انتباههم وأنا ألعب الرجبي في بطولةٍ مدرسية في كرويدن وأنا في الحادية عشرة وتواصلوا مع أبي. يقام هذا النوع من الأحداث في تريڤز، كان أمرًا شديد الأهمية لهم أن يكوّنوا فريقًا بارعًا.

صوت يأتي من تحتنا: «هاي هاي هاي! ما الأخبار في الأعلى؟».

يجيب ويل: «يا شباب! تعالوا تعالوا. اللّمة أحلى!».

هراء. كنتُ مستمتعًا برفقة ويل وحده. يصعدون ويمرون من الباب القلّاب، أصدقاء ويل الأربعة. أتزحزح لأفسح لهم مكانًا، وأومئ مع وصول كل واحدٍ منهم: فيمي، ثم آنجس، ودنكن وپيتر.

يقول فيمي محدقًا من الحافة: «اللعنة! المكان مرتفع من هنا».

يمسك دنكن بكتفي آنجس ويمثل أنه يدفعه: «مهلًا! أنقذتك».

يطلق آنجس صرخةً حادة ونضحك كلنا. يقول بغضبٍ وهو يسترد اتزانه: «لا تفعل هذا! يا إلهي! إنه خطير للغاية!».

يتشبث بالحجر بقوةٍ كأنه مرتعب من خطر السقوط، ويمشي ببطءٍ ليجلس جوارنا. كان آنجس دائمًا الجبان في شلّتنا، لكنه حظي بالقبول لأنه وصل راكبًا دراجة والده النارية في بداية الفصل الدراسي.

ناولهم ويل علب البيرة التي كانت عيناي عليها قبل ثوانٍ معدودة.

يقول فيمي: «شكرًا يا صاحبي. (ينظر إلى العلبة ويردف) نتبع عادات أهل البلد، هه؟».

يشير پيت إلى علب الشراب على الأرض: «آنجس، أظن أن عليك أن تحظى بقليلٍ من هؤلاء كي تنسى يا صاحبي».

يقول دنكن: «بالضبط. لكن لا تفرط. أو أنك لن تلقي لسقوطك بالًا!».

يقول آنجس ووجهه يحمر غضبًا: «اخرسا». لكنه لا يزال شاحبًا للغاية، وأرى أنه يبذل كل ما في وسعه كيلا ينظر من الحافة.

يردف پيت بصوتٍ خفيض: «أحضرت معي الذخيرة اللازمة، ستقنعك بأن في وسعك القفز والطيران».

يقول فيمي: «الطبع غلّاب يا پيت، صح؟ هل سرقت أقراص أمك، أتذكر حقيبتك وهي تخشخش بعد عودتك من إجازة التغيّب».

يقول آنجس: «صح، ندين لها كلنا بالشكر».

يقول دنكن: «طبعًا سأشكرها، محفور في ذاكرتي أن أمك مثيرة يا پيت».

يقول فيمي: «لمَ لا تفصح عن هذا الحب غدًا يا صاحبي؟».

يغمز پيت له ويقول: «أنت تعرفني. دائمًا محسن لأصدقائي».

سألت: «لمَ ليس الآن؟»، أحتاج لمخدرٍ يفقدني الإحساس، تلاشى تأثير الحشيش الذي دخنته سابقًا.

يقول پيت: «أحب موقفك يا چي الكلب. لكن عليك أن تتروى قليلًا».

يقول ويل بسخريةٍ جادة: «يستحسن بكم التأدب غدًا. لا أريد أن يفضحني أصحابي».

يجيب بيت وهو يلقي ذراعه حول كتفه: «طبعًا سنحسن التصرف يا صاحبي! نريد فقط أن نتأكد أن زفاف حبيبنا سيكون حدثًا لا يُنسى».

كان ويل دومًا هو مركز كل شيء، مرساة الشلّة، وكلنا ندور حوله. ماهر في الرياضة، ودرجاته ممتازة بما يكفي مع مساعدة من هنا أو هناك. أحبّه الكل. وأظن أنه بدا عليه أنه نال كل شيءٍ بسهولة، وكأنه لم يتكبد عناءً لأجل أي شيء. إن لم تعرفه مثلما أعرفه أنا، فستراه على هذه الشاكلة.

جلسنا نشرب في صمتٍ للحظاتٍ أسفل الشمس.

يقول آنجس: «يشبه هذا أيام ما كان في تريفز (مؤرخنا!) أتتذكرون كيف كنا نُهرّب البيرة إلى المدرسة؟ ونصعد لسطح صالة الرياضة لنشربها؟».

- نعم، ويبدو أنك تتذكر يوم ما بلت على نفسك من الخوف وقتها أيضًا!

يقطب آنجس وجهه: «اللعنة عليك».

يقول فيمي: «چونو هو من هرّبهم فعلًا، من تلك الحانة غير المرخصة في القرية».

قال دنكن: «صحيح. لأنه كان طويلًا وبشعًا ومشعرًا، حتى في الخامسة عشرة من عمره! أليس كذلك يا صاحبي؟». يميل ناحيتي ويوكز كتفي.

يردف آنجس: «وكنا نشربها دافئةً من العلبة، لأننا لم نكتشف طريقةً لتبريدها. كان أجمل ما شربته في حياتي كلها، ربما إلى الآن، وأنا في وسعي تجرع بينيديكتين كل يومٍ من أيام الأسبوع إن أردنا».

يقول دنكن: «تقصد مثلما فعلنا منذ بضعة أشهر؟ في الراك؟».

أسأل: «متى كان هذا؟».

أجاب ويل: «آه.. آسف يا چونو. كنتُ أعرف أنه سيكون بعيدًا جدًا عليك لتأتي من كمبريا».

أجيب: «أوه... منطقي».

أتصورهم يتناولون غداءً لطيفًا مع الشمبانيا في نادي السيارات الملكي، واحد من تلك الأماكن الفاخرة التي لا تسمح بالدخول إلا لأعضائها. صحيح. أزدرد جرعة كبيرة وطويلة من البيرة. أحتاج لمزيدٍ من الحشيش.

قال فيمي: «كانت لذتها في مفاجأتها الأولى، ونحن في تريفز. هذا ما ميّزها. معرفة أننا قد نُكشَف في أي لحظة».

يقول ويل: «يا إلهي! هل علينا فعلًا أن نتحدث عن تريفز؟ إنه لسيئ بما يكفي سماع حديث أبي عنها».

يتحدث مبتسمًا لكني ألاحظ نظرته المرهقة قليلًا، كما لو أن البيرة قد اتجهت إلى المكان الخطأ. أشعر بالحزن دائمًا على ويل لأن أباه رجل كهذا. لا عجب في شعوره دومًا بأن عليه أن يثبت نفسه. أعرف أنه يفضّل نسيان الفترة التي قضاها هناك برمتها. وأنا كذلك.

يقول آنجس: «كانت سنوات المدرسة تبدو كئيبةً للغاية آنذاك، لكن الآن، حين أفكر في الماضي -والله وحده يعلم ماذا يقول هذا عني- أشعر أنها كانت أهم سنوات عمري. أقصد، حتمًا لن ألحق أطفالي بها -لا أقصد أي إهانةٍ لأبيك يا ويل- لكن لم يكن كل ما بها سيئًا. أليس كذلك؟».

يقول فيمي بشيءٍ من الشك: «لا أعرف... استفرد بي معلمون كثر. عنصريون ملاعين». طريقته لا مبالية، لكني أعرف أنه لم يكن سهلًا عليه بالمرة أن يكون واحدًا من الطلاب السود القلائل في المدرسة.

يقول دنكن: «أنا أحببتها. (يردف حين ينظر إليه الجميع) صدقًا. وحين أفكر فيها أدرك مدى أهميتها، تعرفون؟ لو عاد بي الزمن لن أغير من أمرها شيئًا؛ لقد جمّعتنا».

يقول ويل: «على أي حال، لنعُد للواقع، رأيي أن أمورنا كلنا مستتبة حاليًا، صحيح؟».

حياته رائعة طبعًا. وأبلى الشباب الآخرون بلاءً حسنًا كذلك، فيمي جرّاح، وآنجس يعمل في شركة أبيه للتنمية، ودنكن رأسمالي مخاطر -أيًا كان معنى هذا- وپيت يعمل في الدعاية، وهو عمل لا أرجح أنه يساعد في إدمانه على الكوكايين.

يسأل بيت ملتفتًا نحوي: «وأنت يا چونو، ما الذي تفعله هذه الأيام؟ كنت منشغلًا بأمور تعليم التسلق هذه، صحيح؟».

أومأ وأجيب: «في مركز مغامرات. ليس التسلق فحسب، بل كذلك مهارات العيش في الأحراش وبناء المخيمات....».

قطع دنكن حديثي: «آها آها... تعرفون، كنتُ أفكر في إعداد يومٍ للشلّة. كنت سأحدّثكم عنه. سنحصل على خصمٍ إن كنا فريقًا».

قلت وأنا أفكر في أن شخصًا فاحش الثراء مثل دنكن لا يحتاج لطلب خصومات: «كنت سأحب ذلك، لكن لم أعُد أستطيع».

- أوه، لماذا؟

- إنني أعمل على تأسيس مصنع ويسكي. سيرى النور قريبًا. ربما خلال الأشهر الستة القادمة.

يسأل آنجس وكأن حماسه خبا: «وعندك تجار يشترونه؟». أظن طبعًا أنه أمر لا يتماشى وصورته عن چونو الأبله الضخم، تمكنت بطريقةٍ ما من الإفلات من الوظيفة المكتبية المملة والوصول للقمة.

- نعم، نعم لدي.

سأل دنكن: «محلات ويتروز؟ سينسبري؟».

- وبقيتهم.

يقول آنجس: «المنافسة شرسة».

- صحيح. تواصلنا مع أسماء كبيرة وقوية في المجال، أماكن شهيرة، حتى ذاك المصارع في بطولة القتال النهائي (UFC)، كونور ماكغريغور. لكننا أردنا أن نضفي عليه، ممم لا أعرف، شعورًا بالندرة أكثر. مثل أنواع الچن الجديدة.

قال ويل: «إننا محظوظون للغاية لأننا سنقدمه في الزفاف غدًا، أحضر چونو صندوقًا منه. سنجربه هذا المساء أيضًا. ما كان اسمه؟ أتذكر أنه كان اسمًا رائعًا».

أجبت: «هيل-ريزر». إنني فخور بالاسم صراحةً. مختلف عن تلك الماركات العتيقة والمتحجرة، ومنزعج بعض الشيء أن ويل نسيه، كان مكتوبًا على

الملصقات على الزجاجات التي أعطيتها له البارحة. لكن الرجل سيتزوج غدًا. باله مشغول بما يكفي.

قال فيمي: «من كان ليتوقع هذا؟ ها نحن أولاء كلّنا، راشدون محترمون. ونجونا من ذاك المكان؟ مرةً ثانيةً يا ويل، لا أقصد إهانةً لوالدك. لكنه كان يشبه مكانًا من عصر آخر. إننا محظوظون لأننا خرجنا منه أحياء منه... كان أربعة طلاب يتركون المدرسة كل فصلٍ على ما أتذكر».

لم أكن لأغادرها قط؛ كانت عائلتي متحمسة بشدةٍ حين حصلتُ على المنحة الرياضية، أن ألتحق بمدرسةٍ راقية، مدرسة داخلية! أظنهم فكروا في كل الفرص التي ستمنحها لي هذه المدرسة.

يقول بيت: «صحيح. تتذكرون ذلك الولد الذي شرب الإيثانول من قسم العلوم لأن أحدًا تحداه، وهرعوا به إلى المستشفى؟ وطبعًا لم تخلُ من الأولاد الذين كانت تصيبهم انهيارات عصبية...».

يقول دنكن بحماسٍ مشتعل: «أوه اللعنة! وهل تتذكرون ذاك الفتى الهزيل؟ الذي مات. نجا الأقوياء وحدهم! (يبتسم ابتسامة واسعة لنا) الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها. هل أنا محق يا شباب؟ مجتمعون معًا في عطلة نهاية الأسبوع هذه!».

يقول فيمي: «تمام. لكن انظر إلى هذا. (يميل مشيرًا إلى البقعة في رأسه حيثما قلّ الشعر فيها) أصبحنا عجزةً ومملين الآن، أليس كذلك؟».

أجاب دنكن: «تحدث عن نفسك يا صاحبي! أظن أن في وسعنا أن نولع الأجواء إن تطلب الحدث».

يقول ويل محافظًا على ابتسامته: «لا، لن تفعل. ليس في زفافي».

يجيب دنكن: «سنفعل. تحديدًا في زفافك».

يقول فيمي لويل: «كنتُ أعرف أنك أول من سيتزوج منا، وأنت بارع جدًا مع النساء».

يقول آنجس متملقًا كعادته: «وأنا حسبتك لن تتزوج في حياتك. ألست شديد البراعة معهن كلهن؟ لمَ تستقر على واحدة؟».

يسأله بيت: «تذكر تلك الفتاة؟ من المدرسة العامة؟ الصورة التي صورتها لها وهي عارية؟ يا إلهي!».

يقول آنجس: «يا لها من صورةٍ تُثري المخيّلة. ما زلت أفكر فيها من حينٍ لآخر».

يقول دنكن: «صحيح، لأنك عاجز عن إثارة نفسك بنفسك».

يغمز ويل: «في كل الأحوال... نظرًا إلى أننا مجتمعون معًا من جديد، حتى لو كنا عجزةً ومملين، كما قلت يا فيمي بلطفٍ بالغ، أظن أن هذا حدث يستحق أن نرفع له نخبًا».

يقول دنكن وهو يرفع علبته: «سأشرب لهذا!».

يتبعه بيت: «أنا أيضًا».

يقول ويل: «في صحة الناجين».

رددنا خلفه مثل الصدى: «في صحة الناجين!».

أمعن النظر فيهم، وأشعر للحظةٍ أنهم اختلفوا، أصبحوا أينع شبابًا. كأن الشمس طلتهم ذهبًا. لا ترى البقعة الصلعاء في رأس فيمي من هذه الزاوية، أو كرش آنجس، وبيت يبدو وكأنه لا يخرج إلا ليلًا. وحتى ويل يبدو أفضل، ألمع، إن كان هذا ممكنًا. ينتابني ذلك الإحساس المباغت بأننا عدنا كلنا هناك، جالسين فوق سطح صالة الرياضة ولم يحدث أي مكروهٍ بعد. قد أقدّم أي شيءٍ لأعود لهذا الزمن.

يقول ويل مستنزفًا القطرات الأخيرة من البيرة: «حسنًا... عليَّ أن أنزل، تشارلي وهانا سيصلان قريبًا. تريد چولز أن نقيم حفل ترحيبٍ على رصيف المرفأ».

أظن أنه مع وصول الجميع، ستتسارع كل الترتيبات. لكني أتمنى للحظةٍ لو نعود كي أكون أنا وويل وحدنا، نتجاذب أطراف الحديث، كما كنا قبل وصول الآخرين. لم أرَ ويل كثيرًا في الآونة الأخيرة. رغم ذلك فهو الشخص الذي يعرف عني أكثر مما يعرف أي أحدٍ آخر في العالم، فعلًا. وأنا كذلك أعرف عنه أكثر من أي أحد آخر.

أوليڤيا

وصيفة العروس

كانت حجرتي على ما يبدو غرفة خادمةٍ فيما مضى. سرعان ما عرفتُ أنني أسفل غرفة ويل وچولز مباشرةً. سمعت كل شيءٍ البارحة. حاولت ألا أفعل طبعًا. لكن كأنه كلما حاولت أكثر ألا أسمعهما، أسمع أدق الأصوات، كل تنهيدةٍ وكل نفَس. كأنهما يتعمدان فعلًا أن يسمعهما الجميع.

فعلاها هذا الصباح ثانيةً، لكن كان في وسعي وقتها أن أخرج على الأقل، أن أهرب من القلعة. كلنا نتبع التعليمات بألا نتمشى في الجزيرة بعد حلول الظلام. لكن لو كرراها هذا المساء فمستحيل أن أبقى هناك. سأجرب حظي مع سخنة الخث والجروف.

أحوّل هاتفي لوضع الطيران وأعيده من جديد لأرى إن كان أي تغيُّرٍ سيحدث لرسالة «لا توجد إشارة»، لكن لا شيء. أشك أن لدي رسائل جديدة أساسًا. انقطع اتصالي بكل صديقاتي نوعًا ما. ليس وكأننا تشاجرنا وانقطعنا عن التحدث مع بعضنا بعضًا، بل كأنني غادرتُ عالمهن منذ تركت الدراسة في الجامعة. أرسلن لي رسائل في البداية:

«نتمنى أن تكوني بخير يا حلوة».

«اتصلي لو أردتِ الحديث يا ليڤز».

«سنراك قريبًا، صح؟».

«نفتقدك 💔».

«ماذا حدث؟!».



فجأةً أشعر بأنني لا أقدر على التنفس. أمد يدي إلى المنضدة المجاورة للسرير. شفرة الموسى عليها: غاية في الضآلة لكن غاية في الحدة. أنزل بنطالي الجينز وأضغط بحافة الموسى على باطن فخذي، في الأعلى قرب سروالي الداخلي، وأسحبه في اللحم حتى يتدفق الدم. لونه أحمر داكن مقارنةً ببياض البشرة المزرق. ليس جرحًا غائرًا، قطعتُ أغور منه. لكن وخزته هي ما تركّز كل شيءٍ إلى نقطةٍ بعينها، إلى المعدن وهو يخترق لحمي، لذا يتلاشى كل شيء، للحظةٍ واحدة.

تسترخي أنفاسي الآن. ربما سأحدث قطعًا ثانيًا...

أحدهم يطرق بابي. ألقي الشفرة، وأتعثر محاوِلةً إغلاق بنطالي. أقول: «من؟».

- أنا

قالت چولز ذلك وهي تفتح الباب قبل أن أخبرها بأن تدخل، وهو ما ليس غريبًا عليها. الحمد لله أنني أسرعت التصرف. ثم تابعت: «أحتاج أن أراك في ثوبك. لدينا متسع من الوقت قبل وصول هانا وتشارلي. نسي چونو بذلته اللعينة وأريد التأكد أن واحدًا على الأقل من المشاركين في حفل الزفاف سيبدو مهندمًا».

أقول: «لكنني قستُه بالفعل. يلائمني تمامًا».

هذه كذبة. ليس لدي أدنى فكرة عن إن كان مقاسي حتى. كان مفترضًا أن أذهب إلى المتجر وأجربه، وقد وجدتُ عذرًا في كل مرةٍ حاولت چولز أن تأخذني إلى هناك، استسلمتْ في النهاية واشترته على شرط أن أقيسه وأخبرها فورًا. أخبرتها بأنني فعلت لكن لم أقوَ على ارتدائه. إنه ملقى في علبته الكرتونية منذ أن أوصلته چولز.

تقول چولز: «ربما قستِه أنت. لكن أريد أن أراه بنفسي. (تبتسم لي بغتةً وكأنها تذكرتْ توًا أن تفعل ذلك) في وسعك قياسه في غرفتنا، إن أحببت». تقولها وكأنها تعرض عليَّ امتيازًا مدهشًا.

أجيبها: «لا، شكرًا. أفضّل أن أبقى هنا...».

- هيا تعالي، عندنا مرآة كبيرة رائعة.

أفهم أنه ليس عرضًا اختياريًا. أروح لخزانتي وأرفع الصندوق الكبير ذا اللون الأزرق المخضر. تزم چولز شفتيها. أعرف أنها ستغضب لأني لم أعلقه بعد.

نشأتي مع چولز تُشعرني أحيانًا بأن لدي أمًا ثانية، أو أمًا تشبه الأمهات الأخريات، متسلطة وحازمة وكل هذه الأشياء. أمي ليست هكذا تمامًا، لكن چولز تلعب هذا الدور.

أتبعها إلى حجرتها. وعلى الرغم من أن چولز منظمة ونظيفة للغاية، ورغم وجود نافذةٍ مفتوحة لتجدد الهواء، فقد فاحت الغرفة برائحة الأجساد وعطر الحلاقة الرجالي، وأظن (وأنا لا أريد أن أظن) بالجنس. ينتابني شعور غير مريحٍ لكوني هنا، في مساحتهما الخاصة.

تغلق چولز الباب وتلتفت لي بذراعين معقودتين، وتقول: «هيا! ارتديه».

لا أشعر أن بيدي خيارًا، چولز بارعة جدًّا في بث هذا الشعور فيمن حولها. أتجرد من كل ملابسي عدا الداخلية، وأضغط ساقيَّ معًا في حالة ارتباك.

يقشعر جسدي أمام النسيم الخفيف الآتي من النافذة. أشعر بها تراقبني، وأتمنى لو تمنحني شيئًا من الخصوصية. تقول ناقدةً: «نقص وزنك». نبرتها مراعية، لكنها لا تقع موقعًا طيبًا في نفسي. أعرف أنها تشعر بالغيرة، هذا محتمل. مرةً ثملتْ وراحت تهذر عن كيف لقبها الأولاد في المدرسة بـ «السمينة». إنها دائمًا تعلق على وزني، كأنها لا تعرف أني نحيفة من يومي، حتى منذ كنتُ فتاةً صغيرة. من الممكن أن تكرهي جسدك وأنت نحيفة كذلك، أن تشعري بأنه يخفي عنك أسرارًا، أن تشعري بأنه يخذلك.

چولز على حق. نقص وزني. لا يمكنني إلا أن أرتدي أصغر بناطيلي حاليًّا، وحتى تلك تنزلق عن أردافي. لم أحاول أن أفقد وزنًا ولا أي شيء. لكن شعور الخواء الذي ينتابني حين لا آكل كفايتي.. يتماشى مع ما أشعر به. يبدو هو الصواب.

تُخرج چولز الثوب من الصندوق. تقول غاضبةً: «أوليڤيا! أكان هنا طوال الوقت؟ انظري إلى الكرمشة! الحرير رقيق للغاية... حسبتك ستولينه رعايةً أفضل!». بدت كما لو أنها تخاطب طفلًا. أظن أن هذا ما تشعر به، لكني ما عدت طفلة.

أجيب: «آسفة. نسيت». وهذه كذبة.

- حسنًا. الحمد لله أنني أحضرتُ مكواة البخار، لكن سنستغرق وقتًا طويلًا لنفرده. عليك أن تفعلي هذا لاحقًا. الآن قيسيه فحسب.

جعلتني أرفع ذراعي كالأطفال، وهي تُدخل الثوب من فوق رأسي. وبينما هي تفعل، ألاحظ علامةً وردية زاهية بطول بوصةٍ على باطن رسغها. إنه حرق على ما أظن. يبدو متقرحًا وأتساءل كيف أصيبت به؛ چولز حريصة جدًا، ليست خرقاء عادةً لتحرق نفسها. لكن قبل أن أدقق النظر به، كانت تمسكني من أعلى ذراعي وتوجهني إلى المرآة كي نرى الثوب. لونه ورديٌّ فاتح، لون محال أن أرتديه لأنه يزيدني شحوبًا على شحوبي. تقريبًا نفس لون طلاء الأظافر الفاخر الذي أجبرتني چولز على وضعه في لندن الأسبوع الماضي. لم تعجب حالة أظافري چولز. قالت لمُجمِّلة الأظافر في الصالون «أن تبذل ما في وسعها مع أصابعي». يضحكني شكل يدي الآن حين أنظر إليها، لمعان الطلاء الوردي المغرور الذي يشبه طلاء الأميرات ومن حوله بشرتي المتآكلة الدامية.

تخطو چولز للوراء، ذراعاها معقودتان وعيناها ضيقتان: «إنه واسع قليلًا. يا إلهي، كان هذا أصغر مقاسٍ في المحل. بحق المسيح يا أوليڤيا! أتمنى لو كنتِ أخبرتني أنه ليس مضبوطًا عليك لكنت ضيقته. لكن... (تعبس وهي تدور من حولي في دائرةٍ بطيئة. أشعر بالنسيم البارد يأتي عبر الباب ثانيةً، وأرتجف) لا أعرف، ربما سينفع وهو واسع قليلًا. أظن أنها موضة، أو شيء من هذا القبيل».

أمعن النظر في انعكاسي في المرآة. شكل الثوب نفسه ليس قبيحًا للغاية، قصته مائلة ومنسابة، على موضة التسعينيات تقريبًا. إنه شيء قد أرتديه في العادي إن كان بلونٍ مختلف. چولز ليست مخطئة، لا يبدو شنيعًا. لكن قماشه يشف سروالي الأسود الداخلي وتفاصيل صدري.

تقول چولز وكأنها قرأت ما في عقلي: «لا تقلقي. معي حمّالة صدرٍ لاصقة لك. واشتريتُ لك سروالًا لحميَّ اللون، كنت أعرف أنك لن تجلبي واحدًا لنفسك».

عظيم. سيُشعرني هذا بأنني أقل عريًا بكثير.

إنه لأمر غريب، أن نقف معًا أمام المرآة، وچولز من خلفي، كلتانا تنظر إلى انعكاسي. هناك اختلافات واضحة بيننا. إننا مختلفتان خصيصى في شكل جسدينا، لدي الأنف الأصغر -أنف أمي- ولدى چولز الشعر الأجمل، كثيف ولامع. لكن حين نكون معًا، كالآن مثلًا، أرى أننا متشابهتان أكثر مما قد يظن الناس. رسم وجهينا واحد، مثل وجه أمي. واضح أننا شقيقتان، أو نكاد أن نكون.

أتساءل إن كانت چولز تلحظ التشابه بيننا مثلي. التعبير الذي يعلو وجهها غريب ومتذمر.

تقول: «أوه يا أوليڤيا». ثم -أراه يحدث، في المرآة أمامنا، قبل أن أشعر به فعلًا- تمسك بيدي وتحيطها بيديها. أتجمد. إنه ليس من طباع چولز، فهي لا تميل إلى التلامس الجسديِّ مطلقًا، ولا لإبداء العواطف. ثم تقول: «اسمعي. أعرف أننا لم نكن على وفاقٍ دائمًا. لكنني معتزة بكونك وصيفتي. تعرفين هذا، أليس كذلك؟».

أجيب: «نعم»، تصدر مني مثل حشرجة.

تضغط چولز ضغطةً رقيقة على يدي، التي هي كعناقٍ طويلٍ من وجهة نظرها: «أخبرتني أمي أنك انفصلتِ عن ذاك الفتى؟ تعرفين يا أوليڤيا، في عمرك ستشعرين بأنها نهاية العالم. لكن يحدث أن تلتقي شخصًا تشعرين بالتناغم معه فعلًا، ووقتها تفهمين الفرق. مثلي أنا وويل...».

أجيبها: «أنا على ما يرام. الأمور بخير».

وهذه كذبة. لا أريد التحدث عن أيٍّ من هذا لأي أحد. چولز على رأسهم. إنها آخر شخصٍ قد يفهم إن أخبرتُها أنني لا أتذكر لمَ قط لم أتجشم عناء وضع مساحيق التجميل، أو ارتداء سروالٍ داخليٍّ جميل، أو شراء ملابس جديدة، أو أن أقص شعري. يبدو وكأن شخصًا ثانيًا هو من راح وفعل كل هذه الأشياء.

فجأةً أشعر بشعورٍ غريب. شيء من الدوار والغثيان. أترنح قليلًا فتلحقني چولز وتسندني، يداها تقبضان على أعلى ذراعي بقوة.

أقول قبل أن تسأل عما دهاني: «أنا بخير». أنحني وأخلع الحذاء الحريريَّ الرماديَّ الفاخر أكثر من اللازم الذي اختارته چولز لي، بزينته المرصعة

بالجواهر، إنه يأخذ وقتًا طويلًا لأن يدي أصبحت خرقاء وعديمة النفع. ثم أرفع ذراعي وأخلع الثوب من فوق رأسي، بعنفٍ شديد لدرجة أن چولز تشهق شهقةً خفيضة، كأنما ظنت أنه سيتمزق. لم أستند عليها.

قالت: «أوليڤيا! ما الذي أصابك بحق الجحيم؟».

أجيبها: «آسفة». لكني أحرك فمي بالكلمات فحسب، لا يخرج أي صوت.

- اسمعي. أريد منكِ أن تبذلي قليلًا من الجهد، في اليومين القادمين فحسب. اتفقنا؟ إنه حفل زفافي يا ليڤي. بذلتُ جهدًا جهيدًا ليتم بشكلٍ مثاليٍّ. اشتريت هذا الثوب لأجلك، وأود لو ترتدينه لأنني أريدك أن تكوني حاضرةً هناك، بصفتك وصيفتي. هذا يمثّل في نظري شيئًا. وهو يمثل لك شيئًا بالمثل، أليس كذلك؟

أومئ: «نعم. نعم. إنه كذلك». ثم، ولأنه بدا على وجهها وكأنها تنتظر أن أكمل، أردف: «إنني بخير. لا أعرف ماذا... ما الذي حدث. لكنني على ما يرام الآن».

وهذه كذبة.

چولز

العروس

أدفع باب غرفة أمي وأدخل في سحابةٍ من عطر شاليمار ودخان السجائر. يستحسن ألا تكون قد دخنت هنا. تجلس أمي قبالة المرآة، ترتدي ثوبها الكيمونو الحريريَّ، منهمكة في تحديد شفتيها بلونها القرمزيِّ المميز.

- يا إلهي ما هذه السحنة الغاضبة. ماذا تريدين يا عزيزتي؟

عزيزتي. القسوة الغريبة لهذه الكلمة.

أبقي نبرة صوتي هادئة، عقلانية. أحاول اليوم أن أكون في أحسن حالاتي: «ستحسن أوليڤيا التصرف غدًا، أليس كذلك؟».

تتنهد أمي تنهيدةً ضجرة. ترتشف من الشراب الذي يجاورها. يبدو مريبًا وكأنه مارتيني. عظيم، بدأتْ على الفور بالأقوى تأثيرًا.

قلت: «لقد جعلتها وصيفتي! كان في وسعي أن أختار غيرها من بين عشرين فتاة أخرى. (ليس صحيحًا تمامًا) لكنها تتصرف كما لو أنه شيء ثقيل عليها. لم أطلب منها فعل أي شيء. لم تحضر حفل توديع العزوبية رغم أن هناك غرفة فارغة في الڤيلا لها. لم يكن هذا عاديًّا...».

- كان يمكن أن آتي بدلًا عنها يا عزيزتي.

أحدق إليها. لم يخطر ببالي قط أنها قد تود الحضور. كذلك من سابع المستحيلات أن أدعو أمي لحضور حفل توديع عزوبيتي! كانت ستتحول، لا محالةٍ، إلى حفلةٍ للنجمة آرامينتا چونز.

أجيبها: «أمي، اسمعي. لا شيء من هذا يهم، إنه ماضٍ وولى الآن. لكن ألن تحاول على الأقل أن تبدو سعيدةً لأجلي؟».

تقول أمي: «لقد مرت بوقتٍ عصيب».

- تقصدين لأن حبيبها انفصل عنها أو أيًا كان؟ لم يدُم ارتباطهما إلا عدة أشهر وفقًا لما رأيته على الإنستجرام. واضح أنها كانت قصة حب ملحمية!

تسلل شيء من الشراسة لصوتي رغمًا عن نواياي الطيبة.

تركز أمي الآن على العمل الدقيق لتحديد قوس شفتيها. قالت فور انتهائها: «لكن، يا عزيزتي، إن فكرت في الأمر، فأنت وويل الوسيم لم تقضيا وقتًا طويلًا معًا، أليس كذلك؟».

أجيب بحنق: «هذا مختلف تمامًا. أوليڤيا في التاسعة عشرة من عمرها. إنها مراهقة. يظن المراهقون أنهم مغرمون بينما ما يحدث فعلًا هو أنهم يتفجرون بالهرمونات. ظننتُ أنني وقعت في الحب حين كنت في عمرها أيضًا».

يخطر ببالي تشارلي في الثامنة عشرة من عمره، سمرته التي تشبه سمرة الكعك، والخط الأبيض الذي كان يظهر أحيانًا من سرواله القصير الواسع. أتذكر أن أمي لم تعرف قط -أو لم تهتم كي تعرف- قط عن علاقاتي الغرامية في مراهقتي. كانت غارقةً في حياتها الغرامية الخاصة. حمدًا لله، أنا على ثقةٍ بأن أيٍ مراهقٍ لا يرغب في هذا النوع من التدقيق في حياته. ورغم هذا، لا أقوى على كبح شعوري بأن هذا يثبت أن علاقتها وأوليڤيا وطيدة أكثر مما كانت علاقتي بها.

تقول أمي: «عليك أن تتذكري أن أباك حين هجرني، كنت في مثل عمرك وقتها. وأنجبت...».

أقول بصبرٍ قدر استطاعتي: «أعرف يا أمي». سمعت مراتٍ أكثر مما أحتاج عن كيف قضى مولدي على ما كان بالتأكيد سيصبح مستقبلها الناجح الباهر.

تسألني: «أتعرفين كيف كان حالي وقتها؟ (آه... ها نحن أولاء، الأسطوانة القديمة نفسها) أن أحاول بناء مستقبلٍ وأنا أرعى طفلة صغيرة؟ أحاول كسب قوت يومي، أن أفعل شيئًا لنفسي؟ لأتمكن من توفير الطعام على المائدة؟».

إذن لم يكن عليك أن تستمري في البحث عن وظائف في التمثيل. إن كنت فعلًا صادقةً في رغبتك في توفير الطعام، فربما لم تكن هذه أعقل طريقة

لفعل هذا. لم يكن علينا إنفاق دخلك الضئيل على شقةٍ في شافتسبري أڤينيو في المنطقة الأولى والنتيجة هي عجزنا عن تحمُّل ثمن طعامنا. ليست غلطتي أنك اتخذت قرارات خاطئة وأنت مراهقة وتسببت في أن تصبحي حبلى.

وكالعادة، لا أتفوه بأيٍّ من هذا. أقول بدلًا منه: «كنا نتحدث عن أوليڤيا».

تجيب: «حسنًا. لنقل إن تجربة أوليڤيا تتضمن أكثر من انفصالٍ مؤلم». تتفحص الطلاء اللامع لأظافرها، لونه قرمزيٌّ كذلك، كأنها غطّست أصابعها في دم.

طبعًا! إنها أوليڤيا، يعني أن كل شيءٍ يجب أن يكون مختلفًا ومميزًا بطريقةٍ ما. حذار يا چولز! لا تكوني حقودة. أحسني التصرف. أسألها: «ما هو إذًا؟ ما الذي مرتْ به أيضًا؟».

- لا يحق لي أن أقول .

هذا تكتُّم مفاجئ من أمي. تردف: «إضافةً لذلك، فإن أوليڤيا تشبهني في هذا، نشعر بكل شيء. لا نقدر على أن... نخنق مشاعرنا هكذا ببساطةٍ ونستجمع شجاعتنا مثل بعض الناس».

أعرف أن كلامها صحيح لحدٍ ما. أعرف أن أوليڤيا تشعر بكل شيءٍ بعمقٍ، بعمقٍ شديد، تدخل مشاعرها في صميم قلبها مباشرةً. إنها حالمة. كانت دائمًا تعود من المدرسة وهي مغطاة بالخدوش من اللعب والرضوض من الارتطام بالأشياء. إنها قلقة، مدققة في التفاصيل، ومفرطة في التفكير. إنها «هشة». لكنها أيضًا مدللة.

ولم أستطع أن أغض الطرف عن النقد الضمنيِّ في إشارة أمي إلى «بعض الناس». ليس لأن بقيتنا لا يحملون قلوبهم على كفوف أيديهم، وليس لأننا وجدنا طريقةً للتحكم في مشاعرنا فلا يعني أبدًا أننا لا نشعر بها.

أنفاس عميقة يا چولز.

تعود لي نظرة أوليڤيا الغريبة لي حين أخبرتها بأنني سأحب أن تكون وصيفتي. شعرت بغصةٍ خفيفة حين تجردت من ملابسها لتقيس ثوبها، وكشفتْ عن جسدها الممشوق الخالي من علامات التمدد. أعرف أنها أحسّت بتحديقي إليها. إنها فعلًا شديدة النحافة والشحوب. ورغم ذلك بدت فاتنةً

بلا أدنى شك. مثل عارضات أزياء التسعينيات الهزيلات، مثل كيت موس وهي تتكئ في غرفةٍ صغيرة على الحائط ومُعلَّق من خلفها عنقود من أضواء الزينة. دائمًا أحاصَر بين إحساسين حين يتعلق الأمر بأوليڤيا: حنان عميق ومؤلم حينًا، وحسد مخزٍ وسري.

أظن أنني لم أكن حانيةً عليها كما يجدر بي. إنها أكبر الآن، أنضج قليلًا، وفي الآونة الأخيرة، تحديدًا بعد حفل الخطبة، غدت هادئة على نحوٍ ملحوظ. لكن حين كانت أوليڤيا أصغر سنًا، كانت تسير في ذيلي مثل جروٍ هائم. اعتادت نوعًا ما إظهارها لمودةٍ لا أبادلها بها. حتى وأنا أحسدها.

التفتت أمي على كرسيها. تجهم وجهها فجأةً على غير عادتها: «اسمعي. لقد مرت بوقتٍ عصيبٍ يا چولز. ليس في استطاعتك أن تعرفي نصفه حتى. رأتْ هذه المسكينة الكثير».

المسكينة. أشعر به في قولها هذا. ظننتُ أنني أصبحت منيعةً لهذا الشعور الآن. إنني خجلة لإدراكي بأن هذا ليس صحيحًا البتة: رشقة الحسد الخفيفة، أسفل أضلعي.

آخذ نفسًا عميقًا. أذكّر نفسي بأن اليوم يوم زواجي. لو أنجبتُ أنا وويل أطفالًا فلن تشبه طفولتهم طفولتي في شيءٍ أبدًا، تلك الطفولة التي مُلئت بعشاق أمي، كلهم ممثلون، ودائمًا «على مشارف نقلةٍ كبيرة»، وبأشخاصٍ يبحثون لي عن مكانٍ لأنام فيه على المعاطف في كل الحفلات الضروري حضورها في سوهو، لأنني كنتُ في السادسة من عمري وبالتأكيد أن كل مَن في عمري نيام من ساعات.

تعود أمي للمرآة. تضيّق عينيها وهي تنظر في صورتها، تزيح شعرها إلى جانبٍ ثم للآخر، تلفه لأعلى خلف رأسها. تقول: «عليَّ أن أبدو جميلةً لأجل الواصلين الجدد. أليسوا وسيمين، أصدقاء ويل كلهم؟».

يا إلهي.

لا تدرك أوليڤيا روعة الطفولة التي قضتها وكم كانت محظوظة. من وجهة نظرها فإن ما نالته هو الطبيعي. حين يوجد والدها روب في المكان، تتحول أمي إلى تلك الأم المثالية، تطهو الطعام وتصر على النوم في تمام الثامنة، كانت هناك غرفة ملأى باللعب. ضجرتْ أمي في نهاية الأمر من ممارسة لعبة

الأسرة السعيدة. لكن ليس قبل أن تنال أوليڤيا طفولةً كاملة مُرضية. ليس قبل أن تبدأ كراهيتي تتشكل شيئًا فشيئًا ناحية تلك الفتاة الصغيرة التي حظيت بكل شيءٍ وظننته أمرًا مُسلَّمًا به.

إنني أتلهف لكسر شيءٍ ما. أمسك شمعة سير ترودون من على التسريحة، أرفعها بين يدي، وأتخيل شعور رؤيتها تتفتت إلى شظايا صغيرة. لم أعُد أفعل هذا، كل شيءٍ تحت السيطرة. حتمًا لا أرغب أن يرى ويل هذا الجانب مني.

لكني أنتكس وأنا محاطة بعائلتي، أدع كل النزق والحسد والوجع القديم يندفع عائدًا بداخلي حتى أعود لچولز المراهقة، التي تخطط لتهرب. عليَّ أن أكون أكبر من ذلك. لقد شققتُ مسارًا لنفسي. بنيتُ كل شيءٍ وحدي، شيء راسخ ومتين. وعطلة الأسبوع هذه هي إقرار بهذا. مسيرة انتصاري.

يتناهى إليَّ عبر النافذة صوت محرك الزورق في المياه. وصل تشارلي. تشارلي سيشعرني بشعورٍ أفضل.

أعيد الشمعة مكانها.

هانا

المُرافِقة

حين وصلنا إلى المياه الراكدة على شط الجزيرة كنتُ قد تقيأت ثلاث مراتٍ وبللتني المياه وأنا أرتعش من البرد. مثل الخرقة المعصورة البالية، أتشبث بتشارلي كأنه قارب للإنقاذ. لا أعرف كيف سأخرج من الزورق لأنني أشعر أن قدميَّ منزوعتا العظام. أتساءل إن كان تشارلي محرجًا من الظهور بصحبتي وأنا في حالتي هذه. إنه يتصرف دومًا بشيء من الغرابة حول چولز. كانت أمي تقول إنه يتصرف «بعجرفة الطواويس».

يقول تشارلي: «انظري! أترين تلك الشطآن هناك؟ الرمال بيضاء فعلًا».

أرى اللون الفيروزيَّ الصاعق الذي يُلوِّن مياه البحر الضحلة والنور يتراقص على أمواجه. تتشعب الأرض في منحدراتٍ هائلة ومسلّات عملاقة انفصلتْ عن اليابسة في إحدى النواحي. وفي الناحية الأخرى، تقف قلعة صغيرة فوق نتوءٍ على خليج البحر، تطل على جروفٍ من الحجارة والبحر الهائج تحتها.

أقول: «انظر إلى تلك القلعة».

يجيبني: «أظن أن هذه هي قلعة الفلي. أو هكذا تسميها چولز».

– لنصدق طبعًا الاسم المميز الذي أطلقه عليها الأثرياء.

تجاهل تشارلي قولي: «سنقيم هنا، سيكون هذا ماتعًا. العطلة برمتها ستكون مصدر استجمام لطيف، أليس كذلك؟ أعرف أن هذا الشهر صعب دائمًا».

أومئ: «صحيح».

يضغط تشارلي على يدي. ونصمت هنيهة.

يردف تشارلي: «وتعرفين، أن نكون وحدنا دون الولدين من باب التغيير. أن نكون راشدين فحسب».

أرمقه بنظرة. هل سمعت نبرة أسى تشوب صوته؟ لكنه على حق، لم ننجز الكثير في الآونة الأخيرة سوى أننا أبقينا كائنين صغيرين على قيد الحياة. أشعر أحيانًا بأن تشارلي يشعر بالغيرة من مقدار الحب والاهتمام الذي أغدقه على الطفلين.

سألني تشارلي منذ نحو الساعة: «أتذكرين الأيام الخوالي؟ (كنا نقود السيارة في أرجاء ريف كونمارا، تدهشنا أزهار الكالونا الحمراء والهضاب السوداء) تذكرين حين كنا نستقل القطار والخيمة هي كل ما نحمل لنخيم في العراء في عطلة نهاية الأسبوع؟ كأن زمنًا سحيقًا مضى».

كنا أيامها نقضي إجازاتنا بطولها نمارس الحب، نغادر الفراش لنأكل أو لنتمشى فحسب. كان دائمًا معنا فائض من المال. صحيح أن حياتنا الآن ثرية بمعنى مختلف، لكني أفهم ما يرمي إليه تشارلي. كنا أول من أنجب أطفالًا وسط مجموعة أصدقائنا، حملت في بن مبكرًا جدًّا. ورغم أنه لو عاد بي الزمن فلن أغيّر به شيئًا، إلا أنني أتساءل إن كنا قد ضيعنا على أنفسنا عامين آخرين من المرح خليَّي البال. بداخلي ذات أخرى أشعر من آنٍ لآن أنني أضعتها في الطريق. الفتاة التي كانت دائمًا تبقى لتشرب مشروبًا آخر، التي أحبّت الرقص. أحيانًا أفتقدها.

تشارلي محق. إننا بأمسّ الحاجة لعطلةٍ نكون فيها وحدنا. كنت أتمنى لو أن أول هروبٍ لنا منذ سنوات لا يحدث في حفل زفاف فاخر تتزوج فيه صديقة تشارلي المرعبة بعض الشيء.

لن أحاول تذكُّر آخر مرةٍ مارسنا فيها الحب، لأنني أعرف أن الإجابة ستحبطني بشدة. منذ... يا إلهي، منذ وقتٍ بعيد على أي حال. أحيانًا أشعر وكأننا أصبحنا زميلين أكثر من حبيبين بعد حضور الطفلين، أو كأننا شريكان في مشروعٍ صغير ناشئ متزعزع علينا أن نكرّس كل اهتمامنا له. حبيبان. متى كانت آخر مرةٍ رأينا نفسَينا هكذا؟

أقول كي أنتشل نفسي من هذه الأفكار: «اللعنة. انظر إلى الصيوان! إنه هائل». إنه عملاق لدرجة أنه أشبه بصرحٍ من الخيام وليس بناءً قماشيًّا واحدًا. لو كان لأي أحدٍ أن يحظى بصيوانٍ راقٍ فستكون چولز.

تبث الجزيرة عدائيةً أعمق عن قرب. مدهش أن هذا المكان الموحش سوف يأوينا خلال الأيام القليلة القادمة. أرى كتلةً، بينما نقترب، من حجيرات صغيرة مظلمة خلف القلعة. وعلى قمة التل الذي يمتد عاليًا خلف الصيوان أرى تجمعًا من تماثيل داكنة. في البداية أظنها بشرًا، جيشًا من التماثيل ينتظر وصولنا. لكن شكلها غريب، سكونها مستحيل. أدرك باقترابنا أكثر أن هذه الأطياف المريبة الشامخة ما هي إلا شواهد قبور. وما شابه رؤوسًا منتفخةً كرؤوس البصل كانت صلبانًا، صلبانًا قلطية تغلف جوانبها دائرة مستديرة وتوصلها ببعضها بعضًا.

قال تشارلي: «ها هم أولاء هناك!». ولوَّح بيديه.

الآن أرى جمعًا من البشر على المرفأ يلوحون لنا. أسرح شعري بأصابعي رغم معرفتي من تجربتي الطويلة أنني على الأغلب أنفشه أكثر. أتمنى لو أن معي قارورة من المياه أتجرعها لأخفف المذاق الحامض في فمي.

أراهم بوضوحٍ أكثر كلما اقتربنا. أرى چولز، وحتى من هذا البعد، ألاحظ مثالية منظرها، إنها الشخص الوحيد الذي في وسعه ارتداء الأبيض في مكانٍ كهذا دون أن تتبقع ملابسها فورًا. تقف على مقربةٍ من چولز وويل امرأتان أظنهما عائلة چولز؛ الشعر الأسود اللامع يؤكد هذا.

يقول تشارلي مشيرًا إلى المرأة الأكبر سنًا: «هاي هي والدة چولز».

أقول: «يا للهول!». إنها ليست كما تصورتُ تمامًا. ترتدي بنطالًا ضيقًا من الچينز ونظارةً سوداء مدببة كأعين القطط ترفعها فوق شعرها البراق. لا يبدو أن عمرها كبير كفاية لتكون أمًّا لفتاةٍ يزهو عمرها على الثلاثين.

يردف تشارلي كأنه يقرأ أفكاري: «أنجبتْ چولز في سنٍ صغيرة. وهذه أكيد... يا إلهي! حتمًا هذه أوليڤيا. شقيقة چولز الصغرى من أمها».

- لا تبدو صغيرةً الآن.

إنها تفوق چولز وأمها طولًا، لكن تختلف تمامًا عن جسد چولز المملوء بالمنحنيات. شكلها صادمٌ، لكن جميل، بشرتها شديدة الشحوب بطريقةٍ لا تتماشى إلا مع شعرٍ أسود مثل شعرها. تبدو ساقاها في البنطال الچينز وكأنهما رسمٌ لخطين رفيعين من الفحم. قد أهب روحي فداءً لساقين كهاتين.

يقول تشارلي: «لا أصدق كم كبرت». يتحدث فيما يشبه الهمس، اقتربنا منهم وقد يسمعوننا. يبدو فزعًا.

أسأله وأنا أحاول استعادة المعلومة من محادثةٍ مع چولز نسيتُ نصفها: «هل هي التي كانت معجبةً بك؟».

يجيبني بابتسامةٍ آسفة: «نعم، إنها هي. كانت چولز تثير غضبي دائمًا بهذا الأمر، إنه محرج قليلًا. طريف، لكن محرج أيضًا. كانت تختلق الحجج لتتحدث معي وتتكئ بتلك الطريقة المستفزة المقلقة التي لا يقدر عليها سوى من هن في الثالثة عشرة من عمرهن».

أنظر إلى المخلوقة باهرة الجمال التي تقف على المرفأ وأراهن في عقلي على أن الأمر لم يعد محرجًا الآن.

فجأةً ينشغل ماتي من حولنا، يضع الحواجز الواقية على أحد جانبي القارب، ويجهز حبلًا. يتقدم تشارلي منه قائلًا: «دعني أساعدك...». يصرفه ماتي بيده وأظن أن تشارلي شعر بقليلٍ من الإهانة.

- ارمِه هنا!

يذرع ويل المرفأ ناحيتنا. إنه وسيم على شاشة التلفاز. على أرض الواقع، إنه ممم... خاطف للأنفاس. يقول لماتي: «دعني أساعدك!».

يلقي ماتي حبلًا يلتقطه ويل من وسط الهواء ببراعة خبير، فتنكشف عضلات بطنه أسفل سترته الصوفية سكرية اللون. أتساءل إن كان تشارلي يشتعل غضبًا بجانبي. الزوارق هي كل ما يحب، حتى إنه كان معلّمًا للإبحار أيام شبابه. لكن على ما يبدو فإن أي شيءٍ في العراء هو من اختصاص ويل الآن.

- أهلًا بكما! (يبتسم ويبسط ذراعه إليّ) بحاجةٍ للعون؟

لا أحتاج في الواقع لكني أمسك بيده على أي حال. يمسك بي من أسفل إبطيَّ ويرفعني فوق الزورق كأنني في خفة طفل. تصل إلى أنفي هبة من رائحةٍ رجوليةٍ خفيفة -ترابية وعشبية- وأدرك في استياء أن رائحتي ستكون قيئًا وطحالب بحرية.

ألاحظ فورًا أنه يحيط به حتى في الحياة الوقعية، ذاك السحر، تلك الجاذبية المغناطيسية. في إحدى المقالات التي قرأتُها عنه وأنا أشاهد المسلسل -لأنني طبعًا كان عليَّ أن أبحث في جوجل عن كل شيءٍ قد أجده عنه- كتبتْ إحدى الصحفيات مازحةً أنها لم تكمل مشاهدة المسلسل سوى لأنها عجزت عن أن ترفع عينيها عن ويل. غضب الكثيرون قائلين إن هذا تسليع ونظرة مادية إليه، لكن لو كان كاتب المقال صحفيًّا، فقد كان سيُحرق حيًّا. أراهن على أن فريق العلاقات العامة للمسلسل فتحوا قارورة شمبانيا احتفالًا بهذه الضجة.

إن كان لي أن أفصح عن رأيي بصدق، فإنني أفهم قصدها. يظهر ويل في مشاهد كثيرة عاريًا حتى خصره، أو يتأوه بينما يتسلق جرفًا صخريًّا، ودائمًا يبدو مغريًا بشدة. لكن الأمر أكبر من هذا. لديه طريقة مميزة يتحدث بها للكاميرا، طريقة حميمية، تشعرك بأنك مستلقية جواره في مأوى بناه من أفرع الشجر ولحائها، يرمش تحت ضوء امصباح المعلق على رأسه. إنه الشعور بالعزلة المؤنسة، أنت وهو وحدكما في عراء البرية. إنه الإغواء بعينه.

يمد تشارلي يده لويل. لكن يقول ويل: «أوه ما هذا بحق الجحيم؟»، ويتجاهل يده ليعانقه عناقًا كبيرًا. في وسعي ملاحظة التوتر الذي كسا ظهر تشارلي من مكاني هنا.

يجيب تشارلي بإيماءةٍ مقتضبة: «ويل». هذه فظاظة لا تتجاوز الحد حين يكون ويل مرحبًا هكذا.

- تشارلي! (تأتي چولز الآن، بذراعين مبسوطتين) يا إلهي، مر وقت طويل. اشتقت لك.

چولز، المرأة الأخرى في حياة تشارلي. أهم امرأةٍ في حياته كلها، إلى أن أتيتُ أنا. تعانقا طويلًا.

رحنا نسير في أعقاب چولز وويل إلى القلعة. يخبرنا ويل أنها بُنيت في الأصل حمايةً للساحل، ثم حوّلها رجل أيرلنديٌّ ثريٌّ إلى منزلٍ يقضي فيه

عطلاته منذ قرنٍ مضى، مكان يخلو به عدة أيام ويسلي أصدقاءه. لكن إن لم تعرف هذه الحقيقة فلن تصدق أبدًا أنه بُني من العصور الوسطى. هناك بريج صغير، تتوسط نوافذه الضخمة بريجات أصغر. يقول تشارلي: «هذه كوّات مزيفة لرشق السهام»، إنه يحب القلاع.

نرى في طريقنا كنيسةً صغيرة، أو أطلال كنيسة، محجوبةً قليلًا خلف القلعة. سقفها غير موجودٍ بالمرة، مخلفٌ جدرانًا وخمسة عمدانٍ طوال -ربما كانت ذات يوم منارات- تمتد في السماء. نوافذها فجوات خاوية غائرة في الأحجار، وحتى واجهتها تداعت بأكملها. تقول چولز: «ستقام المراسم هناك غدًا».

أجيبها: «إنها جميلة، رومانسية للغاية».

أقول كل الأشياء الصائبة. وأظنها فعلًا جميلة، لكنه جمال حاد وقاسٍ. عقدنا زواجنا أنا وتشارلي في مكتب السجل المدني. ليس جميلًا طبعًا، كان غرفةً مضجرة من غرف البلدية، بالية بعض الشيء وضيقة. چولز كانت معنا بالطبع، شاذةً عن المكان كليًا في ثوبها الذي يحمل علامة مصمم شهير. بدأ الأمر كله وانتهى تقريبًا في غضون عشرين دقيقة، وقابلنا عند خروجنا الزوجين التاليين في الدور.

لكن لم أكن أرغب في الزواج في مكانٍ مثل هذه الكنيسة. إنها جميلة، صحيح، لكن يشوب جمالها شيء مأسويٌّ، بل مروع قليلًا. تقف شامخةً في السماء مثل يدٍ معقوفةٍ طويلة الأصابع، تنبثق من الأرض. ولطلتها منظر شبحيٌّ.

أراقب ويل وچولز ونحن نتبعهما. لم أظن قط أن چولز تحب التلامس، لكن يديها تحيطانه كله، كأنها عاجزة عن ألا تلمسه. في وسعك ملاحظة أنهما يمارسان الحب كثيرًا. رؤيتها وهي تنزلق بيدها على جيبه الخلفي، أو أسفل قميصه، يا له من مشهدٍ شاق. أراهن على أن تشارلي لاحظ ما لاحظتُ أيضًا. لن آتي على ذكره؛ ملاحظة ستسلط الضوء على ندرة ممارستنا للحب فحسب. اعتدنا أن نمارسه مدهشًا مغامرًا. لكن أنهك التعب قوانا هذه الأيام. بعد إنجاب الطفلين، أجد نفسي أتساءل إن كنتُ قد اختلفتُ في عينَي تشارلي، إن كان جسدي ليس كسابق عهده قبل الرضاعة، بكل هذا الجلد المترهل الغريب الذي

على بطني. أعرف أنه ليس عليَّ أن أسأل نفسي هذه الأسئلة لأن جسدي أدى معجزة، معجزتين في الواقع. لكن مهم أن تظل رغبة الشريكين في بعضهما بعضًا موجودة، أليس كذلك؟

لم تستقر چولز في علاقةٍ طويلة الأمد طيلة الوقت الذي كنتُ فيه بصحبة تشارلي. شعرتُ دائمًا أن لا وقت لديها لأي شيءٍ جاد، كان تركيزها منصبًا على مجلتها. وأحبَّ تشارلي أن يخمِّن مدة علاقاتها: «ثلاثة أشهر كحدٍ أقصى»، أو «رأيي أن هذه تجاوزت تاريخ صلاحيتها بالفعل». وكان دائمًا هو الشخص الذي تهاتفه عقب انفصالها. جزء مني لا ينفك يتساءل عما يشعر به الآن وهو يراها تستقر في علاقةٍ أخيرًا. أظنه ليس في غاية السعادة. تهددني الشكوك حيال علاقتهما بأن تصعد للسطح ثانيةً، فأدفعها وأطمرها في القاع.

وحين نقترب من القلعة، تتفجر قهقهة صاخبة مدوية من مكانٍ ما في الأعلى. أنظر وأرى مجموعةً من الرجال يقفون على قمة أسوار القلعة، وينظرون إلينا في الأسفل. في ضحكاتهم نبرة ساخرة، وأغدو فجأةً شديدة الانتباه لحالة ملابسي وشعري. إنني على ثقة بأننا صميم سخريتهم.

أوليڤيا

وصيفة العروس

تعيد لي رؤية تشارلي ذكرى تعلقي به. حدث هذا منذ سنواتٍ قليلة، لكني كنتُ طفلةً وقتها. مُحرِجٌ تفكيري في الفتاة التي كنتُها. لكنه يحزنني بالمثل.

أبحثُ عن مكانٍ أتوارى فيه عن أنظار الجميع. أسير في الطريق خلف المنازل الخربة، منبوذة من الناس الذين عاشوا على هذه الجزيرة فيما مضى. أخبرتني چولز أن سكان الجزيرة هجروها لأنهم استسهلوا العيش على البر، وأنهم أرادوا الكهرباء وكل تلك الأشياء. أفهم هذا. حقيقة أنك عالق هنا قد تؤدي بك إلى الجنون. حتى إن كان بحوزتك قارب يوصلك للبر، ستكون على بُعد ملايين الأميال من كل مكان. أقربها إليك، لا أدري، إتش آند أم، سيكون على بُعد أميالٍ وأميال. شعرتُ دائمًا كأنني وأمي نعيش في أقصى أطراف المدينة، لكنني ممتنة لأننا لا نعيش في جزيرةٍ وسط المحيط الأطلسي. لذا، نعم، أفهم لمَ قد يود المرء أن يغادرها. لكن النظر إلى هذه المنازل المقفرة ونوافذها الخاوية ومنظرها المتداعي، يصعب تجاهل شعور أن أشياء سيئة حدثت هنا.

رأيتُ البارحة شيئًا ما على أحد الشواطئ، كان أكبر من بقية الصخور، رماديًّا لكنه أملس وأنعم على نحوٍ ما. خرجت لألقي نظرةً أقرب عليه. كانت فقمة ميتة. حديثة الولادة على ما أظن لأنها كانت ضئيلةً للغاية. زحفتُ أقرب إليها أكثر وصُعقت. من جانب الفقمة الآخر الذي كان محجوبًا عني، كان جسدها مبقورًا، أحمر قانيًا وكل أحشائها ملفوظة خارجها. أعجز عن محو الصورة من رأسي. ومن وقتها يجبرني هذا المكان على التفكير في الموت.

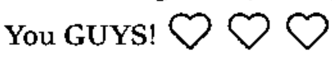
استغرقتُ دقائق قليلةً لأصل إلى الكهف، مكانه مُعلَّم عليه في الخريطة في القلعة. اسمه الكهف الهامس. كأنه جرح غائر في الأرض، مفتوح عند طرفيه. قد تسقط فيه دون أن تنتبه لأن فتحته يحجبها العشب الطويل. حين مررت جواره البارحة كنت على وشك أن أسقط. كنتُ سأكسر عنقي، وسوف يخرّب هذا زفاف چولز المثالي، صحيح؟ أثارتْ هذه الخاطرة ابتسامتي.

أنزل إلى الكهف متسلقةً الصخور على الجانب التي تشبه درجات السلم. تخبو الضوضاء التي تضج في رأسي وتهدأ أنفاسي رغم رائحة المكان الغريبة، كأنها رائحة الكبريت، أو ربما هي رائحة أشياء متعفنة أيضًا. محتمل أنها تنبعث من الطحالب المنتشرة في كل مكان هنا مثل حبالٍ داكنةٍ ضخمة. أو ربما تنبعث النتانة من الجدران المكسوة بالأشنة الصفراء.

يمتد أمامي شاطئ صغير مغطًّى بالحصى، ومن خلفه يمتد البحر. أجلس على صخرة، إنها رطبة، لكن أدرك بعدها أن المكان كله رطب. شعرتُ بالرطوبة في ملابسي وأنا أرتديها هذا الصباح، كأنها غسلت ولم تجف تمامًا بعد. إن لعقت شفتي فسأتذوق طعم الملح على جلدي.

أفكر أن أبقى هنا طوال الوقت، حتى ليلًا. بإمكاني أن أختبئ حتى تنتهي المراسم، حتى ينقضي الأمر كله وينفض. ستشتعل چولز غضبًا طبعًا. لكن... ربما ستتظاهر بالغضب فحسب، لكن سترتاح في سرها. لا أظنها فعلًا ترغب أن أحضر زفافها من الأساس. أظنها تكرهني لأن أمي تعاملني معاملةً أفضل لأن عندي أبًا يرغب في رؤيتي من حينٍ لحين على الأقل. أعرف أنني أتصرف بوقاحة؛ تفعل چولز –أحيانًا– أشياء لطيفة كثيرة من أجلي مثلما سمحتْ لي أن أبقى في شقتها في لندن الصيف الماضي. أشعر بالسوء حين أتذكر هذا، كأن في فمي طعمًا مقرفًا.

أتناول هاتفي. صفحتي على الإنستجرام ثابتة على أول صورة بسبب الشبكة الرديئة هنا. طبعًا سيكون أحدث ما نشرته إيلي. كأنهما يسخران مني. والتعليقات على صورتها:

You GUYS! 

OMG soooooo cute 😍

mum + dad

#mood ♡

الأمر رسميٌّ الآن، صحيح؟ *وينك*

يؤلم. ألم يحتل صدري. أنظر في وجوههم المتعجرفة المبتسمة، وجزء مني يريد أن يلقي بالهاتف على جدار الكهف بأقوى قوةٍ ممكنة. لكن هذا لن يحل مشكلاتي، ما زالوا بخير معي هنا.

أسمع صوتًا في الكهف -وقْع أقدام- وكاد هاتفي يسقط من وقْع الصدمة. أقول: «من هناك؟». صوتي خافت وخائف. أتمنى من قلبي ألا يكون الإشبين چونو. لمحتُه ينظر إليَّ سابقًا. أنهض وأتسلق خارج الكهف بجهد، ملتصقةً بالجدار المغطى بآلاف من قشريات البرنقيل الصغيرة الحرشة التي تخدش أطراف أصابعي. وأخيرًا أضع رأسي على مرتفع الجدار الصخريِّ.

- يا إلهي! (تعثرت السيدة للوراء ووضعت يدها على صدرها، إنها زوجة تشارلي) بحق المسيح! أفزعتِني. لم أظن أن أي أحدٍ قد يكون في الأسفل (لكنتها لطيفة، شمالية) أنتِ أوليڤيا، صحيح؟ أنا هانا، زوجة تشارلي.

أقول: «نعم. أعرف هذا. أهلًا».

- ما الذي تفعلينه هنا؟ (عيناها تفحصان المكان من حولها، كأنها تتأكد أن أحدًا لا يسمعها) تبحثين عن مكانٍ للاختباء؟ أنا أيضًا.

أقرر أنها تروق لي قليلًا لقولها هذا.

تردف: «أوه.. أظن أن وقْع هذا سيئ، صحيح؟ إنني فقط... أظن تشارلي وچولز سيحبان الحديث أكثر وأنا لستُ موجودة. تعرفين، بينهما كل هذا الماضي المشترك ولا يشملني».

تبدو كأنها ضاقت ذرعًا من الأمر قليلًا. ماضٍ. إنني متأكدة بنسبة 90% أن تشارلي وچولز مارسا الحب في مرحلةٍ ما من هذا الماضي. أتساءل إن كانت قد خطرت هذه الفكرة لهانا بالمثل.

تجلس هانا على جرفٍ من الصخور. أجلس أنا أيضًا، لأنني أتيتُ هنا أولًا. أتمنى فعلًا لو تفهم التلميح وتتركني وحدي. أتناول علبة سجائري من جيبي

وأخرج واحدة. أتروّى لأرى إن كانت هانا ستقول أي شيء. لا تنطق. لذا آخذ خطوةً لمدى أبعد، لأختبرها على ما أظن، وأعرض عليها واحدة مع ولاعتي. تلوي وجهها وتقول: «لا يجدر بي (ثم تتنهد) لكن لمَ لا؟ لقد أُصبنا بصدمةٍ نفسية لنصل إلى هنا، بل حتى بت أرتجف الآن». رفعت يدها لتريني.

أشعلتْ سيجارةً وسحبت نفسًا عميقًا ثم تنهدت بعمقٍ ثانيةً. ألاحظ أنها داخت قليلًا: «يا للهول! أصاب هذا رأسي مباشرةً. لم أدخن منذ زمنٍ بعيد. أقلعتُ لما حملت. لكني كنتُ أدخن بشراهةٍ أيام طيش الشباب. (ترمقني بنظرةٍ وتسترسل) نعم، نعم، أعرف. قد تظنين أن هذا كان منذ ملايين السنين. أحس هكذا أيضًا».

ينتابني شعور بالذنب، لأن هذا ما جال في رأسي فعلًا. لكن بعدما أمعنتُ النظر فيها، ألاحظ شقوقًا أربعة في إحدى أذنيها ووشمًا في باطن رسغها، يحجبه كُم قميصها، ربما هناك جانب خفيٌّ آخر من شخصيتها.

تسحب نفسًا عميقًا ثانيًا: «يا إلهي هذا رائع. ظننتُ حين أقلعت عن السجائر أني سأمقت مذاقها في نهاية المطاف، أو لن أفتقدها بالمرة. (تضحك ضحكةً مجلجلةً من قلبها) آه لم يحدث طبعًا». ثم تنفخ أربع حلقاتٍ مثالية من الدخان.

إنني أنبهرُ رغمًا عني، كان كالوم يحاول فعلها لكنه لم يتقنها قط.

تسألني: «أنتِ في الجامعة إذًا؟».

أجيب: «نعم».

- أين؟

- إكستر.

- جامعة ممتازة، صحيح؟

- نعم، أظن ذلك.

تقول: «لم ألتحق بالجامعة، لا أحد من عائلتي التحق بها (سعلتْ) عدا أختي أليس».

لا أعرف بمَ أرد على هذا. لا أعرف تقريبًا أي شخصٍ لم يلتحق بالجامعة. حتى أمي درستْ في مدرسة تمثيل.

تسترسل هانا: «كانت أليس هي العبقرية بيننا. كنت أنا الجامحة، إن كان في وسعك تصديق هذا. درستْ كلتانا في تلك امدرسة المزرية لكن أليس تخرجت فيها بدرجاتٍ مذهلة. (راحت تنفض الرماد من سيجارتها) آسفة، أعرف أنني أكرر كلامي. لكنها تخطر ببالي كثيرًا هذه الأيام».

قسمات وجهها تتغير. لكن لا أشعر أن بإمكاني سؤالها عن الأمر نظرًا إلى كوننا غريبتين عن بعضنا بعضًا كليًّا.

تقول هانا: «على أي حال. تعجبك جامعة إكستر؟».

أجيب: «لم أعُد أدرس هناك. تركتها».

لا أدري ما الذي دفعني لقول هذا. سيكون أسهل كثيرًا إن جاريتُها في الكلام مدعيةً أنني ما زلت أدرس هناك. لكني شعرتُ فجأةً أنني لا أريد الكذب عليها.

تعبس هانا: «فعلًا؟ ألم تستمتعي بالدراسة فيها؟».

أجيب: «لا. أظن... كان لدي حبيبي ذاك، وانفصل عني». رائع! مثير للشفقة.

تقول هانا: «حتمًا كان شنيعًا كالخراء، بما أنكِ تركت الجامعة بسببه».

يشتعل عقلي ويصبح خاويًا حين أفكر في كل ما حدث العام الماضي، أعجز عن التفكير فيه بطريقةٍ صحيحة أو أرتبه في رأسي. لا شيء منه منطقيٌّ البتة، الآن على وجه الخصوص وأنا أحاول ترقيعه معًا. لا أقدر على شرح الأمر دون أن أقص عليها كل شيء. لذا أهز كتفيَّ بلا مبالاةٍ وأقول: «أظنه كان أول حبيبٍ مناسبٍ لي». مناسب بمعنى أنه كان أكثر من مجرد فتى أتسكع معه في الحفلات. لكن لا أقول هذا لهانا.

تقول: «وأنتِ وقعت في حبه».

لا يبدو في نبرتها استفهام، لذا لا أشعر أنني ملزمة بالإجابة. مع ذلك أهز رأسي وأقول: «نعم». يخرج صوتي ضعيفًا ومتحشرجًا. لم أكن أومن بالحب من النظرة الأولى حتى وقعت عيناي على كالوم، جالسًا في بار فريشرز ويك، ذاك الفتى بخصلات شعره المجعدة السوداء وعينيه الزرقاوين الجميلتين.

ابتسم لي ابتسامةً باهتةً نوعًا ما وهكذا تعرفت عليه. كأنه كان دائمًا مقدرًا أن نجد بعضنا بعضًا.

صرَّح كالوم بحبه أولًا. كنتُ خائفةً من التصرف بحماقةٍ أمامه. لكن في نهاية المطاف شعرتُ بأن عليَّ قولها أيضًا، كأنها كانت تتفجر من داخلي. أخبرني بأنه سيحبني إلى الأبد حين انفصل عني. لكن هذا هراء محض. إن أحببت شخصًا، أحببته من قلبك، فلن تفعل أي شيءٍ يؤذيه.

أردف بسرعة: «لم أترك الجامعة لأننا انفصلنا فحسب. كان... (أسحب نفسًا عميقًا من سيجارتي. يداي ترتجفان) أظن لو أن كالوم لم يتركني، لم يكن ليحدث أيٌّ مما حدث».

تسأل هانا: «أيٌّ مما حدث؟»، إنها متحفزة في جلستها، مهتمة بما تسمع.

لا أجيب. أحاول أن أفكر في طريقةٍ كي أسترسل في الحديث، لكن أعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة. لا تُلِح عليَّ. لذا حلَّ صمت طويل، بينما نحن جالستان هناك وندخن.

ثم تقول هانا: «اللعنة! هل هذه تهيؤات أم أن الدنيا أظلمت بينما نحن جالستان هنا؟».

أقول: «أظن أن الشمس بدأت تغيب». لا نراها من مكاننا لأننا لا نواجه الجهة الصحيحة، لكن نلاحظ اللمعان الورديَّ في السماء.

تقول هانا: «أوه يا إلهي. علينا إذن أن نعود إلى القلعة. يكره تشارلي التأخر على أي شيء، أخلاق المعلمين. أظن أن بوسعي الاختباء لعشر دقائق أخرى لكن...». إنها تدهس سيجارتها لتطفئها.

أقول: «اذهبي أنتِ، لا بأس. ليس بالأمر الجلل».

ضيقتْ عينيها: «بدا العكس نوعًا ما».

أقول: «لا. صدقًا».

لا أصدق أنني كنتُ سأبوح لها بالأمر كله. لم أخبر أي أحدٍ بباقي القصة، ولا حتى صديقاتي. يا لها من راحةٍ فعلًا. لو كنتُ أخبرتها فلن أستطيع التراجع عما قلته. سيكون ما فعلته معلنًا أمام العالم أجمع.

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

الساعة السابعة بالضبط. المائدة مُعدَّة للعشاء في غرفة الطعام. تولى فريدي إعداد العشاء برمته، ما يعني أن هناك نصف ساعةٍ فارغة. أقرر زيارة المقبرة. تحتاج الورود للعناية وسننهمك غدًا في العمل. أرى الشمس في طريقها نحو المغيب حين أخرج من القلعة، تسكب نارًا على سطح المياه. تخضب السديم الذي تجمع حول السبخة بالوردي، ذاك الذي يحمي أسرارها. هذه ساعتي المفضلة.

يجلس أصدقاء العريس فوق الأسوار، أسمع أصواتهم تنتشر في كل مكانٍ في طريقي، أصواتهم أعلى وأشد تداخلًا من ذي قبل، أراهِن أن هذا مفعول بيرة الجينيس.

- علينا أن نزفهم بطريقةٍ مثيرة.

- نعم، علينا أن نفعل شيئًا ما! سيكون من التقاليد أن....

يغريني حديثهم لأبقى وأسمع بقيته، لأتأكد أنهم لا يدبرون لأي كارثةٍ تحت مسؤوليتي. لكن بدا حديثًا لا ضرر منه. ليس لدي متسع من الوقت لنفسي سوى هذه الفسحة القصيرة.

تبدو الجزيرة في أبهى صورها هذا المساء، مضاءةً بلمعان الشمس الغائبة. لكنها لن تبدو جميلةً أبدًا في عيني مثلما أتذكرها أيام رحلاتنا إلى هنا حين كنتُ طفلة. أقام أربعتنا (عائلتي) هنا في إجازات الصيف. لا مكان على وجه البسيطة قد يضاهي روعة تلك الأيام الرائقة. لكن هذا هو الحنين للماضي: تتآمر ذكريات الطفولة لتبدو استثنائيةً ومثاليةً للغاية.

أسمع همسًا في المقبرة حين أصل، بدايات تحركات النسيم بين الصخور. ربما هي بشارة لطقس الغد. أحيانًا حين تشتد الرياح، تبدو وكأنها تحمل معها أصداء نحيب نسوةٍ من قرونٍ مضت، يندبن أمواتهن.

تتلاصق القبور بشكلٍ غريب، لأن الأراضي الجافة شديدة الندرة على هذه الجزيرة. بدأت أقصى أطراف السبخة تزحف على بعضها بعضًا، ابتلعت عدة قبورٍ فلا يظهر منها إلا ما تبقى من رؤوسها. تقترب بعض الشواهد من بعضها بعضًا، يميل أحدها على الآخر وكأنهما يتشاركان سرًا. تشيع الأسماء -التي ظلت ظاهرةً- في كونمارا: جويس، فولي، كيلي، كونيلي. إنه لأمر غريب مثير للانتباه، أن الموتى على الجزيرة يفوقون الأحياء عددًا، حتى بعد وصول الضيوف الآخرين. سيوازن الغد هذه المعادلة.

يحيط هذه الجزيرة قدر كبير من الخرافات الشعبية. حين اشتريت وفريدي قلعة الفلي منذ عامٍ أو أكثر، لم يكن قد تقدم لشرائها أحد غيرنا. لم ينَل سكان الجزيرة ثقة أي أحد، كانوا يعتبرون فصيلةً منفردةً من نوعها.

أعرف أن سكان البر اعتبرونا أنا وفريدي دخيلَين. أنا فتاة متمدنة من دبلن بصحبة فريدي الإنجليزي، ليس هناك زوجان أجهل منا في العالم، ومحتمل أنهما يضطلعان بما لا طاقة لهما به. الزوجان الجاهلان بتاريخ جزيرة آمبلورا الحالك، الجاهلان بأشباحها. في الواقع، أعرف هذا المكان أفضل مما يظنون. إنه مألوف لي أكثر من أي مكانٍ ثانٍ عرفته في حياتي. ولستُ قلقةً من كونه مسكونًا. لدي أشباحي الخاصة، آخذها معي أينما ذهبتُ.

أقول بينما أربض على الأرض: «أفتقدك». يحدق الشاهد الصخري إليَّ، أجوف وأخرس. ألمسه بأناملي. إنه صلب، بارد، مُتعفِّن، أبعد ما يكون عن دفء الخد، أو عن الشعر الناعم الحيوي الذي أتذكره بوضوح. ثم تابعتُ: «آمل أنني نلتُ فخرك». ينتابني الشعور نفسه كل مرةٍ ربضتُ هنا: نفس الغضب العاجز الذي أعرفه، يتصاعد بداخلي ويترك مذاقه المُر في فمي.

ثم أسمع جلبةً صادرةً من مكانٍ ما فوقي، كما لو أن شيئًا يسخر من كلماتي. مهما تكرر سماعي لهذا الصوت، لن ينفك أبدًا عن تجميد الدم في عروقي من الخوف. أرفع عيني وأراه هناك: غاق ضخم جاثم فوق أعلى جزءٍ من الكنيسة المهدمة، يُعلِّق جناحيه الأسودين المعقوفين ليجفا مثل مظلةٍ

مكسورة. طائر الغاق يقف على برج الكنيسة: هذه بشارة سيئة. يسمونه في هذه الأنحاء طائر الشيطان. الأشمط الأسود، جالب الموت. آمل ألا تكون العروس وعريسها على علمٍ بهذا... أو أنهما ليسا من المؤمنين بالخرافات.

أصفق بيدي لكن المخلوق لا يتزحزح. بل يدير رأسه ببطءٍ لأرى جانبه المريع، وحدّة منقاره الوحشي، وأعي أنه يراقبني من الجنب بعينه البراقة المستديرة مثل الخرز، كما لو أنه يعرف شيئًا أجهله.

حين أعود إلى القاعة، أحمل صينية ملأى بكؤوس الشمبانيا إلى غرفة الطعام، استعدادًا لبدء الأمسية. أرى أول ما أفتح الباب زوجين جالسَين على الأريكة. تمر لحظة قبل أن أدرك أنها العروس بصحبة رجلٍ آخر: إنه واحد ممن أوصلهم ماتي في القارب. يجلسان على مقربةٍ شديدة من بعضهما بعضًا، يتلامس رأساهما ويتحدثان بصوتٍ خفيض. لا يفترقان عند دخولي، لكنهما يبتعدان مسافةً صغيرةً عن بعضهما بعضًا. وترفع يدها عن ركبته.

تناديني العروس: «إيفا، هذا تشارلي».

أتذكر اسمه من القائمة. أقول: «رئيس مراسم الغد على ما أظن؟».

يتنحنح: «نعم، بالضبط. هذا أنا».

- أكيد، وزوجتك هانا، صحيح؟

يجيب: «مضبوط. ذاكرة قوية!».

تخبرني العروس: «كنا نراجع مهمات تشارلي للغد».

أقول: «بالطبع. ممتاز».

أتساءل لمَ شعرت أن عليها تبرير أي شيءٍ لي؟ كانا مسترخيَين معًا على الأريكة لكني لستُ هنا لألقي أحكامًا أخلاقيةً على أيٍّ من عملائي، أو حتى لأحدد ما أحب وما أكره، ولا لأكوّن آراءً حيال أي شيء. ليس هكذا تسير الأمور في عملنا. أختفي أنا وفريدي، إن سار كل شيءٍ على ما يرام، في خلفية الحدث. نظهر فقط حين تأخذ الأمور مسارًا خاطئًا، وأنا سأتولى التأكد أن هذا لن يحدث. ينبغي أن يشعر العروسان وأقاربهما وأحبابهما بأن المكان مكانهم فعلًا، أنهم هم المضيفون. إننا هنا فقط لنسهّل سير كل شيء، لنتأكد أن الحقل كله يسير بسلاسة. لكن لأتمكن من فعل هذا ليس في وسعي أن

أكون خفيةً كليًّا. إنه التوتر الغريب للدور الذي أؤديه. عليَّ أن أراقبهم كلهم، حذرًا من أي تطوراتٍ مُهدِّدة. سأحاول أن أبقى متقدمةً عنهم بخطوةٍ واحدة.

الآن

ليلة الزفاف

رنّ صدى الصرخة في الهواء حتى بعد انقطاعها مثل زجاجٍ تشظى. المدعوون متجمدون في صداها. ينظر جميعهم إلى خارج الصيوان في الظلمة المدوية حيث أتت الصرخة. ترتعش الأنوار مُهددةً بانقطاعٍ آخر.

ثم دخلتْ فتاة إلى الصيوان متعثرة الخطى. تفصح تنورتها البيضاء عن كونها نادلة، لكن وجهها يشبه وجه حيوانٍ شرس؛ عيناها ضخمتان وسوداوان، وشعرها متشابك. تقف هناك، أمام الجميع، تحدق. لا يبدو أنها ترمش. تقترب منها امرأة أخيرًا، ليست إحدى المدعوات. إنها منظمة الزفاف. تسأل بلطف: «ما كان هذا؟ ما الذي حدث؟».

لا تجيب الفتاة. لا يسمعون سوى أنفاسها. يشوبها شيء حيواني بالمثل، خشن وأجش.

تتقدم منظمة الزفاف خطوةً منها، وتضع يدًا مترددةً على كتفها. لا تصدر الفتاة أي رد فعل. المدعوون مشلولون، متصلبون في أمكنتهم. يتذكر بعضهم هذه الفتاة من وقتٍ مضى. كانت إحدى من ناولهم مشروبات البداية والأطباق الرئيسية والتحلية. إنها من جمّع أطباقهم وعبّأ كؤوس نبيذهم بخبرة، وذيل الحصان الأحمر على رأسها يتمايل بكياسةٍ مع كل خطوة، قميصها أبيض ونظيف ومكويٌّ. بعضهم يتذكر لكنتها اللطيفة الرخيمة: هل تصب المزيد؟ هل في وسعها إحضار شيءٍ آخر لهم؟ عدا ذلك فقد كانت -ما من تعبيرٍ أفضل- جزءًا من الأثاث. جزءًا من الآلات الممتازة القائمة على اليوم. لا تستحق ملاحظةً مناسبةً أكثر مما تستحقه الديكورات الخضراء، أو الشعلات

المضطربة فوق عمدان الشمع الفضي. سألت منظمة الزفاف مرةً ثانية: «ما الذي حدث؟».

نبرتها ما زالت تحمل تعاطفًا، لكن بصرامةٍ أكثر هذه المرة، إنذارًا بالسلطة. ترتجف النادلة بشدةٍ لدرجة أنها بدت كأنها مصابة بمرضٍ ما. تضع منظمة الزفاف يدًا على كتفها ثانيةً، كأنها تهدئ من روعها. تضع الفتاة يدها فوق فمها، وتبدو للحظةٍ كأنها ستقيء. ثم أخيرًا، تتكلم: «بالخارج».

شبه صوت، شبه آدمي.

اشرأبّت أعناق الضيوف ليسمعوا.

تُصدر تأوهًا ضعيفًا.

تقول منظمة الزفاف بثباتٍ وهدوء: «هيا؟ ثم؟ (تهز الفتاة هزةً رقيقةً هذه المرة) تشجعي. إنني هنا، أريد مساعدتك... كلنا نريد أن نساعدك. لا بأس. أنتِ في أمانٍ هنا. أخبريني ماذا حدث».

وأخيرًا تكلمت الفتاة من جديدٍ بصوتها المتحشرج: «في الخارج. دماء. كثيرة. (ثم، وقبل أن تنهار) جثة».

البارحة

هانا

الـمُرافِقة

أعض منديلًا لأجفف أحمر الشفاه. يستحق هذا المكان أحمر الشفاه. غرفتنا هنا رحبة، ضعف حجم غرفة نومنا في بيتنا. لم يُغفَل تفصيل صغير واحد فيها، هناك دلو من الثلج وبداخله زجاجة باهظة الثمن من النبيذ الأبيض وكأسان، وبها ثريًا عتيقة مُعلَّقة عاليًا في السقف، ونافذة مطلة على البحر. لا يمكنني الاقتراب كثيرًا من النافذة وإلا سأصاب بالدوار، إن نظرتُ مباشرةً إلى أسفل فسأرى الأمواج ترتطم بالصخور وجزءًا صغيرًا ورطبًا من الشاطئ.

حلّ المساء والوهج المتلاشي لغروب الشمس يضيء الغرفة كله بلونٍ ذهبيٍّ ورديٍّ. شربتُ كأسًا كبيرةً من النبيذ اللذيذ بينما كنتُ أستعد. شربته على معدةٍ فارغة، وبعد السجائر التي دخنتها مع أوليڤيا، أشعر برأسي يدور.

كان ماتعًا التدخين في الكهف، أشبه بنفحةٍ هبّت من الماضي. شجعني على أن أطلق العنان لذاتي في هذه العطلة القصيرة. أثقلني التعب والحزن طيلة الشهر، الآن تسنح الفرصة كي أتحرر قليلًا. لذا حشرت نفسي في ثوبٍ حريريٍّ أسود من عهد ما قبل الأطفال، اشتريته من آند أذر ستوريز (& Other stories)، أشعر دائمًا بشعورٍ رائعٍ وأنا أرتديه. جففت شعري وفردته. يستحق الجهد حتى لو أثرت به لرطوبة وتحوّل إلى كتلةٍ ضخمة هائشة من جديد مثل تسريحةٍ تشبه يقطينة سندريلا. ظننتُ أن تشارلي سيكون في انتظاري منزعجًا وضجرًا، لكنه لم يعد للغرفة إلا منذ دقيقتين، لذا

لدي متسع من الوقت لأفرّش أسناني وأزيل أثر السجائر، أشعر مثل مراهقةٍ مشاغبة. لكن كنت أتمنى سرًا أن يبقى هنا. كنا لنأخذ حمامًا معًا في المغطس البيضاويِّ هذا.

لم أر تشارلي إلا قليلًا منذ أن نزلنا من الزورق، في الواقع، قضى المساء كله بصحبة چولز يراجعان مهماته لإدارة مراسم الحفل غدًا. قال لي حين عاد: «آسف يا هان. أرادت چولز أن تراجع كل أمور الغد. آمل أنك لم تشعري بالوحدة في غيابي؟».

يرمقني بنظرةٍ مبهورةٍ حين أخرج من الحمام. يقول: «تبدين... (ويرفع حاجبيه) مثيرة!».

أجيب: «شكرًا»، وأهز كتفيَّ في رقصٍ خفيف. أشعر أنني مثيرة، لم أبذل كل جهدي وحماسي منذ وقتٍ طويل. وأعرف أن عليَّ غض الطرف عن حقيقة أنني لا أتذكر آخر مرةٍ أخبرني بهذا.

ننضم إلى الآخرين في غرفة المرسم حيث سنتناول مشروبات الاستقبال. إنها منسقة بعناية مثل غرفتنا: أرضية قرميدية عتيقة، وشمعدانات مؤججة بالشمع، وصناديق زجاجية مُعلَّقة على الجدران تحتوي سمكًا متلألئًا أظنه حقيقيًّا. كيف تحنط سمكة بحق الجحيم؟ تظهر النوافذ الصغيرة مثلثاتٍ من الشفق الأزرق، ويلف كل شيءٍ في الخارج سمة ضبابية من عالمٍ ثانٍ.

تقف چولز وويل محاطَين بزمرةٍ من الضيوف. كأن ويل يحكي حكايةً طريفة؛ الكل منصت لأيِّ كان ما يقول، مصغون لكل كلمة. ألاحظ أنه وچولز يمسكان أيدي بعضهما بعضًا، كأنهما لا يحتملان ألا يتلامسا. مظهرهما رائع معًا، طويلان وجميلان جمالًا يخطف الأنفاس، هي ترتدي بذلةً من قطعةٍ واحدة كريمية اللون، بينما يرتدي هو بنطالًا غامقًا وقميصًا أبيض يجعل سمرته أغمق بعدة درجات. كنت أشعر بالثقة بنفسي لكن الآن تبدو ملابسي رديئةً بالمقارنة بهما، بينما يعد متجر آند أذر ستوريز ترفًا جامحًا بالنسبة إليَّ، فإنني على ثقةٍ بأن چولز لا تشتري أي شيءٍ من متاجر الشارع العام.

ينتهي بي المطاف واقفةً جوار ويل، وهي ليست مصادفةً تمامًا، أشعر أنني أنسحب ناحيته مثل المغناطيس. إنها تجربة مسكرة أن يكون الواحد على مقربةٍ من شخصٍ رآه على شاشة التلفاز. أشعر بجلدي يتنمل وأنا قريبة

منه هكذا. شعرت بنظراته تنقب في وجهي حين سرت أمامه، بسرعةٍ من رأسي لأخمص قدميّ، قبل أن يعود ويسترسل في حكايته. ما يعني أن شكلي جميل! تتخللني رجفة مذنبة. في تلك السنوات بعدما أنجبت الطفلين -محتمل لأنني دائمًا معهما- أصبحتُ تقريبًا خفيةً عن أعين الرجال. أدركت -حين بت لا ألحظهم- أنني كنت أعتبر نظرات الرجال لي أمرًا مُسلَّمًا به. أنني استمتعت بها.

يقول ويل ملتفتًا إليَّ بابتسامته الشهيرة العريضة تلك: «هانا... تبدين فاتنة».

- شكرًا.

أزدرد جرعةً هائلةً من الشمبانيا، ويعتريني شعور بالإغواء مع شيءٍ من الرعونة.

- أردت أن أسألك ونحن في المرفأ... هل التقينا في حفل الخطبة؟

أجيب بنبرةٍ معتذرة: «لا. لم نتمكن من القدوم من برايتون للأسف».

- ربما رأيتك في إحدى صور چولز إذن. شكلك ليس غريبًا عليَّ.

أجيب: «ربما». لا أظن ذلك. لا أتصور أن چولز قد نُظهِر صورةً أنا فيها، لديها الكثير من الصور لها ولتشارلي وحدهما. لكن أفهم ما يفعله ويل، يحاول أن يُشعرني بترحابه، أنني واحدة من الشلّة. أقدِّر هذا اللطف.

أقول: «تعرف، ينتابني نفس الشعور ناحيتك. ربما رأيتك في مكانٍ ما من قبل؟ ممم... على تلفازي مثلًا؟».

كانت نكتة مبتذلة لكن ويل ضحك على أي حال، ضحكةً عميقةً وخافتةً، أشعر كما لو أنني ربحتُ شيئًا للتو. قال وهو يرفع كلتا يديه: «أعترف!». وحين فعل ذلك هبّت عليَّ نفحة من ذاك العطر ثانيةً، خشبية وترابية، كأنها رائحة غابة في قاعة العطور في متجرٍ باهظ الثمن. يسألني عن الأولاد، وعن برايتون. يبدو مدهوشًا بما أقول. إنه واحد من أولئك الناس الذين يُشعرونك بأنك أذكى وأجمل من العادي. أدرك وقتها أنني أمتّع نفسي، بينما أتلذذ بكأس الشمبانيا الباردة الشهية. يقول ويل: «الآن... (يضع كف يده على ظهري في

لمسةٍ رقيقةٍ، دفؤها يخترق ثوبي) دعيني أعرّفك على بعض الناس. هذه جورجينا».

جورجينا، فتاة نحيفة متأنقة في ثوبٍ حريريٍّ لونه ورديٌّ فاقع، تبتسم لي ابتسامة صفراء. لا تحرك وجهها كثيرًا وأحاول جاهدةً ألا أحدق إليها، أظن أنني لم أرَ البوتُكس على أرض الواقع من قبل. تسألني: «أكنتِ في حفل توديع عزوبية چولز؟ لست أذكر».

أجبتها: «لم أتمكن من الحضور. الأطفال...».

صادقة جزئيًّا. لكن كانت كذلك حقيقة أنها أقيمت في منتجعٍ لليوجا على جزيرة إبيثا بإسبانيا ولم يمكن بوسعي تحمُّل تكاليفها ولو بعد مليون عام.

يدخل بغتةً رجل رشيق القوام ذو شعر أحمر غامق في وسط المحادثة قائلًا: «لم يفُتك الكثير. عدة عاهرات يحرقن صدورهن في الشمس ويتبادلن النميمة حول كؤوس من نبيذ ويسبرينج آنجل. يا إلهي! (ثم يرمقني من أسفل لأعلى قبل أن يميل ويقبّل وجنتي) ألست تبدين في أجمل حلّة الآن!».

- ممم شكرًا.

توحي ابتسامته بأنه يعني ما قاله بلطف، لكني لست واثقةً أنه إطراء فعلًا.

هذا دنكن، كما يبدو، وهو متزوج بجورجينا. إنه كذلك واحد من أصدقاء العريس الأربعة. پيتر، شعره مصفف للوراء ولامع، إطلالة تليق بالحفلات. أولوفيمي، أو فيمي، طويل وذو بشرة سوداء ووسيم. آنجس، أشقر شقرة بوريس جونسون، وله كرش مماثلة كذلك. لكنهم على ذلك كانوا متشابهين قليلًا بطريقةٍ غريبة. ارتدى أربعتهم نفس ربطات العنق المخططة والقمصان البيضاء، وأحذيةً مُلمَّعة من طراز بروغ، وستراتٍ حتمًا ليست من متجر نكست كما سترة تشارلي. ابتاع تشارلي سترته خصيصى لأجل هذه العطلة وآمل أنه لا يشعر بالانزعاج من المقارنة. لكنه على الأقل يبدو أنيقًا جوار الإشبين چونو، الذي رغم حجمه فإنه يذكّرني بطريقةٍ ما بطفلٍ يرتدي ملابس من صندوق المفقودات في المدرسة.

أستنتج من الانطباع الأولي أنهم رجال فاتنون. لكن أتذكر ضحكاتهم التي صدحت من البرج ونحن ندخل القلعة. وحتى الآن، حتمًا تدور في صدورهم مشاعر مضمرة أسفل هذا السحر. ابتسامات ساخرة، حواجب مرفوعة، كأنهم يتشاركون نكتةً سريةً على حساب شخصٍ ما، محتمل أنه أنا.

أتحرك لأتحدث مع أوليڤيا التي تبدو بالغة الرقة في ثوبها الرماديِّ. أشعر أننا أصبحنا شبه صديقتين في الكهف، لكنها الآن تجيبني بكلماتٍ قصيرةٍ وهي تُبعِد عينيها عني سريعًا.

تلاقت عيناي بعيني ويل عدة مراتٍ من خلف كتفها. لس الخطأ خطئي، أحيانًا ينتابني شعور بأن عينيه مركّزتان عليَّ منذ برهةٍ. لا يصح أن يحدث هذا لكنه يثير حماسي. يذكّرني، وأعرف أنه ليس من اللائق قول هذا، لكنه يذكرني بالإحساس الذي يشعر به أي أحدٍ حين يشك أن الشخص الذي يعجب به يشتهيه بالمثل.

أمسك نفسي متلبسةً بالفكرة. عودي إلى الواقع يا هانا.أنت امرأة متزوجة وأم لطفلين وزوجك يقف هناك وأنت تتحدثين مع رجلٍعلى وشك الزواج بصديقة زوجك المقربة، التي تقف هناك وتشبه مونيكا بيلوتشي عدا أنها أكثر تأنقًا. ربما عليَّ أن أخفف من الشمبانيا قليلًا. كنت أتجرعها تجرعًا. والتوتر له نصيب نوعًا ما وأنا محاطة بهذا الجمع. لكنه كذلك شعور الحرية. لا توجد مربية سنحرج أنفسنا أمامها لاحقًا، لا يوجد مخلوقان صغيران نستيقظ لأجلهما في الصباح الباكر. هناك شيء غريب حول أن يظهر المرء بأبهى حلته ومن حوله رفقة من الكبار فحسب وإمداد وافٍ من الكحول، بلا أدنى مسؤولية.

أقول: «رائحة الطعام مذهلة. من الذي يطهو؟».

تجيب چولز: «إيڤا وفريدي. إنهما يملكان القلعة، وإيڤ هي منظمة حفل زفافنا كذلك. سأعرّفكم عليهما على العشاء. وفريدي سيعدالبوفيه للغد».

أقول: «أنا واثقة أنه سيكون شهيًا. يا إلهي، إنني جوعانة».

يقول تشارلي: «طبعًا، معدتك فارغة تمامًا. فرّغتها كلها على الزورق، صحيح؟».

يقول دنكن مبتهجًا: «هل تقيأت؟ أطعمت السمك، هه؟».

أرمي تشارلي بنظرةٍ باردة. أشعر وكأنه هدم شيئًا من الجهد الذي بذلته لأجل هذه الأمسية. أشعر وكأنه يسعى لإضحاكهم، يحاول الاندماج وسطهم بدعابةٍ على حسابي. أقسم إنه غيّر صوته -جعله أفخم- لكن أعرف لو ذكرتُ الأمر لاحقًا فسيتظاهر إنه لا فكرة لديه عما أتحدث عنه.

أقول: «على أي حال، سيكون تغييرًا لطيفًا عن أصابع الدجاج التي ينتهي بي الأمر كل ليلةٍ وأنا أتناولها مع الطفلين».

سألتْ چولز: «هل عندكم أي مطاعم جيدة في برايتون؟». تتصرف دائمًا چولز كأن برايتون هي الريف.

أجيبها: «نعم، هناك الـ...».

يقول تشارلي: «باستثناء أننا لا نذهب إليها أبدًا».

أقول: «هذا ليس صحيحًا. ذهبنا إلى ذاك المطعم الإيطالي الجديد....».

يعارضني تشارلي: «إنه ليس جديدًا الآن، كان ذلك من قرابة السنة».

إنه محق. لا أتذكر آخر مرةٍ أكلنا فيها خارج المنزل عدا تلك المرة. المال شحيح وعلينا أن نضيف تكلفة المربية على حساب الطعام. لكن أتمنى لو أنه لم يقل ما قال.

يحاول چونو أن يملأ كأس الشمبانيا لتشارلي لكن الأخير يغطي الكأس بيده بسرعة: «لا، شكرًا».

يقول چونو: «دعك من هذا يا صاحبي، إنها ليلة قبل الزفاف. لتسترخِ قليلًا!».

يلومه دنكن: «هيا! إنها مياه غازية ليس إلا، ليست كوكايين. أم أنك ستخبرنا أنك حامل؟».

ضحك أصدقاء العريس ضحكاتٍ مكتومة.

كرر تشارلي بضيق: «لا. أريدُ التروي الليلة».

أشعر به محرجًا لقوله هذا. لكني سعيدة أنه لم ينسَ نفسه في هذا الصدد.

يقول چونو: «إذًا، تشارلي يا ولد، أخبرنا كيف التقيتما؟».

أظن بدايةً أنه يقصدني أنا وتشارلي. ثم أدرك أنه ينقل بصره بين تشارلي وچولز. صحيح.

تجيب چولز: «منذ زمنٍ سحيق....». يرفعان حاجبيهما لبعضهما بعضًا في تناغمٍ مثاليٍّ.

يقول تشارلي: «علّمتها الإبحار. كنت أعيش في كورنوال. وكانت تلك وظيفتي الصيفية».

تقول چولز: «وأبي عنده منزل هناك. كنت آمل لو تعلمت الإبحار ليأخذني معه على متن قاربه إلى هناك. لكن اتضح أن تبحر بصحبة ابنتك ذات الستة عشر عامًا في الساحل الجنوبي ليس مثل أن ترافق آخر حبيباتك لتحظى بحمام شمسٍ على مقدمة السفينة في سان تروبيه».

أظنها قالت هذا بمرارةٍ تتجاوز ما كانت تنويها فعلًا. تردف: «على أي حال، تشارلي كان معلّمي (تنظر إليه) كنتُ معجبةً به للغاية».

يجيبها تشارلي بابتسامة. أضحك لأجاري الآخرين لكن ليس من قلبي تمامًا. هذه ليست المرة الأولى التي أسمع فيها هذه القصة، كأنها تمثيلية يؤديانها معًا. الريفي والثرية. مع ذلك، تلوّتْ معدتي بينما چولز تسترسل.

توجه چولز حديثها إلى تشارلي: «لم يشغل بالك سوى محاولة النوم مع أكبر قدر ممكنٍ من الفتيات من عمرك قبل أن تلتحق بالجامعة (وفجأةً بدا وكأنها تحدثه هو وحده) لكن يبدو أنك نجحت في هذا، محتمل أن سمرتك الدائمة وجسدك وقتها ساعداك...».

يجيب تشارلي: «صحيح. كان أفضل قوامٍ وصلت له في حياتي. كأنني كنتُ أحظى بعضويةٍ في صالةٍ رياضية مع الوظيفة، كنت أتمرن في المياه يوميًّا. لكن للأسف لا تأتي عضلات المعدة مع تدريس الجغرافيا للمراهقين».

يقول دنكن: «دعنا نرى هذه العضلات الآن»، ثم يميل إلى الأمام ويسحب طرف قميص تشارلي. يرفعه ليكشف عن معدةٍ لينة وشاحبة اللون. يخطو تشارلي خطوةً للوراء ويحمر خجلًا وهو يُدخل قميصه في بنطاله.

تقول چولز غير عابئةٍ بما عرقل الحديث: «وبدا ناضجًا للغاية (تلمس ذراع تشارلي بتملُّك) حين تكون في السادسة عشرة من عمرك، تبدو لك الثامنة عشرة أكبر بكثير. كنت خجلى».

همهم چونو قائلًا: «من الصعب تصديق هذا».

تتجاهله چولز وتكمل: «لكن أعرف أنك ظننت في البداية أنني تلك الأميرة المتعجرفة».

يجيبها تشارلي بحاجبٍ مرفوع: «ربما كان هذا صحيحًا». استعاد ثقته.

تلكزه چولز بكأس الشمبانيا: «وي!».

إنهما يتغازلان، لا أجد وصفًا آخر لما يجري.

يقول: «لكن لا، أدركتُ أنك رائعة قليلًا في النهاية. بعدما اكتشفت حسك الساخر الخبيث هذا».

تردف چولز: «وبقينا على اتصالٍ من وقتها».

يردف تشارلي: «بدأت تشيع الهواتف النقّالة».

قالت چولز: «أصبحت أنت الخجول في العام التالي. كان نهداي قد كبرا أخيرًا، وأتذكر أنك جفلت حين قابلتني في المرفأ».

أتجرع جرعةً كبيرةً من الشمبانيا. وأذكّر نفسي أنهما كانا مراهقَين وقتئذ، أنني أحسد فتاةً عمرها سبعة عشر عامًا، ولم تعد موجودة.

يقول تشارلي: «صحيح وكنت برفقة صاحبك أصلًا. لم يرُق لي كثيرًا».

تجيب چولز بابتسامة من يخفي شيئًا: «نعم. لم يدُم طويلًا. كان غيورًا للغاية».

يسأل چونو: «هل مارستما الحب إذن؟». وبكل بساطةٍ هكذا، سأل السؤال الذي عجزتُ عن طرحه بصراحةٍ تامة.

يبتهج أصدقاء العريس. يعلو صراخهم: «لقد وصل إلى هناك!». «اللعنة!». يتزاحمون في حماسٍ وطرب، تضيق الحلقة. ربما لهذا السبب شعرت فجأةً بأنني عاجزة عن التنفس.

تقول چولز: «چونو! بعد إذنك! هذا زفافي!». لكنها لم تنفِ.

لا أطيق النظر في وجه تشارلي. لا أريد أن أعرف.

ثم، والحمد لله، يتغير مسار الحديث.

يفتح دنكن زجاجة شمبانيا كان يحملها.

يقول فيمي: «اللعنة يا دنكن! كدت تقتلع عيني!».

أسأل چونو في توقٍ لاستغلال هذا الإلهاء: «كيف تعرفتم على بعضكم بعضًا جميعًا؟».

يجيب چونو: «آه.. منذ سنواتٍ». يضع يده على كتف ويل، تفصله وويل هذه الإشارة بطريقةٍ ما عن البقية. يقف جواره ويل أبلغ وسامة، يختلفان اختلاف الليل والنهار. وهناك شيء غريب حيال عينَي چونو. قضيت وقتًا أحاول استكشاف ما الخطب فيهما. ها هما ملتصقتان أكثر من اللازم؟ صغيرتان؟

يقول ويل: «بالضبط. كنا معًا في المدرسة».

إنني متفاجئة. تحيط هالة المدراس الراقية بالآخرين، أما چونو فيبدو أخشن، حتى لكنته ليست مصقولةً كما الأثرياء.

يقول فيمي: «مدرسة تريڤليان. كانت تشبه ذاك الكتاب عن الأولاد المجتمعين في جزيرةٍ صحراوية معًا، يقتلون بعضهم بعضًا، آآ يا إلهي، ما كان اسمه...».

يقول تشارلي: «أمير الذباب». يشوب صوته أوهن نبرة من نبرات التفوق، التي تقول: صحيح أنني التحقت بمدرسةٍ عامة لكني أقرأ أفضل منكم جميعًا.

يقول ويل بسرعة: «لم تكن بهذا السوء. كان أشبه... بمجموعة من الفتيان يتصرفون برعونةٍ وجموح».

ينضم دنكن للحديث: «سيظل الفتيان فتيانًا! هل أنا محق يا چونو؟».

يكرر چونو: «صحيح، سيظل الفتيان فتيانًا».

يقول ويل: «ومن وقتها ونحن أصدقاء. (ثم يصفع چونو على ظهره) كان چونو يقضي وقته هنا متسكعًا في سيارته العتيقة بينما أنا في إدنبرة لأجل الجامعة، ألم تفعل يا چونو؟».

يقول جونو: «أينعم. كنت أصطحبه إلى الجبال لنتسلق ونخيّم هناك. أتأكد أنه لم يصبح ناعمًا. أو أنه لا يقضي كل وقته في التسكع مع الفتيات هنا وهناك (يتظاهر بالندم) معذرةً يا چولز».

تُميّل چولز رأسها.

يقول تشارلي: «من نعرفه التحق بجامعة إدنبرة يا هان؟». يتيبس جسدي. أنَّى له أن ينسى؟ ثم أرى صفحة وجهه تتبدل رعبًا حين يدرك خطأه.

يسأل ويل: «تعرفان شخصًا ما؟ من؟».

أقول بسرعة: «لم تبق هناك طويلًا. تعرف يا ويل، كنت أتساءل مؤخرًا. ذلك الجزء في النجاة من الليل، في تندرا القطب الشمالي. لأي درجةٍ كانت باردة؟ هل فعلًا كدت تتجمد؟».

يجيب ويل: «نعم، فقدت كل الإحساس من أطراف أصابعي»

يمد إحدى يديه ناحيتي. تلاشت البصمات من بعضها. أنظر بتمعن. لا ألحظ فيها أي اختلاف. لكن أجد نفسي أقول: «أف نعم، أراهم. يا للهول!». أبدو مثل إحدى معجباته.

يلتفت تشارلي إليَّ ويقول: «لم أكن أعرف أنك شاهدتِ المسلسل. متى شاهدتِه؟ لم نشاهده معًا قط».

اللعنة. أفكر في كل أوقات الظهيرة التي أجلست فيها الطفلين أمام قناة سي بيبيز بينما أشاهد أنا مسلسل ويل على الآيباد في المطبخ وأنا أسخّن عشاءهم. ينظر إلى ويل: «لا أقصد أي إهانةٍ يا صاحبي، في نيتي دائمًا أن أشاهده». هذا ليس صحيحًا. وبإمكانك رؤية أنه ليس صحيحًا من طريقة قوله. لم يبذل أي محاولةٍ ليكون صادقًا.

يجيبه ويل بلطف: «لا عليك».

أقول: «لكني لم أشاهده كله... شاهدت أبرز الحلقات فحسب، أنت تعرف».

يقول پيت: «أظن أن المدام تحتج كثيرًا. (ثم يمسك بكتف ويل ويقول بابتسامةٍ عريضة) ويل، عندك معجبة!».

يضحك ويل باستهانة. لكن أشعر بالحرارة تخدر عنقي ووجنتيَّ. آمل أن المكان شديد الظلمة هنا فلا يلاحظ أحد أنني أحمر خجلًا. اللعنة على هذا. أحتاج المزيد من الشمبانيا. أرفع كأسي إشارةً لكأسٍ ثانية.

يقول دنكن لتشارلي: «على الأقل زوجتك تعرف كيف تحتفل!».

يصب فيمي فيملأ الكأس الرفيعة حتى قرب قمتها. أقول بينما يصل الشراب لحافته: «على مهلك، هذا كثير». مكتبة سُر مَن قرأ

ثم فجأةً يصدر صوت رنةٍ صاخبة، وأشعر برذاذ الشراب على رسغي. أنظر في ذهولٍ فأرى أن شيئًا ما سقط في كأسي. أقول متحيرةً: «ما كان هذا؟».

يقول دنكن والابتسامة تعلو وجهه: «لتلقي نظرة. رميتك ببنس. عليك الآن أن تشربيه كله».

أحدق إليه ثم إلى كأسي. إنه لا يمزح، تستقر في قاع الكأس المملوءة العملة النحاسية الصغيرة، ووجه الملكة الصارم يطل منها.

تقول جورجينا وهي تضحك: «دنكن! أنت فظيع!».

لا أظن أن أحدًا رماني ببنسٍ مذ كنتُ في الثامنة عشرة من عمري.

فجأةً ينظر الجميع إليَّ. أنظر إلى تشارلي بحثًا عن الإقرار بأنه ليس عليَّ أن أشرب هذا. لكن تعبيره متوسل على نحوٍ غريب. إنها النظرة نفسها التي يرميني بها بن قائلًا بها: «أرجوك لا تحرجني أمام أصدقائي يا ماما».

هذا جنون. ليس عليَّ شربه. إنني امرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها. لا أعرف هؤلاء الناس حتى، لا أدين لهم بشيء. لن أجبر على فعلها....

«اشربيه...».

«اشربيه!».

يا إلهي، لقد بدؤوا يهتفون.

«أنقذي الملكة!».

«إنها تغرق!».

«اشربيه اشربيه اشربيه».

أشعر بخديَّ يحترقان. فقط لأجل أن أبعد أعينهم عني، لأوقف هذا الهتاف، أرفع الكأس وأميّلها ثم أتجرعها كلها دفعةً واحدة. كنتُ أعتقد أن الشمبانيا لذيذة، لكن مذاقها شنيع بهذه الطريقة، حامضة ولاذعة، تلسع حلقي وأنا أسعل بينما أبلعها، تندفع داخل أنفي. أشعر أن بعضها ينسكب على شفتي السفلية. عيناي تدمعان. إنني مُهانة. كأن الجميع يفهم قواعد أيًّا كان ما يحدث. الكل سواي.

يهللون بعدها تشجيعًا. لكن لا أظن أن تشجيعهم هذا لي. إنهم يهنئون أنفسهم. أشعر مثل طفلٍ محاطٍ بحلقة من المتنمرين في ساحة اللعب.

حين أنظر ناحية تشارلي، يشير لي بشيءٍ يشبه غمزةً معتذرة. فجأةً أشعر أني وحدي. ألتفت عن الآخرين لأخفي وجهي. وبينما أفعل، تقع عيناي على شيءٍ ما يجمّد الدم في عروقي. شخص يقف وراء النافذة، وينظر إلينا عبر الظلام الدامس، يراقبنا في صمت. الوجه مضغوط على الزجاج، ملامحه مشوهة تأخذ شكل غرغول قبيح، أسنانه تظهر عاريةً في ابتسامةٍ مرعبة. وبينما أحدق إليه، عاجزةً عن إزاحة عيني عنه، يفغر فاه ليلفظ كلمةً واحدة: «بوو».

لستُ أعي بكأس الشمبانيا وهي تنفلت من يدي إلا حين ارتطمت بالأرض متشظية قرب قدمي.



الآن

ليلة الزفاف

تمر لحظات قبل أن تستعيد النادلة وعيها. إنها، كما هو واضح، سالمة، لكن أيًّا كان ما رأته هناك فقد صعقها حد الخرس تقريبًا. معظم ما تمكنوا من انتزاعه منها هو آهات خافتة وهذيان بلا معنى.

قالت رئيسة الندل -التي يبلغ عمرها عشرين عامًا أو أكثر- بيأس: «لقد أرسلتها إلى القلعة لتحضر زجاجتين من الشمبانيا».

يلف الصيوان صمت ملموس. يبحث المدعوون عن أحبائهم بين الحشود، ليتأكدوا أنهم بأمانٍ وفي أماكنهم. لكن من الصعب أن تعثر على أي أحدٍ وسط هذا الحشد المضطرب، وكلهم أسوأ حالًا بعد يومٍ من السكر والعربدة. صعب كذلك بسبب تركيبة الصيوان المصمم على أحدث طرازٍ، منصة الرقص في خيمة، والبار في أخرى، وصالة العشاء الرئيسية في الخيمة الكبرى.

يقول رجل ما: «ربما هي في حالة هلعٍ فحسب، إنها مراهقة. والسواد حالك في الخارج والريح عاصفة».

يجيبه آخر: «لكن يبدو وكأن أحدًا بحاجةٍ للمساعدة. علينا أن نذهب وننظر...».

- لا يمكن أن نجعل الجميع يتجولون في أنحاء الجزيرة.

ينصتون جميعًا إلى منظمة الزفاف، إنها تمتلك سلطةً فطرية رغم أنها بدت مصدومةً مثل البقية تمامًا، وجهها قلق وشاحب. تقول: «الريح عاصفة. كما أن الأجواء مظلمة، وهناك السبخة والمنحدرات. لا أريد أن يصاب... أن يصاب أي شخصٍ آخر بأذى، إن كان هذا ما حدث».

همهم رجل: «طبعًا إنها مرتعبة حيال تأمينها».

قال أحد أصدقاء العريس: «علينا أن نذهب ونرى. بعض منا، الرجال. الأمان في الكثرة وهذا الكلام».

البارحة

چولز

العروس

أقول: «أبي! أرعبت هانا المسكينة!».

لكن كان رد فعل مبالغًا فيه بعض الشيء، أن تلقي بكأسها هكذا. أكان عليها أن تثير هذه الجلبة؟ أكبح انزعاجي بينما تكنس إيفا الشظايا، تتحرك بيننا برصانةٍ وفي يدها المقشة.

- آسف (يبتسم أبي ملء فِيه لنا جميعًا وهو يدخل الغرفة) خطَر لي أن أفزعكم قليلًا.

يضغط على مخارج حروفه أكثر من المعتاد، على الأرجح لأنه في مسقط رأسه، ربما. نشأ في منطقةٍ من مناطق الجيلتشت، وهي مناطق يتحدث أهلها الأيرلندية، في جالواي، ليست ببعيدةٍ عن هنا. أبي ليس رجلًا جسيمًا لكنه يتمكن من أن يشغل مساحةً لا بأس بها ويقدم قوامًا يفرض نفسه مع كتفيه العريضتين وأنفه المكسور. من الصعب بالنسبة إليَّ أن أراه بحيادية نظرًا إلى ما يمثله لي. لكن أظن أن شخصًا غريبًا قد يظن أنه كان ملاكمًا أو يعمل عملًا مشابهًا له علاقة بالملاكمة أكثر من كونه مطورًا عقاريًّا ناجحًا.

سڤيرين، آخر زوجات أبي -فرنسية، ولا تكبرني كثيرًا، ربعها ثوب مكشوف الصدر، وثلاثة أرباعها كحل سائل- تنسل من خلف أبي، وهي تطوح شعرها الأحمر الطويل.

أقول لأبي متجاهلةً سڤيرين (لن أكلف نفسي عناء قضاء وقتٍ عليها ما دامت لم تمر خمس سنوات، الرقم الذي سجله أبي في زيجاته حتى الآن): «وصلت أخيرًا».

كنت أعرف أن موعد وصولهما مقرر الآن -لذا طلبتُ من إيفا أن تعد الزورق لهما- لكن حتى وقتها كنت أتساءل إن كان ثمة عذر ما، كان أي تأخيرٍ يعني أنهما لن يصلا الليلة. لن تكون أول مرة.

ألحظ أن أبي وويل يتفحصان بعضهما بعضًا في حذرٍ وريبة. يبدو ويل في حضرة أبي، وعلى نحوٍ غريبٍ، أنه متصاغر قليلًا، ليس على طبيعته. أنظر إليه مرتديًا قميصه المهندم وبنطاله المصنوع من قماش التشينو، وأقلق أن يراه أبي على أنه مجرد شخصٍ ثريٍّ وسطحيٍّ، فتى تقليدي من فتيان المدارس الخاصة.

أقول: «لا أصدق أن هذه أول مرةٍ تلتقيان».

ليس تقصيرًا في محاولاتنا اللعينة. سافرت أنا وويل خصيصى إلى نيويورك منذ عدة أشهر. وفي آخر لحظةٍ عرفنا أن أبي استُدعي لرحلة عملٍ في أوروبا. أتخيل طائرتينا قد تقاطعتا في مكانٍ ما فوق الأطلسي. والدي رجل مشغول للغاية! مشغول أكثر من اللازم طبعًا فلا يجد وقتًا لمقابلة خطيب ابنته حتى عشية زفافها. قصة حياتي اللعينة.

يقول ويل بيدٍ ممدودة: «تشرفتُ بلقائك يا رونان».

يتجاهل أبي يده ويلكمه بقوةٍ على كتفه بدلًا عنها. يقول: «ويل الشهير! أخيرًا التقينا».

يجيبه ويل بابتسامةٍ ظافرة: «لستُ مشهورًا بالضبط بعد».

أغمز. إنه زلة نادرة. يبدو وكأنه تباهٍ متواضع وأنا شبه متأكدة أن أبي لم يقصد بقوله «شهيرًا» إشارةً لظهوره في التلفاز. أبي لا يحب المشاهير أساسًا، لا يحب أي أحدٍ يجني ثروةً من أي شيءٍ سوى العمل الشاق على حق. إنه رجل عصاميٌّ معتز بذاته.

يقول ويل: «وأنت حتمًا سڤيرين (ثم يميل ليسلم عليها بقبلتين على وجنتيها) أخبرتني چولز الكثير عنك... وعن التوءمين».

لا، لم أفعل. لم أدعُ التوءمين، آخر أنجال أبي، إلى زفافي.

تبتسم سڤيرين بتكلُّفٍ وهي تذوب تحت تأثير سحر ويل. لا يبدو أن هذا يحبب أبي في ويل أكثر. أتمنى لو أن رأي أبي لم يكن مهمًا لي البتة. لكن ها أنا ذي، أقف متخشبةً، أراقبهما يحومان حول بعضهما بعضًا في هذه المساحة الضيقة. أمر مُضنٍ. أتنفس الصُّعداء حين تأتي إيڤا وتخبرنا أن العشاء جاهز.

إيڤا تشبهني، منظمة ومتمكنة وتحفظ السر. تحظى بسمةٍ رائعة، نوع من الاستقلال في الرأي، وهو ما لا يعجب الجميع. لكني أفضله. لا أريد شخصًا يدّعي أنه صديقي المقرب وأنا أدفع له لقاء عملٍ ما يؤديه لي. أعجبتني إيڤا في أول مرة تحدّثنا معًا عبر الهاتف، وددتُ أن أسألها إن كانت قد تفكر في أن تترك كل هذا وتأتي للعمل في المجلة. قد تبدو عاديةً ولطيفة لكنها تتمتع بجانبٍ صلب.

إننا في طريقنا إلى غرفة الطعام. يجلس أبي وأمي، كما هو مخطط له، كل واحدٍ في أقصى أطراف المائدة، لإبعادهما مكانيًا قدر الإمكان. لستُ متأكدةً حقًا إن كان أبواي قد تبادلا أكثر من بضع كلماتٍ منذ التسعينيات وهو أمر يصب في مصلحة سلام هذه العطلة إن استمر. بينما تجلس سڤيرين على مقربةٍ شديدةٍ من أبي لدرجة أنها قد تجلس في حضنه. قرف! صحيح أنها لا تتجاوز نصف عمره لكنها تجاوزت الثلاثين، ليست مراهقة.

الكل رائق المزاج، الليلة على الأقل. أظن أن زجاجات شمبانيا بولينجر المُعتَّقة منذ عام 1999 التي شربناها تؤدي عملًا رائعًا. حتى أمي تتصرف بلطفٍ بالغ، تلعب دور والدة العروس ببراعةٍ ورباطة جأش. تتألق مهارتها التمثيلية دائمًا في الحياة الحقيقية بدلًا من المسرح.

الآن تأتي إيڤا وزوجها حاملَين المقبّلات: شوربة كريمية مزينة بالبقدونس.

- أعرّفكم إلى إيڤا وفريدي.

لا أخبر الآخرين بأنهما المضيفان لأنه في واقع الأمر، أنا المضيفة. إنني من دفع ثمن هذا الامتياز. لذا أقرر قول: «إنهما مالكا القلعة».

تومئ إيفا إيماءةً ناعمة بسيطة. تقول: «رجاءً أخبروا أيًّا منا إن احتجتم أي شيء. آمل أن تستمتعوا بإقامتكم هنا. وحفل الزفاف غدًا هو أول زفافٍ نقيمه على الجزيرة، لذا سيكون مميزًا على نحوٍ خاص».

تقول هانا ببشاشة: «إنها جميلة، ويبدو هذا لذيذًا».

يجيبها فريدي بعدما تمكّن من العثور على صوته: «شكرًا لك». إنه إنجليزي، ظننته أيرلنديًّا مثل إيفا.

تومئ إيفا: «لقد جلبنا بلح البحر بأنفسنا صباح اليوم».

وحين وضعت الأطباق أمام الجميع، عاد الحديث حول المائدة مسترسلًا، عدا أوليڤيا التي جلست مكانها خرساء، تحدق إلى صحنها.

تقول أمي لهانا: «أحبُّ ذكرياتي في برايتون، تعرفين، أديتُ عرضًا هناك عدة مرات»..

يا إلهي! لم يمضِ وقت حتى تبدأ في إخبار الجميع عن تلك المرة التي مارستْ مشهدًا حميميًّا كاملًا أمام الشاشة لفيلمٍ فنيٍّ.

تجيب هانا: «أوه.. إننا نشعر بالذنب لأننا لا نذهب إلى المسرح كثيرًا. أين أديت عرضك؟ في المسرح الملكي؟».

تقول أمي بنبرةٍ متعجرفة تتسلل لصوتها حين تشعر بأن أمرها كُشِف: «لا. إنه أقدم من هذا (تميل رأسها) اسمه الفانوس السحري. في ذا لينز. تعرفينه؟».

تجيب هانا: «ممم لا (ثم تردف بسرعة) لكن كما قلت، نعيشُ بعيدًا عن وسط المدينة ولا نعرف أي مكان، حتى المشهور منها».

عطوفة هانا. هذا شيء واحد أعرفه عنها. كأن عطفها... ينسكب منها. أتذكر يوم التقيتُ هانا أول مرة ورأيت أنها بالضبط المرأة التي يرغب بها تشارلي. امرأة لطيفة. امرأة رقيقة ودافئة. إنني كثيرة عليه. غضوبةٌ ومندفعة. لم يكن ليختارني قط.

أذكّر نفسي بأنني لم أعد أحسد هانا. ربما كان تشارلي ذات يوم البطل المثير في نادي الإبحار، لكنه ضعف الآن، حلّت كرش مكان عضلاته المفتولة السمراء. واستقر في وظيفته كذلك. حتى إن كان سيسعى لشيءٍ ما فكل

ما أمامه هو التنافس على منصب نائب المدير. لا شيء يقتل إثارة الرغبة كانعدام الطموح، أليس كذلك؟

أظل أراقب تشارلي حتى تقع عيناه على عينيّ وأحرص على أن أكون أول من يشيح بنظره بعيدًا. أتساءل: أهو الغيور الآن؟ لاحظت غرابة تصرفاته حول ويل، كأنه يحاول إيجاد عيبٍ به. لمحتُه يراقبنا ونحن نشرب. وشعرت به ثانيةً، شعور روعتنا معًا وأنا أتصور الأمر من خلال عينيه.

قالت أمي لهانا: «يا لجماله، سن الخامسة مرحلة رائعة (إنها تؤدي عملًا مذهلًا في تمثيل اهتمامها. ترفع صوتها عبر المائدة) وكيف حال التوءمين يا رونان؟».

أتساءل إن كان استصغارًا مقصودًا، ألا تشمل اسم سڤيرين في سؤالها. في الواقع، لنُلغِ هذا، لست بحاجةٍ لأتساءل. رغم الانطباع الذي تعمل جاهدةً لتغطي غموضه البوهيمي، لا تفعل أمي شيئًا غير ذي مقصدٍ إلا فيما ندر.

يجيبها: «إنهما بخير. شكرًا يا آرامينتا. سيلتحقان برياض الأطفال قريبًا، أليس كذلك؟»، يلتفت إلى سڤيرين، وتقول: «وي.. إننا نبحث لهما عن روضةٍ يتحدثون الفرنسية فيها. مهم للغاية أن يكبرا مثلي آه ثنائيَي اللغة».

سألتها: «أوه! أنت ثنائية اللغة؟»، لم يكن بوسعي سوى استصغار قدرها.

إن لاحظت سڤيرين فهي لم تُبدِ أي رد فعل. أجابت بلا مبالاة: «وي.. درست في مدرسةٍ داخلية للفتيات في بريطانيا وأنا صغيرة. وإخوتي أيضًا، درسوا في مدارس للفتيان هناك».

تقول أمي وما زالت توجه الحديث لأبي: «يا إلهي! حتمًا هذا شاق في سنك يا رونان». وقبل أن يحظى بفرصة الرد تصفق بيدها، ثم تنهض وتقول: «بينما نحن في انتظار الأطباق الرئيسية، أحب أن أقول شيئًا صغيرًا».

أقول: «لستِ مضطرةً لهذا يا أمي». الكل يضحك، لكني لم أكن أمزح. هل هي ثملة؟ من الصعب التخمين، كلنا شربنا كثيرًا. ولا أظن أن ثمالة أمي ستشكّل فرقًا كبيرًا على أي حال؛ ليس لديها سيطرة على نفسها لتفقدها أساسًا.

تقول رافعةً كأسها: «إلى حبيبتي جوليا. منذ كنتِ فتاةً صغيرةً وأنت تعرفين ما تريدين بالضبط. والويل لأي أحدٍ يعترض طريقك! لم أكن هكذا قط... ما أريده يتغير كل أسبوع، وأظن لهذا السبب أنا تعيسة على الدوام... أيًا كان، كنتِ دائمًا تعرفين مرادك. وما تريدينه تسعين خلفه. (يا إلهي! إنها تفعل هذا لأني منعتها من أن تلقي خطابًا في الزفاف. أنا متأكدة) عرفت في اللحظة التي أخبرتني فيها عن ويل أنه الرجل الذي تريدين قضاء حياتك معه».

لم تقرأ المستقبل كما يبدو في صوتها بالضبط. نظرًا إلى أنني أخبرتها، في المحادثة ذاتها، أننا مخطوبان بالفعل. لكن أمي أبدًا لا تدع الحقائق المزعجة تعيق طريق قصصها المشوقة أبدًا.

تسأل: «ألا يبدوان مدهشين معًا؟». تعلو همهمات الاتفاق من الآخرين. لكن لا يعجبني التأكيد الذي أكدته على «يبدوان».

تسترسل أمي: «كنتُ أعرف أن جولز بحاجةٍ لأن تجد شخصًا ذا عزيمةٍ مثلها»

أكانت هنالك حدة في طريقة قولها «عزيمة»؟ من الصعب التأكد. تقع عيناي على عينَي تشارلي عبر المائدة، يعرف من زمنٍ بعيد طبيعة أمي. يغمز لي وأشعر بفورانٍ سريٍّ من الدفء في أعماق بطني. ثم تتابع: «وذوقها! يا له من ذوقٍ. كلنا نعرف هذا عن ابنتي، أليس كذلك؟ مجلتها ومنزلها الرائعان في إزلنجتون، والآن هذا الرجل المذهل هنا (تضع يدها ذات الأظافر المطلية بالأحمر على كتف ويل) تتمتعين دومًا بعينٍ رفيعة الذوق يا جولز». وكأنني انتقيتُه ليليق على حذاء. وكأنني أتزوجه فقط لأنه يلائم حياتي على نحوٍ مثاليٍّ...

تكمل كلامها: «وقد يبدو هذا وكأنه عين الجنون لأي شخصٍ آخر، أن تجر كل الناس إلى هذه الجزيرة النائية قارسة البرودة. لكنه أمر مهم لجولز، وهذا كل ما يهم».

لا يعجبني وقْع هذا كذلك. إنني أجاري الآخرين في الضحك، لكن أسند نفسي سرًا. أريد أن أقف وألقي كلمتي، كأنها محامي الادعاء وأنا محامي

الدفاع. لا يُفترض أن أشعر بهذا وأنا أسمع خطابًا يلقيه أحد أحبائي، أليس كذلك؟

ها هي ذي الحقيقة التي لن تقولها أمي: لو لم أعرف ما أردت، ولم أكتشف كيف أحصل عليه، فلم أكن لينتهي بي المطاف لأي شيء. كان عليَّ أن أتعلم كيف أشق طريقي لأن أمي لم تقدم لي أي مساعدة. أنظر إليها، إلى ردائها من الشيفون الأسود الشفاف المنتفش -كأنه معاكس لثوب العروس- وقرطيها المتلألئين وكأس الشمبانيا اللامعة في يدها، وكل ما أفكر فيه هو: «أنتِ لم تحظي بهذا. هذه ليست لحظتك أنت. لم تتعبي في بنائها. أنا من بنيتها رغمًا عن أنفك».

أحكم قبضتي على حافة الطاولة بيدٍ واحدة، أشد عليها بكل قوة، أثبّت نفسي. وبالأخرى أرفع كأس الشمبانيا وأزدرد جرعةً كبيرة. يدور في عقلي: «قولي إنك فخورة بي. وكل شيءٍ بعدها سيكون بخير. قوليها، وسأسامحك».

تقول أمي ويدها تلمس عظام صدرها: «قد يبدو ما سأقوله غرورًا قليلًا، لكن عليَّ الإقرار بأنني فخورة بنفسي لأنني ربيت ابنةً فولاذية الإرادة ومستقلة مثلك». ثم تنحني انحناءةً قصيرة كما لو أن أمامها جمهورًا محبًا. الكل يصفق أداءً للواجب بينما تجلس.

أرتجف غضبًا. أنظر إلى كأس الشمبانيا في يدي. وأتخيل، لثانية لذيذة محمومة واحدة، أن أرفعها وأحطمها على المائدة، وأوقِف كل ما يدور. أستنشق نفسًا عميقًا. وبدلًا من تكسيرها أرفعها لأقدّم نخبي. سأكون لطيفة وممتنة وودودة.

أقول: «شكرًا جزيلًا لحضوركم».

أناضل كي تخرج نبرتي دافئة. إنني معتادة على إلقاء الخطابات على مسامع موظفاتي وأعمل على المحافظة على نبرة السلطة في صوتي. أعرف أن بعض النساء يشتكين من عجزهن في أن يؤخذ حديثهن على محملٍ جديٍّ. أما أنا، فصدق أو لا تصدق، أعاني عكس المشكلة. ثملتْ مرةً إحدى موظفاتي، إليزا، في حفل الكريسماس وأخبرتني بأن وجهي ينضح لؤمًا. تركتُ الأمر يمر لأنها كانت ثملةً ولن تتذكر قولها هذا في الصباح. لكن طبعًا لم أنسه قط.

أقول: «إننا سعيدان للغاية باستضافتكم جميعًا هنا (أبتسم. أحمر شفاهي شمعي ومتحجر على شفتيَّ) أعرف أنكم قطعتم طريقًا طويلة للوصول إلى هنا... وطبعًا من الصعب إيجاد وقتٍ وسط كل المشاغل. لكن من اللحظة التي لفت هذا المكان انتباهي، عرفت فورًا أنه مثاليٌّ لكلينا. مناسب لويل لأنه محب للمغامرات، ولي كإشارةٍ لأصولي الأيرلندية (أنظر إلى أبي وأبتسم) ورؤيتكم جميعًا مجتمعين هنا -القريب منكم والعزيز- هو أمر يعني لي الكثير. لكلينا».

أرفع كأسي نحو ويل الذي يرفع كأسه في المقابل. إنه يؤدي هذه الأمور أفضل مني بكثير، يفيض سحرًا ودفئًا دون محاولةٍ حتى. في وسعي جعل الناس يفعلون ما أريد، هذا أكيد. لكني لم أقدر دائمًا على جعلهم يحبونني. ليس بالطريقة التي يتمكن منها خطيبي. يبتسم لي، يغمز، ثم أجدني أتخيل تتمة ما بدأناه سابقًا، في غرفة نومنا...

أقول مستعيدةً تركيزي: «لم أصدق أن هذا اليوم سيأتي قط؛ كنت منهمكةً في العمل في المجلة خلال السنوات الأخيرة، وظننت أنني لن أحظى بالوقت مطلقًا لأقابل أحدًا».

يقول ويل: «لا تنسي! لقد بذلتُ جهدًا جهيدًا لأقنعك بالخروج معي».

إنه محق. كان رائعًا كأنه أتى من عالمٍ خياليٍّ. أخبرني بعدها أنه أنهى علاقةً سيئة من فترةٍ وجيزة ولا يسعى لأي شيءٍ بالمثل.

- أنا سعيدة لأنك فعلت.

أبتسم له. ما زلت أشعر وكأنها معجزة، سرعة وسلاسة ما حدث. ثم أقول: «لو كنتُ مؤمنةً بالقدر، فحتمًا كنت سأظن أنه هو من جمَّعنا».

يجيبني ويل بابتسامةٍ مشرقة. تتشابك نظراتنا، وكأن لا أحد غيرنا هناك. ثم فجأةً ودون مقدمات، أفكر في الرسالة اللعينة. وأشعر بالابتسامة تضطرب على شفتيَّ.

چونو

الإشبين

الظلمة حالكة في الخارج. يملأ الغرفة الدخان المتصاعد من النيران، لذا يختلف شكل الجميع، حواف أجسادهم غبشاء. ليست صورهم الطبيعية.

نتناول الطبق الثاني، فطيرة بشكولاتة داكنة مزعجة. أحاول قطعها فتفلت من الطبق، ويتناثر فتاتها في كل مكان. يقول دنكن ساخرًا من أقصى طرفٍ في المائدة: «هل أنت بحاجةٍ إلى شخصٍ يقطّع لك طعامك يا صغيري؟». أسمع ضحكات الرجال الآخرين. كأن شيئًا لم يتغير. أتجاهلهم.

تلتفت هانا إليَّ وتسأل: «إذن يا چونو... هل تعيش في لندن أيضًا؟».

هانا تعجبني، حسمت أمري. تبدو لطيفة، وتعجبني لكنتها الشمالية والقرطان في أذنيها اللذان يمنحانها مظهر فتاةٍ تحب الحفلات، رغم أنها في الواقع أمٌّ لطفلين. أراهِن على أن في وسعها إطلاق جموحها متى ما أرادت.

أجيبها: «يا إلهي! لا! إنني أكره المدن. ولا أحب الابتعاد عن الريف في أي يوم. أحتاج إلى المساحة لأتجول بحُرية».

تسأل هانا: «أنت أيضًا تحب الحياة في العراء؟».

أقول: «نعم، يمكنك قول هذا. اعتدتُ العمل في مركز مغامراتٍ في ليك ديستريكت. أعلّم التسلق وحرف العيش في البرية وكل هذا».

- رائع! أظن أن الأمر هكذا يبدو منطقيًا لأنه أنت من نظّم حفل عزوبية ويل، صحيح؟

تبتسم لي. أتساءل مقدار ما تعرفه عنها.

أجيبها: «نعم، كان أنا».

- لا يخبرني تشارلي الكثير عنها. لكن سمعتُ أنها تضمنت تجديفًا وتسلّقًا وكل هذا.

آها، لم يخبرها إذًا أي شيءٍ مما حدث. لستُ متفاجئًا. لم أكن لأفعل إن كنت مكانه بالمناسبة. كلما قلّ ما يقال عنها كان أفضل. آمل أن يقرر نسيان الأمر برمته ووضعه أسفل السجادة. لم تكن فكرتي أساسًا.

أكمل: «بالضبط، نعم. أحب هذه النشاطات منذ وقتٍ طويل».

يقاطعنا فيمي: «نعم. كان چونو هو من اكتشف كيف نتسلق الجدار لنصل إلى سطح قاعة الرياضة. وأنت من تسلقت الشجرة التي كانت خارج غرفة الطعام، أليس كذلك؟».

يقول ويل لهانا: «يا إلهي! لا تسمحي لهم بأن يبدؤوا الحديث عن أيام المدرسة. لن تصلي إلى نهايته أبدًا».

تبتسم هانا لي: «يبدو أن بوسعك أن تحظى بمسلسلك الخاص يا چونو».

أقول: «حسنًا، ليس غريبًا قولك لأنني حاولتُ بالفعل تأدية تجربة أداء».

تسأل هانا: «فعلًا؟ لصالح مسلسل النجاة من الليل؟».

- نعم (آه يا إلهي! لمَ نطقتُ من البداية؟ يا لغبائك يا چونو، كل ما أتفوه به حماقة. رباه، الأمر مهين) نعم، صحيح.. أجروا تجربة أداءٍ لكلينا، ثم...

قال ويل: «ثم قرر چونو أنه ليس مستعدًا لكل هذا الهراء، أليس كذلك؟».

محاولة لطيفة منه لأن يحفظ ماء وجهي. لكن لا جدوى للكذب الآن، ربما عليَّ أن أقولها. لذا أقول: «إنه يلعب دور الصديق الصدوق، الحقيقة هي أن تمثيلي كان شنيعًا. لقد أخبروني أساسًا أنني لن أصلح على الشاشة. لستُ ببراعة صاحبنا هنا... (أميل وأعبث بشعر ويل، فيفلت مني ضاحكًا) أعني، إنه على حق. لم يكن مناسبًا لي. لم أكن لأتحمل كل تلك المساحيق التي يلطخونك بها أو الملابس التي يجبرونك على ارتدائها. لا أعني وكأن هناك أي غرابةٍ فيما تفعل يا صاحبي».

يقول ويل ويداه مرفوعتان عاليًا: «ليست إهانةً تمامًا».

إنه على سجيته تمامًا على الشاشة. يتحلّى بتلك القدرة ليكون أي شخصٍ يودّه الناس أن يكونه. لاحظتُ في البرنامج أنه يغير لكنته ليبدو منتميًا أكثر «لعامة الناس». لكن حين يكون بصحبة الفتيان الراقين خريجي المدارس الخاصة، فتيان أتوا من أفضل المدارس التي تفضي مدرستنا هذه، التي التحق بها كلانا، فإنه يتحول ويصبح واحدًا منهم، مئة بالمئة منهم.

أقول لهانا: «على أي حال. إنه قرار منطقيٌّ. من سيرغب في رؤية هذه السحنة البشعة على التلفاز، هه؟». أمثّل حركةً بوجهي. ألمح چولز تشيح بنظرها عني كما لو أنني عريتُ حالي. متعجرفة بغيضة!

تسأل هانا: «إذن من أين استلهمت فكرة المسلسل يا ويل؟».

إنني ممتن لها لأنها تحاول تحريك المحادثة بعيدًا عني، تعفيني من مهانةٍ أكثر.

يقول فيمي: «صحيح، كنت أتساءل عن هذا أنا أيضًا. أكانت لعبة النجاة؟».

تلتفت هانا ناحيتي: «لعبة النجاة؟».

يشرح فيمي: «لعبة كنا نلعبها في المدرسة».

تقتحم جورجينا زوجة دنكن الحوار: «أوه يا إلهي. أخبرني دنكن حكاياتٍ عنها. أمور بشعة بحق. حكى لي عن أولادٍ يُجَرون من أسرّتهم ليلًا ويلقى بهم في العراء...».

يقول فيمي: «صحيح. هذا ما حدث. كانوا يختطفون فتى يصغرهم سنًا من سريره ويأخذونه بعيدًا عن المدرسة قدر استطاعتهم، إلى أعماق الغابة».

يضيف آنجس: «كانت غابةً شاسعة. ووسط العراء. في الظلام الدامس. لا يأتي ضوء من أي مكان».

تقول هانا بعينين مفتوحتين على وسعهما: «شيء همجيٌّ».

يقول دنكن: «كانت تقليدًا مهمًا، اتبعوه منذ مئات السنين، منذ تأسست المدرسة».

يقول فيمي ملتفتًا إلى ويل: «لم يضطر ويل إلى فعلها قط، أليس كذلك يا صاحبي؟».

يرفع ويل ذراعيه عاليًا: «لم يأتِ أحد مطلقًا لأخذي».

يقول آنجس: «صحيح، لأن كلهم كانوا مرتعبين من أبيك».

يسترسل فيمي متحدثًا إلى هانا: «يكون الفتى معصوب العينين في البداية كي لا يعرف مكانه. أحيانًا يقيد في شجرة أو سياج، وعليه أن يحرر نفسه. أتذكّر حين اختُطِفتُ أنا...».

ينهي دنكن جملته: «بللتَ سروالك».

يجيب آنجس: «لا، لم أفعل».

يقول دنكن: «بل فعلت! لا تظن أننا نسينا ذاك. يا ذا السروال المبلل».

يزدرد آنجس الشراب من كأسه: «طيب. حدث هذا، الكثير منهم فعلها. كان الأمر مروعًا بحق الجحيم».

أتذكّر نجاتي. رغم أن الواحد يعرف أنها ستحدث عاجلًا أم آجلًا، لا شيء أبدًا يعدّك للتجربة حين يأتون لأخذك فعلًا.

تقول جورجينا: «الأمر الجنوني هو أن دنكن لا يراه فعلًا مريعًا (تستدير نحوه) أليس كذلك يا عزيزي؟».

يقول دنكن: «إنها التجربة التي شكّلتني».

أنظر إلى دنكن، جالسًا هناك ويداه في جيبيه وصدره منتفخ، كأنه ملك على كل ما تحط عيناه عليه، كأنه يمتلك المكان برمته. وأتساءل على أي شاكلةٍ شكّلته بالضبط.

تقول جورجينا: «أظنها كانت لعبةً بريئة.. ليس وكأن أحدًا مات بسببها، أليس كذلك؟». تضحك ضحكةً خفيفة.

أتذكّر أنني استيقظت، أسمع همساتٍ في الظلام من حولي: أنت ثبِّت ساقيه... وأنت تولَّ رأسه. ثم ضحكاتهم وهم يطرحونني أرضًا ويربطون العصابة حول عينيَّ. ثم الأصوات. صياح وهتاف مبتهج ربما، لكن والعصابة تغطي أذني كانوا بالحيوانات أشبه، عواء وزعيق. ثم أتى هواء الليل، يضرب قارسًا على قدميَّ العاريتين. صلصلة سريعة على أرض غير مستوية -أظنهم حملوني على عربة يد- امتدت لوقتٍ طويل حتى ظننت أنني غادرت أرض المدرسة. ثم تركوني هناك، في الغابة، وحيدًا تمامًا. لا شيء يُسمع سوى نبض قلبي والخشخشة من حولي. رفعت العصابة عن عيني ووجدت ظلامًا

حالكًا، حتى لا قمر أرى على نوره. أغصان الأشجار خدشت وجهي، الأشجار قريبة من بعضها بعضًا للغاية حد أنني شعرت أنه لا فاصل بينها، كأنها تضغط على بعضها بعضًا فيما بينها. البرد قارس، شعرت بطعمٍ معدنيٍّ مثل الدم في حلقي، سمعت طقطقة الأغصان المتكسرة أسفل قدمي. سرت لأميال، في دوائر على الأغلب. قضيت الليل بطوله أجول الغابة حتى حلّ الشروق.

حين عدت إلى مبنى المدرسة، شعرت أنني ولدت من جديد. اللعنة على المعلمين الذين أخبروني بأنني لن أفلح في شيء. وكأن في وسعهم النجاة ليلة كاملة مثل تلك. شعرت أنني لا أقهر. أن بوسعي فعل أي شيء.

يقول ويل: «چونو، كنت أقول إنني أظن أنه حان وقت الإفصاح عن الويسكي خاصتك. لنجربه». وثب من على المائدة وراح يحضر إحدى الزجاجات.

تقول هانا: «أوه! هل لي أن ألقي نظرة؟ (تتناول الزجاجة من ويل) يا له من تصميمٍ رائعٍ يا چونو. هل تعاونت مع شخصٍ ما عليه؟».

أجيبها: «نعم. لدي صديق في لندن يعمل مصمم جرافيك. لقد أبلى بلاءً حسنًا، أليس كذلك؟».

تقول وهي تومئ، متعقبةً الخط بيدها: «فعلًا، فعلًا. هذا هو عملي. إنني رسّامة، تعلمتُ بالتدريب. أشعر كأنه حدث منذ زمنٍ. إنني في إجازة أمومةٍ دائمة».

يقول تشارلي: «هل لي أن ألقي نظرة؟ (يتناولها منها ويقرأ الملصق مقطبًا وجهه) حتمًا لديك شريك يملك مصنعًا للتقطير؟ لأنه مكتوب هنا أنها مُعتّقة من اثني عشر عامًا».

أقول: «نعم (أشعر كأنه يحقق معي، أو أنني أخوض لمتحانًا. كأنه يحاول إمساك غلطةٍ عليَّ. ربما هي سمة لها علاقة بعمله معلمًا) لديَ شريك».

يقول ويل وهو يفتح الزجاجة بإيماءةٍ متباهية: «حسنًا. لنقطع الشك باليقين! (ينادي على من في المطبخ) إيفا... فريدي، هلّا جلبتما لنا مزيدًا من كؤوس الويسكي رجاءً؟».

تأتي إيفا حاملةً عدةً منها على صينية.

يقول ويل: «لتحضري كأسًا لك أيضًا، ولفريدي. جميعنا سنجربه. (يتحدث وكأنه عمدة المدينة. تحاول إيفا أن تهز رأسها رفضًا) إنني مُصر».

يأتي فريدي مترنحًا ليقف بجوار زوجته. يُبقي عينيه لأسفل ويلهي نفسه بتحريك رباط مئزره بينما يقف كلاهما هناك في ارتباك. يحرك دنكن شفتيه لنا دون أن ينطق: «غريب الأطوار!». ربما من مصلحة الرجل أن يُبقي عينيه على الأرض.

أتفحص إيفا. ليست كبيرةً في السن كما ظننت في البداية، ربما هي في الأربعين من عمرها أو نحوه. إنها ترتدي ملابس المسنين فحسب. وهي جميلة أيضًا على نحوٍ مهذب. أتساءل عما تفعله بصحبة زوجها الخروع هذا.

يصب ويل بقية الويسكي. تطلب چولز قطراتٍ منه: «لستُ من محبي الويسكي للأسف». ترتشف رشفةً وأرى وجهها يمتعض قبل أن تتمكن من إخفائه بوضع يدها على فمها. لكن اليد لا تفعل شيئًا سوى جذب الانتباه لها. وهو ربما، إن فكرت في الأمر، ما قصدته فعلًا. واضح وضوح الشمس أنها لا تستلطفني.

يقول دنكن: «إنه ممتاز يا صاحبي. يذكّرني مذاقه بويسكي لافرويج». أثق بدنكن لخبرته في الويسكي.

أقول: «صحيح. أظن ذلك».

تترك إيفا وفريدي كأسيهما بسرعةٍ قدر الإمكان ويتسحبان عائدَين للمطبخ. أتفهم هذا. كانت أمي تعمل في نادٍ ريفيٍّ محليٍّ، ذاك النوع من الأماكن التي ربما يمتلك أبوا آنجس ودنكن عضويةً لدخولها. تقول إن لاعبي الجولف يحاولون أحيانًا ابتياع شرابٍ لها أحيانًا، ظنًا منهم أنهم يتصرفون بكرمٍ معها، لكنها كانت تشعر بشعورٍ مريبٍ لا أكثر.

تقول هانا: «إنه لذيذ للغاية! إنني متفاجئة. عليَّ أن أخبرك يا چونو بأنني لا أستطيب الويسكي عادةً». ترتشف رشفةً أخرى.

تقول چولز: «إن ضيوفنا محظوظون بشدة». تبتسم لي. لكن تعرف ما يقال عن أن عينَي المرء لا تبتسمان؟ هذه هي، عيناها لا تبتسمان.

أبتسم لهم جميعًا بملء شدقيَّ. لكني منزعج قليل. أفكر في كل الحديث الذي جرى حول تقاليد لعبة النجاة. من الصعب أن أذكّر نفسي أنها كانت من وجهة نظرهم -لكل طلاب تريفليان السابقين- مجرد لعبة.

أتمعن في ويل. تسترخي يداه خلف رأس چوز ويوزع ابتساماتٍ واسعة على الجميع. كأنه رجل يمتلك كل شيءٍ في الحية. وهو كذلك على ما أظن. ثم أفكر: «ألا يحرك به شيئًا أيضًا، كل ذلك الحديث عن الأيام الخوالي؟ ولا حتى أقل القليل؟».

عليَّ أن أخرج نفسي من هذا المزاج الغريب. أندفع إلى وسط المائدة وأمسك بقارورة الويسكي. ثم أقول: «أظنه حان الوقت لنلعب لعبة بالشرب!».

تقول چولز: «آآ..»، ربما على وشك أن ترفضها، لكن صوتها يغرق وسط صيحات الموافقة من الرجال.

يصرخ آنجس: «هيا! لعبة الورق؟».

يقول فيمي: «نعم، كما كنا نلعبها في المدرسة. تتذكرون يوم شربنا ليسترين، غسول الفم؟ لأننا عرفنا أنه يحتوي على خمسة عشر بالمئة كحولًا؟».

يقول آنجس: «أو تلك الڤودكا التي هرّبتها يا نك».

أقول متوثبًا من على المائدة: «بالضبط. سأحضر البطاقات». أشعر شعورًا أفضل الآن بما أني عثرتُ على غايةٍ أشتت بها نفسي.

أدخل المطبخ وأجد إيفا واقفة تواجهني بظهرها، تراجع قائمةً معلقةً على لوحٍ بمشبك. تجفل فزعةً حين أسعل.

أقول: «إيفا يا حبيبتي، هل معك مجموعة من الطاقات؟».

تجيبني وتخطو خطوةً بعيدًا عني كما لو أنها تخافني: «نعم. بالطبع. أظن أن هنالك واحدة في المرسم». لكنتها لطيفة. لأيرلنديات يرُقن لي دومًا. يجعلني نطقهن المرقق أبتسم.

زوجها واقف هناك أيضًا، يشغل نفسه بالفرن.

أسأله وأنا في انتظار إيفا: «تحضّر أشياء الغد؟».

يجيب دون أن يرفع عينيه: «ممم». أفرح حين تعود إيفا بعد لحظةٍ ومعها البطاقات.

أعود للمائدة وأوزّع البطاقات على الآخرين.

تقول والدة چولز: «إنني ذاهبة لأحصل على قسطٍ من النوم كي أحافظ على نضارة بشرتي. كما أنني لا أحب المشروبات القوية أبدًا».

رأيت چولز تحرك فمها: «ليس صحيحًا!» ثم يستأذن والد چولز وزوجة الأب الفرنسية المثيرة كذلك.

تقول هانا: «ولا أنا أيضًا (تنظر إلى تشارلي) لقد كان يومنا طويلًا، أليس كذلك يا حبيبي؟».

يجيب تشارلي: «لا أدري...».

أقول لتشارلي: «هيا! تشجّع يا فتى. ستكون لعبةً ممتعة! عِش قليلًا».

لا يبدو أنه اقتنع.

انفلتت الأشياء من عقالها قليلًا في حفل توديع العزوبية. لم يلتحق تشارلي المسكين بمدرسةٍ مثل مدرستنا، لذا لم يكن مهيأً لها فعلًا. إنه ليس سوى... مدرس جغرافيا. شعرتُ وكأنه ذهب إلى مكانٍ مظلمٍ تلك الليلة. أظن أن أي أحدٍ مكانه كذلك كان هكذا سيشعر. قضى بقية العطلة دون أن يتبادل مع أيٍّ منا كلمة واحدة تقريبًا.

كان الأمر يدور حول لمّ الشمل مع شلّة الرجال هذه. معظمهم درس في تريڤيليان. ذاك المكان هو ما يربطنا معًا. ليس مثل رابطتي أنا وويل، هذا يشملنا وحدنا. لكن تقيدنا أشياء أخرى. الطقوس، الآصرة الرجولية. حين نجتمع معًا تحركنا عقلية القطيع. يسوقنا الحماس وننسى أنفسنا.

هانا

المُرافِقة

غدوتُ منذ حادثة البنس تلك شديدة الاحتراس من أصدقاء العريس. يتضح أكثر كلما أفرطوا في الشرب، شيء مظلم وقاسٍ يتخفى أسفل آداب المدارس الراقية. وأشد ما أبغض الآن هو أن زوجي يتصرف مثل مراهق يسعى لأن يُقبل في شلّتهم.

يقول چونو: «حسنًا. هل الكل مستعد؟». يدير نظره حول المائدة. اكتشفتُ ما الغريب في عينيه. إنهما غامقتان بشدةٍ لدرجة أنك تعجز عن تحديد أين تنتهي القزحية وأين تبدأ الحدقة. تمنحانه مظهرًا غريبًا أجوف، لذا حين يضحك فكأن عينيه لا تجاريانه في الضحك. باقي قسمات وجهه مفرطة في تعبيراتها مقارنةً بعينيه، تتحول كل بضع ثوانٍ وفمه كبير ومعبّر. تحيطه تلك الطاقة الجنونية. آمل ألا ضرر منها. إنه مثل كلبٍ ضخمٍ ومخيفٍ سيقفز عليك، لكن كل ما يريده فعلًا هو أن تلقي له الكرة، لا أن يفترسك.

ينادي چونو: «تشارلي، هل ستنضم إلينا؟».

أهمس في محاولةٍ لأن ألتقي عينَي زوجي: «تشارلي...».

لم ينظر تجاهي طيلة المساء إلا قليلًا، إنه منهمك تمامًا مع چولز أو في محاولةٍ ليكون واحدًا من الشباب. لكني أرغب أن أفهمه.

تشارلي رجل لين سهل؛ صوته لا يرتفع إلا ندرًا، ولا ينزعج من الطفلين بتاتًا. إن نالا زجرًا فيأتي عادةً مني. لذا فهو لا يتحول لنسخةٍ أكثر انفعالًا من نفسه حين يثمل، أو أن الكحول يضخّم خصاله السيئة. لا يتسم في الحياة العادية بكثيرٍ من الخصال السيئة. من المحتم أن غضبه كامن بداخله،

يتربص أسفل السطح. لكني أقسم إن زوجي كان في المرات التي رأيتُه فيها ثملًا كأن شخصًا ثانيًا تلبّسه. هذا تحديدًا ما يزيد قلقي قلقًا. تعلمت بمرور السنوات أن أبصر العلامات الأتفه على الإطلاق. ارتخاء فمه البسيط، تدلّي جفنيه. كان عليَّ تعلّمها لأنني أعرف أن المرحلة التالية لن تكون لطيفة. إن الثمالة تشبه فراقيع صغيرة تتفرقع بغتةً في عقله.

أخيرًا يلتفت ببصره ناحيتي. أهز رأسي، برويةٍ وحذر كيلا يخطئ فهم مقصدي. لا تفعلها.

يزعق دنكن: «ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟ (يا إلهي، رآني أشير له. يستدير إلى تشارلي) أهي تحاول التحكم فيك يا ولد؟».

تحمر أذنا تشارلي بشدة. يقول: «لا! طبعًا لا. نعم، أنا معكم».

اللعنة. إنني في حيرةٍ بين أن أبقى لأحاول منعه من فعل أي شيءٍ أحمق، أو أن أتركه يفعل ما يحلو له ويكون على سجيته أيًا كانت العواقب. خاصةً بعد كل هذا الغزل الفج المتبادل مع چولز.

يقول چونو: «سأوزع البطاقات».

يقول دنكن واقفًا ومصفقًا بيده: «مهلًا! علينا أن نؤدي شعار المدرسة أولًا».

يوافقه فيمي ويقف جواره، وينضم إليهما آنجس: «ويل، چونو، تعاليا. لأجل الأيام الخوالي».

ينهض چونو وويل.

أنظر إليهم... كلهم، باستثناء چونو، أنيقو الملابس، يرتدون قمصانًا بيضاء وبناطيل سوداء وتحيط ساعات باهظة الثمن بمعاصمهم. أتساءل لمَ، بحق السماء، هؤلاء الرجال الذين واضح أن حياتهم تسير على أكمل ما يرام لا يزالون شديدي الهوس بأيامهم في المدرسة؟ لا أتخيل نفسي مندمجةً في الحديث عن مدرسة دنراڤن الثانوية العتيقة البشعة. لم أكن ضغينةً لها لكنها كذلك ليست مكانًا أفكر فيه بهذا القدر. مثل أي شخصٍ آخر، غادرتُها بقميصٍ خربشت عليه التوقيعات ولم أنظر إلى الوراء ثانيةً قط. لم يغادر هؤلاء الفتيان

المدرسة عند الثالثة مساءً لمشاهدة هولي أوكس، حتمًا قضوا وقتًا طويلًا من طفولتهم محبوسين في ذاك المكان.

يبدأ دنكن قرع المائدة بقبضة يده. يدير نظره إليهم مشجعًا الآخرين للانضمام إليه. ويفعلون. يغدو قرع الطبل أعلى وأعلى بالتدريج، ثم تتزايد سرعته وهياجه.

يغني دنكن بلغةٍ أظنها اللاتينية: «Fac fortia et patere».

ويتبعه الآخرون: «Fac fortia et patere».

ثم غنوا في همهمةٍ خفيضةٍ ذات دلالة:

«Flectere si nequeo superos,

Acheronta movebo.

Flectere si nequeo superos,

Acheronta movebo!».

أراقب الرجال، أراقب لمعان أعينهم على ضوء الشموع المرتعش. وجوههم محمرة، يضجون بالحماس والثمالة. أشعر بوخزةٍ أعلى عمودي الفقري. مع الشموع والظلمة المحيطة بالنوافذ وإيقاع غنائهم، والطبل، أشعر فجأةً وكأنني أشاهد طقسًا شيطانيًا. إنها تبث تأثيرًا متوعدًا، عشائريًا. أضع يدي على صدري وأشعر بقلبي ينبض بقوةٍ شديدة، مثل قلب حيوانٍ مذعور.

يستفحل قرع الطبل حتى يصل ذروته، حتى يهتاج هياجًا يجعل الأطباق والسكاكين وكل أدوات المائدة تتواثب في أرجاء المكان كله. تدحرجت كأس من مكانها في زاوية المائدة حتى سقطت متهشمةً على الأرض. لا أحد سواي يلقي لها بالًا.

«Fac fortia et patere!

Flectere si nequeo superos,

Acheronta movebo!»

ثم، وأخيرًا، حين أشعر أنني عاجزة عن تحمُّل الصوت وقتًا أطول، يجأرون معًا ويتوقفون. يحدقون إلى بعضهم بعضًا. جباههم تتفصد عرقًا. حدقات

أعينهم متسعة وكأنهم تعاطوا جرعةً من شيءٍ ما. كأن ضبعًا ضخمًا يضحك الآن، بأنيابٍ كاسرة، يصفعون بعضهم بعضًا على ظهورهم ويتبادلون لكماتٍ تؤلم بما فيه الكفاية. ألاحظ أن چونو لا يضحك بشدةٍ مثل بقيتهم. ابتسامته ليست مقنعةً بطريقةٍ ما.

تسأل جورجينا: «لكن ما معناها؟».

يقول فيمي متعثمًا: «آنجس، أنت المهووس باللاتينية».

يقول آنجس: «يقول الجزء الأول: «اختر من الأفعال أشجعها وتجلّد»، وهو ما كان شعار المدرسة. أضفنا نحن الأولاد جزءه الثاني: «إن كنت عن تحريك الجنان عاجزًا، فلأشعلنّ الجحيم». كنا نغنيها قبل مباريات الرجبي».

يقول دنكن بابتسامةٍ بذيئة: «وبقيتها».

تقول جورجينا: «إنها تفوح بالوعيد». لكنها تحدق إلى زوجها المحمر المتعرق وذي العينين الوحشيتين كأنها لم تنجذب له يومًا قط.

- هذا هو المغزى نوعًا ما.

يصرخ چونو: «صحيح يا سيدات. حان الوقت لنتوقف عن الهذر ونبدأ الشرب».

علت زمجرة تعلن الاتفاق من بقيتهم. مزج فيمي ودنكن الويسكي مع النبيذ ومع صلصةٍ من بواقي الطعام والملح والفلفل، فتكوّنت شوربة بُنية مقززة. ثم بدأت اللعبة، كلهم في وقتٍ واحدٍ يضربون المائدة بأيديهم ويصرخون بكل قوتهم.

كان آنجس أول الخاسرين. انسكب مزيج ما شربه على بياض قميصه الناصع، فحال لونه بُنيًّا. هتف بقيتهم بضحكاتٍ ساخرة.

يصرخ دنكن: «يا غبي! معظمه ينسال على عنقك».

يبتلع آنجس الجرعة الأخيرة، أخرس. عيناه تجحظان.

ويل التالي. يتجرعه ببراعة خبير. أراقب عمل عضلات حلقه. يقلب الكأس رأسًا على عقب عاليًا قرب رأسه ويبتسم ملء فِيه.

ثم يأتي دور من انتهى به الأمر وهو معه كل البطاقات: تشارلي. ينظر إلى كأسه ويأخذ نفسًا عميقًا.

يصرخ دنكن: «هيا يا جبان!».

لا أقدر على رؤية هذا. ليس عليَّ أن أرى هذا. تشارلي يا غبي! كان يفترض أن تكون هذه عطلتنا، وحدنا معًا. إن أراد أن يجعل من نفسه فرجةً فليتحمل العواقب اللعينة. إنني زوجته، ولست أمه. أنهض.

أقول: «إنني ذاهبة لأنام. تصبحون على خير».

لكن لا يجيبني أحد، ولا واحد رنا بنظره ناحيتي حتى.

أدخل مندفعةً من حجرة المرسم إلى الباب المجاور وبينما أمضي في طريقي أقف فجأةً من الصدمة، شخص ما يجلس على الأريكة في الظلام. بعد لحظةٍ أدرك أنها أوليڤيا. أقول: «أوه.. مرحبًا».

ترفع بصرها. تبرز ساقيها الطويلتين أمامها، وقدماها حافيتان: «أهلًا».

- اكتفيتِ من الضجيج في الخارج؟

- نعم.

أقول: «وأنا كذلك». أسألها: «هل ستسهرين قليلًا؟».

تهز كتفيها بلا مبالاة: «لا فائدة من النوم على أي حال. غرفتي مجاورة لهذا!».

وكأنهم كانوا في انتظار الإشارة، علا انفجار ضحكاتٍ ساخرة آتٍ من المرسم. أحدهم صرخ: «اشربه. اشربه كله، كله!».

ثم اندلع الهتاف: «اشربه، اشربه، اشربه»، ثم تحولوا فجأةً إلى: «ليحيا الجحيم، ليحيا الجحيم». وصوت المائدة تهشّم أسفل قبضاتهم. ثم شيء آخر يتشظى، كأس أخرى؟ صوت ثمل زعق: «چونو! أيها الأحمق اللعين!».

المسكينة أوليڤيا، عاجزة عن الهرب من كل هذا. أقف مترددةً في الردهة.

قالت أوليڤيا: «لا بأس. لستُ بحاجةٍ لأن يرافقني أحد».

لكن أشعر أن عليَّ البقاء معها. إنني مستاءة لأجلها. وأعرف فعلًا أنني أود البقاء بجوارها. أحببتُ الجلوس معها في الكهف والتدخين. كان هناك شيء مشوق حيال ما فعلنا، إثارة غريبة. أن أتحدث معها ومذاق التبغ على لساني، أستطيع أن أتخيل أنني عدتُ للتاسعة عشرة من جديد، وأن أحكي

عن الفتيان الذين عرفتهم، وليس عن كوني أمًا لطفلين وغارقةً في الديون من رأسي لأخمص قدمي. وأيضًا لا أنسى حقيقة أن أوليڤيا تذكّرني بشخصٍ ما. لكن لا أتذكّر من يكون. يؤرقني الأمر، مثل محاولة تذكُّر كلمةٍ ما وأنت تعي أنها عالقة على طرف لسانك، لكن لا تقدر على الإمساك بها.

أقول: «في الواقع، أنا لستُ متعبةً لهذه الدرجة. وليس عليَّ أن أستيقظ باكرًا صباح الغد لأتولى أمر طفلين مجنونين. في غرفتنا قليل من النبيذ.. بإمكاني أن أحضره».

تبتسم ابتسامةً صغيرةً لهذه الفكرة، أول ابتسامةٍ أراها. ثم تمد يدها خلف وسادة الأريكة وتسحب زجاجة ڤودكا تبدو باهظة الثمن. تقول: «سرقتها من المطبخ».

أقول: «أوه! هذا أفضل». إنها العودة للتاسعة عشرة من جديد فعلًا.

تناولني الزجاجة. أنزع غطاءها وأتجرع منها. إنها تحرق حلقي مندفعةً حتى آخره، أشهق: «رائع! لا أتذكّر آخر مرةٍ فعلتُ هذا (أناولها الزجاجة وأمسح فمي) انقطع حديثنا سابقًا، صحيح؟ كنتِ تحكين عن ذاك الفتى، كالوم؟ والانفصال».

تغمض أوليڤيا عينيها وتأخذ نفسًا عميقًا. تقول: «أظن أن انفصالنا كان مجرد البداية».

تأتي زمجرة عالية أخرى من الغرفة المجاورة. وأيادٍ أكثر تقرع الطاولة. والمزيد من الأصوات الخشنة الثملة تصرخ في بعضها بعضًا. ثم اصطدام على الباب، وآنجس يهوي عبره، بنطاله عند كاحليه، وعورته مكشوفة بفجاجة.

يقول بابتسامةٍ بذيئة ثملة: «عذرًا يا فتيات. لا تعبأن بي».

أنفجر: «بحق المسيح! غر من هنا... دعنا وشأننا!».

تنظر إليَّ أوليڤيا بإعجاب، كأنها ظنت أن شخصيتي لا تشمل هذا الجانب. أنا نفسي لم أكن أدري. لست أعرف منبعه بالضبط. ربما هي الڤودكا.

أقول: «تعرفين؟ ربما هذا ليس أفضل مكانٍ لتبادل الحديث، أليس كذلك؟».

تهز رأسها: «أيمكن أن نعود إلى الكهف؟».

- ممم...

لم أخطط للذهاب في رحلة استكشافية ليلية حول الجزيرة. وأنا على ثقة بأن التجوال ليلًا خطير في وجود السبخة وباقي الأشياء.

تقول أوليڤيا بسرعة: «انسي الأمر. أفهم هذا. إنه... إنه غريب. شعرتُ فقط بأريحية أكثر في الحديث هناك».

وفجأةً ينتابني الشعور الذي مر بي سابقًا. إثارة مريبة، شعور مخالفة القواعد. أقول: «لا. لنذهب. وأحضِري هذه الزجاجة».

نتسلل من القلعة من بابها الخلفيّ. إنه لمكان مريب بحق، بالأخص ليلًا. هادئ للغاية، عدا صوت تلاطم الأمواج على الصخور من مسافةٍ ليست ببعيدة. من حينٍ لحين تأتي تلك القرقعة الخشنة فتوقف الشعر على ذراعي. أدرك أخيرًا أن تلك الضوضاء حتمًا يصدرها طير ما في الأرجاء. واضح من صوته أنه طير ضخم.

وبينما نمضي في طريقنا، برزت أطلال البيوت في أشعة نور المصباح. تشبه النوافذ المعتمة المنفغرة محاجر عينٍ جوفاء، تبث شعورًا مروعًا وكأن أحدًا ما يقف فيها، ينظر منها، يراقب مرورنا. أسمع الأصوات تأتي من الداخل كذلك، خشخشة وصريرًا وخربشة. ربما هي الجرذان... لكن هذه ليست بفكرةٍ مطمئنة بالمثل.

أشعر بأشياء تتحرك حولنا ونحن نسير، تتحرك بسرعةٍ تعيقنا عن رؤيتها، ألحظها للحظةٍ مارقةٍ على نور القمر الواهن. شيء ما يطير قرب وجهي لدرجة أنني أشعر به يمس سطح وجنتي. أقفز للوراء وأضع يدي لأهشّه. خفاش؟ كان أكبر من أن يكون مجرد حشرة.

وبينما ننزل للكهف يظهر قوام أسود على الصخرة أمامنا، له هيئة إنسان. كنتُ سأسقط الزجاجة من يدي من وقْع الصدمة، وبعد حركةٍ أدركتُ أنه ظلي أنا.

إن هذا المكان كافٍ لحثّك على الإيمان بالأشباح.

الآن

ليلة الزفاف

شكّل أصدقاء العريس الأربعة دورية بحث. أخذوا علبة إسعافاتٍ أولية ونزعوا مشاعل البرافين الكبيرة من دعاماتها المثبتة عند المدخل لإنارته.

يقول فيمي: «تمام يا شباب، الكل مستعد؟».

شابتْ تحضيراتهم طاقة غريبة محمومة، كأنها استثارة لا تليق بالموقف الراهن. ربما شعروا أنهم كشّافة يستعدون للانطلاق في مهمةٍ جديدة، فتيان المدرسة الذين كانوا يومًا في خضم تحدٍ جسورٍ سريٍّ وسط الليل.

تجمهر بقية الضيوف حول بعضهم بعضًا يراقبون سير التحضيرات، مرتاحين أن تولي الأمر لم يعد مُلقى على عاتقهم، ومسموح لهم بالبقاء في النور والدفء.

كان أولئك الباقون في الصيوان، مراقبو الرحيل، أشبه بقرويي القرون الوسطى في مطاردةٍ للساحرات، مع المشاعل الملتهبة والحماس المتقد. أثرت الرياح وانقطاع الكهرباء الجو السريالي من حولهم. أخذ الاكتشاف العابق برائحة الموت والمنتظر خارجًا بُعدًا وهميًا، كأنه ليس حقيقيًا تمامًا. علاوةً عليه، كان صعبًا معرفة ما يصدقون، وإن كان فعلًا في مقدرتهم تصديق حديث مراهقةٍ هستيرية. لا يزال يأمل بعضهم أن كل ما يحدث لا يتجاوز كونه سوء فهمٍ فظيع.

في صمتٍ يراقبون المجموعة تتقدم عبر السدائل المرفرفة لمدخل الصيوان. يتلقفهم الليل المزمجر بكل قوته، حاملين مشاعلهم عاليًا في الهواء.

البارحة

أوليڤيا

وصيفة العروس

أتى البحر إلى الكهف، حرفيًّا يتلاطم برقةٍ عى أقدامنا، المياه سوداء كالحبر. إنه يجعل المكان أصغر وأخنق. اضطررتُ وهانا أن نجلس متلاصقتين أكثر من المرة الماضية، رُكبنا تتلامس وشمعة سرقناها من المرسم تقف أمامنا على صخرةٍ في فانوسها الزجاجيِّ.

الآن أفهم لمَ اسمه الكهف الهامس. غيّرت المياه العالية وقْع الأصوات هنا لدرجة أنه كلما قلنا شيئًا يعود لنا همسًا، كأن شخصًا ما يتوارى في الظلال ويكرر كل كلمة. من الصعب تصديق أن المكان خالٍ. أجد نفسي أتلفت لأتحقق بين كل حينٍ وحين لأتأكد أننا وحدنا. لا أرى هانا بوضوحٍ على نور الشمعة الباهت. لكن أسمع أنفاسها وأشم عطرها.

نمرر زجاجة الڤودكا بيننا. إنني ثملة قليلًا بالفعل، من العشاء. لم أقوَ على تناول الكثير، فراح النبيذ مباشرةً لرأسي. لكني بحاجةٍ لأثمل أكثر مما أنا عليه لأحكي لها، أن أكون ثملةً كفاية ليعجز عقلي عن منع تدفق الكلمات. وهو أمر سخيف، لأنني مؤخرًا أصبحتُ في أمس الحاجة لأحكي لأي أحدٍ عما حدث، حد أنني أشعر أحيانًا بأن الكلام سيتفجر مني دون مقدمات. لكن الآن وبما أنني وصلتُ إلى هنا، عُقِد لساني.

تتكلم هانا أولًا: «أوليڤيا».

يجيب الكهف همسًا: أوليڤيا... أوليڤيا... أوليڤيا.

تقول هانا: «يا إلهي، هذا الصدى... هل حبيبك السابق... هل فعل بك شيئًا؟ شخص أعرفه... (تتوقف. ثم تكمل ثانيةً) أختي، أليس. كان لديها حبيب وهي في الجامعة. وكان رد فعله على انفصالهما شنيعًا بحق. أقصد كان مروعًا، لن تتخيلي...».

أنتظر هانا لتكمل، لكنها لا تضيف شيئًا. بل تتناول الزجاجة مني وترتشف رشفةً طويلة، قرابة أربع كؤوس.

أقول: «لا، موقفي مختلف. صحيح أن كالوم كان أحمق بعض الشيء. أقصد ليس لطفًا منه أن يرتبط بإيلي على الفور هكذا. لكنه كان من قرر الانفصال، لذا لا، لم تكن تلك المشكلة. (آخذ الزجاجة منها وأزدرد الشراب بنهم. في وسعي تذوق طعم حمرة شفاهها على الحافة) حلّت إجازة الصيف حين انتهى الفصل الدراسي. وكنتُ أمكث في منزل چولز في إزلنجتون بينما هي كانت مسافرة للعمل عدة أيام».

أخاطب الظلمة والكهف يهمس كلماتي ويردّها لي. أجد نفسي أحكي لهانا عن الوحدة التي شعرتُ بها. كيف كنتُ في تلك المدينة الشاسعة التي فكرت كثيرًا في متعة الحياة بها، لكن أدركت أنه ما من أحدٍ معي لأشاركه هذه المتعة. حكيت لها عن مساء الجمعة، يوم ذهبت إلى سينزبريز (Sainsbury's) الواقع في نهاية الشارع حيث شقة چولز. اشتريتُ مقرمشاتٍ وحليبًا ورقائق الذرة لإفطار الصباح، حكيتُ لها عن عودتي للشقة سيرًا ومروري أمام كل الواقفين جوار الحانات، يشربون ويضحكون في الهواء الطلق. حكيتُ عن شعوري وقتها بأنني فتاة غريبة الأطوار مثيرة للشفقة، أحمل كيسًا برتقاليًّا في يدي وتنتظرني ليلة أمام نتفلكس. حكيت لها عن أنني في تلك اللحظات تحديدًا كنتُ أفكر في كالوم وعما قد تفعله معًا، وهذا ما جعل وحدتي أشد غورًا.

ما زلتُ لا أصدق أنني أخبرها بكل هذا وأنا لا أعرف عنها شيئًا سوى اسمها. لكن ربما هذا هو مربط الفرس. ربما، من بين كل الناس، هي الوحيدة التي في وسعي إخبارها، لأنها غريبة في الأساس. الڤودكا تؤدي واجبها بالطبع، وكذلك ظلمة المكان هنا لدرجة أنني أكاد لا أرى وجهها. حتى مع

ذلك، لا أظن أن في مقدرتي إخبارها بكل شيء. الفكرة ذاتها تخيفني. لكن ربما أبدأ من البداية، وأرى إن كنت، حين أخبرها بمعظم القصة، شجاعةً كفاية لإخبارها الأمر برمته.

أقول: «كنتُ منشغلةً بهاتفي، وعرفت أن كالوم مع إيلي. شاركتْ كل صورهما على سناب شات. كانت تجلس في حضنه في إحدى الصور. وفي أخرى تقبّله وهي ترفع إصبعها الأوسط أمام الكاميرا وكأنها لم ترغب أن يلتقط أحد الصورة... عدا أن اللعينة شاركتها بنفسها ليراها العالم كله بحق الجحيم».

تشرب هانا من الزجاجة وتزفر. تقول: «حتمًا رؤية هذا أشعركِ بشعورٍ مريع. يا إلهي، كل المسؤولية تقع على عاتق وسائل التواصل الاجتماعي».

أهز كتفيَّ: «نعم. شعرتُ... بالاستياء قليلًا».

لا أخبرها عن عدد المرات التي فتحتُ فيها هذه الصور كيلا أبدو مترصدةً مريبةً، لا أخبرها بأنني جلست هناك متشبثةً بكيس سينزبريز وأبكي بينما أحدق إليها. أقول: «أخبرني أصدقائي كثيرًا بأن عليَّ أن أستمتع بحياتي قليلًا، تعرفين، لأُري كالوم ما خسره. أصروا عليَّ بأن أسجل في تطبيقات المواعدة تلك، لكن لم أرغب في الإقدام على الأمر وأنا في الجامعة بما أنها ملأى بهذه البذاءة».

- ماذا؟ تطبيقات مثل تندر؟

أظنها تحاول أن توضح أنها متساهلة مع طفليها.

- صحيح، لكن لم يعد أحد يستخدم تندر الآن.

تقول: «آسفة. تذكّري، أنا ديناصور. ما الذي أعرفه أصلًا؟». قالته بنبرةٍ حزينة.

أخبرها: «لستِ كبيرةً لهذه الدرجة».

- طيب... شكرًا.

تلكز ركبتها ركبتي.

أرتشف رشفةً ثانيةً من الفودكا. وأتذكر تلك الليلة في شقة چولز شربتُ من نبيذها الذي جعلني أدرك أن كل ما نشربه في الجامعة بثلاثة جنيهات

للكأس من الحانات المحلية يشبه البول. أتذكّر كيف شعرتُ أنني غاية في الرقي وأنا أجول في الشقة مرتديةً ملابسي الداخلية وفي يدي إحدى كؤوسها الكبيرة. تخيلتُها شقتي أنا، أنني سأخرج وأعثر على رجلٍ آتي به إلى هنا وأمارس الحب معه. وهذا تحديدًا ما سيعلّم كالوم درسًا.

من الواضح طبعًا أنني لم أخطط لفعل هذا؛ لم أمارسه سوى مع شخصٍ واحدٍ فحسب، مع كالوم. وحتى تلك المرة كانت وديعةً للغاية.

أخبر هانا: «سجلتُ حسابًا. حسمتُ أمري بأن لندن مختلفة. في وسعي في لندن أن أخرج في موعدٍ ولن ينتشر خبره في الحرم الجامعي كله صباح اليوم التالي».

تقول هانا: «إنني منبهرة نوعًا ما، لم أكن شجاعةً في حياتي قط لأفعل شيئًا كهذا. لكن ألم تشعري، تعرفين... بالقلق على سلامتك؟».

أقول: «لا. لستُ حمقاء. لم أستخدم اسمي الحقيقي، ولا سني كذلك».

تومئ هانا: «آها. تمام». يصلني الانطباع بأنها لم تقتنع تمامًا بقولي وتحاول جاهدةً ألا تقول أي شيءٍ آخر.

كتبتُ أن عمري ستة وعشرون عامًا في الواقع. حتى الصورة الشخصية التي اخترتها لم تشبهني. فتشتُ خزانة چولز وارتديت من ملابسها، ووضعت مكياجًا مثاليًّا. لكن كان هدفي الأساسي ألا أظهر كما أنا.

أقول: «سمّيت نفسي بيلّا، مثل بيلّا حديد، تعرفينها؟».

أحكي لهانا أنني جلستُ على السرير، وقلّبت في صور الرجال حتى حرقتني عيناي. أقول: «معظمهم كانوا كبارًا في السن، يرفعون قمصانهم في الصالة الرياضية ويرتدون نظارات شمسية ليقولوا للعالم إنهم رائعون». كنتُ سأستسلم.

أخبر هانا: «لكن حصل تطابق مع ذاك الشاب، لفت نظري. كان... مختلفًا».

راسلتُه أولًا. كان نقيض عادتي لكني كنت مستثارةً من نبيذ چولز.

كتبتُ: «نلتقي؟».

أتى ردّه: «نعم، أود ذلك يا بيلّا. متى يناسبك؟».

- هذا المساء مناسب؟

مرت فترة صمتٍ طويلة. ثم كتبتُ: «لا تهدر وقتي. لستُ متفرغةً سوى هذا المساء، إنني مشغولة لأسابيع قادمة». أعجبني وقْع هذا. كأن عندي أمورًا أهم منه.

أجابني: «حسنًا. نحن على موعدٍ إذن».

تسأل هانا ويدها تسند ذقنها: «كيف كان؟».

تبدو منبهرة وهي تنظر إليَّ من كثب.

- كان مثيرًا على الطبيعة أكثر من الصور. ويكبرني قليلًا.

- بفارق كم سنة؟

- ممم... ربما خمس عشرة؟

- تمام (أهي تحاول أن تُخفي صدمتها؟) وكيف كان؟ حين التقيتما؟

أعود بتفكيري للوراء. من الصعب تذكُّره كما ظهر في البداية: «ظننتُه مثيرًا. و... بدا مثل رجلٍ فعلًا. جعل كالوم في نظري مثل صبي».

كتفاه كانتا عريضتين وكأنه يتدرب بانتظام، وكان أسمر سمرةً طبيعيةً من الشمس. كالوم مقارنةً به كان فتىً رقيقًا هزيلًا. قررتُ وقتها أن الرجال الكبار المعتّقين هم النوع المفضل الجديد لي. ثم تابعت: «لكن... (أهز كتفيَّ على الرغم من أنها لا تراني) لا أدري. أظن، رغم وسامته في البداية، كان جزءٌ مني يفضل أن يكون كالوم مكانه».

تومئ هانا وتقول بتعاطفٍ بيِّن: «أفهمك. حين ينجذب قلبك لشخصٍ ما فإن براد پيت قد يمر أمامك ولن يملأ عينيك...».

أقول: «براد پيت عجوز للغاية».

- أااا... هاري ستايلز؟

دفعني قولها هذا للابتسام: «نعم. ربما. أو تيموثي شالامي». أعتقد أن كالوم يشبهه قليلًا.

- لكني لم أخطر ببال كالوم ولا للحظةٍ واحدة، خاصةً وهو في حضن إيلي.

قلت لنفسي إنه يستحسن بي أن أتوقف عن التفكير في ذاك اللعين.

- وهل هذا الرجل... ما اسمه؟

- ستيڤن.

- هل قال أي شيء؟ حين التقيتما، عن أنك تصغرينه كثيرًا؟

أرميها بنظرة، بدا هذا مثقلًا بالأحكام الناقدة.

تقول بضحكةٍ خفيفة: «آسفة. لكن، لنتحدث بجدية، هل قال شيئًا؟».

- نعم. سألني إن كان عمري فعلًا ستةً وعشرين. لكنه لم يسأل بشك، بل كأنه كان... لا أدري. كأنها نكتة نفهمها كلانا. فعلًا لم يشغله الأمر البتة، ليس آنذاك. وكان لطيفًا (من الشاق تذكُّر هذا الآن) كنتُ أستمتع بوقتي. ضحك على كل النكات التي قلتُها. طرح عليَّ فيضانًا من الأسئلة عن نفسي.

أعيد عقلي لتلك الليلة. في تلك الحانة وكؤوس الشراب كلها تذهب إلى رأسي، كنتُ أشرب كوكتيل نيجروني لأنني ظننتُ أنه سيجعلني أبدو أكبر سنًا. أقول: «كانت خطتي الأصلية هي أن ألتقط صورة معه وأنشرها على الإنستجرام». وأُري كالوم ما خسره.

نظرت هانا إليَّ: «أظن... أن ما حدث تجاوز هذا؟».

- بالضبط

ثم أزدرد الڤودكا.

حانت تلك اللحظة، أتذكرها، حين ظننتُ أنه سيودعني، لكنه فتح باب سيارة الأجرة واستدار لي قائلًا: «ألن تركبي؟». في سيارة الأجرة (لم يكن أوبر، بل سيارة أجرة لندنية الطراز وسوداء)، ظل ذاك الصوت الصغير يلحّ: ما الذي تفعلينه؟! لقد تعرّفت عليه لتوك! لكن الجزء الثمل فيَّ، ذاك الجزء كان متأهبًا لما يحدث، ظل يخبرني بأن أخرس.

عدنا إلى شقة چولز لأنه انتقل من منزله منذ فترةٍ وليس عنده أثاث ملائم. شعرت بالسوء حيال الأمر وقلتُ لنفسي وقتها إنني سأغسل أغطية السرير.

قال: «يا للهول! هذا مذهل. كل هذا ملكك أنت؟».

أجبته وأنا أشعر أنني غدوتُ أكثر رقيًا في عينيه: «نعم».

أخبر هانا: «وبعدها مارسنا الحب. أظن أنني وددتُ فعلها قبل أن يتلاشى مفعول الكحول من رأسي».

تسألني: «أكان جيدًا؟ (تبدو متحمسة. ثم تردف) لم أمارس الحب منذ عصور. آسفة. معلومات أكثر من اللازم».

أحاول منع نفسي من تخيُّلها وتشارلي وهما يمارسان الحب. أقول: «صحيح. كان... ممم، تعرفين، خشنًا قليلًا؟ دفعني نحو الحائط. ثم... هل لي أن أشرب المزيد؟ (تناولني هانا الزجاجة وأزدرد منها رشفةً بسرعة) ثم أخذ يقبّلني. رغم أنني أخبرته بأنني لم أستحم. لكنه أجابني أنه هكذا يفضل الأمر».

تقول هانا: «طيب. تمام. يا للهول».

لم نُقدِم أنا وكالوم على فعل أي شيء جريء. أظن أن ما مارستُه مع ستيڤن كان أفضل من أي شيءٍ فعلتُه مع كالوم، حتى مع ذلك، بعدما أوصلني للذروة بتقبيله أول مرة، شعرتُ شعورًا غريبًا بأنني أريد البكاء للحظة.

أقول لهانا: «رأيته عدة مراتٍ تلو ذلك».

أشعر، ولا أرى، بأن هانا تومئ، رأسها قريب للغاية من رأسي لدرجة أنني أحس بالحركة من الهواء. أجدني أخبرها كيف راق لي أن أرى نفسي بالطريقة التي رآني بها، امرأة مثيرة، جسورة. رغم أنني شعرتُ أحيانًا بأنني عاجزة، أنني لست مرتاحةً بالكامل لفعل كل ما طلب مني فعله في الفراش.

أقول: «أعني... لم يكن مثلما كان مع كالوم، حين كنتُ أشعر بأنه...».

تسأل هانا: «توءم روحك؟».

أجيبها: «بالضبط (إنها كلمة شديدة اللزوجة، لكنها تصف وصفًا دقيقًا) كان ذاك مختلفًا مع ستيڤن كان كأنه كشف لي عن جزءٍ صغيرٍ من نفسه، الذي...».

- حثّكِ على الرغبة في رؤية المزيد؟

- نعم. أظن أنني أصبحتُ شبه مهووسةٍ به. كان داهية وناضجًا، لكنه أرادني أنا. ثم... (أهز كتفيَّ بلا مبالاة) أفسدت كل شيء.

عبستْ هانا: «ماذا تقصدين؟».

- لا أدري، أفترض أنني أردتُ أن أثبت له أنني ناضجة بالمثل. لم نكن نفعل أي شيءٍ معًا عدا أننا نلتقي، ثم، تعرفين، نمارس الحب.. راودني ذاك الشعور... بأنه مهتم بأمري لأجل هذا وحسب.

تومئ هانا.

- لكن في أواخر الصيف، كانت مجلة چولز ستقيم حفلًا في متحف ڤيكتوريا وألبرت، ورأيتُ أنه سيكون أمرًا رائعًا لو أحضرته معي. موعد لائق وهكذا. يعني، لأبهره قليلًا. ليراني ناضجةً وكبيرة.

أخبر هانا عن تلك الخطوات التي قطعتُها، عن رؤية الكبار الفاتنين يتحركون في أرجاء المكان، كلهم يشبهون نجوم السينما. وكيف نظر إليَّ ذاك الشاب الذي يتحقق من الأسماء من أعلى لأسفل كأنه يظن أنه ليس عليَّ أن أكون في هذا المكان، بينما بدا ستيڤن وكأن المكان صُنِع خصيصى له.

قلتُ: «توترتُ بشدة. تحديدًا من فكرة تعريفه على چولز. كانت كل المشروبات مجانية، شربت الكثير منها في محاولةٍ لتقوية ثقتي بنفسي. لكني جعلتُ من نفسي بلهاء فحسب. تقيأت في الحمام... وكنت مستاءةً بشدة. حينها اتصل ستيڤن بسيارة أجرة لأعود إلى شقة چولز، ولم أطلب منه أن يأتي معي لأنها ستكون هناك بعد الحفل. أتذكّره يعد النقود ويعطيها لسائق السيارة. ثم يؤكد عليه أن أصل للمنزل بأمان، كأنني طفلة».

تقول هانا: «كان عليه أن يعود معك. كان لزامًا عليه أن يتأكد أنك بخير. لا أن يتركك بين يدَي سائقٍ لا يعرفه».

أهز كتفيَّ: «ربما. لكنني كنتُ أمثّل له إحراجًا لعينًا. لستُ متفاجئةً أنه أراد التخلص مني».

أتذكّر لما راقبته من نافذة السيارة وكل ما فكرتُ فيه هو أنني أفسدت كل شيء. وظننت أنني لو كنت مكانه فلربما سأعود إلى الحفل وأتسلى مع أناسٍ من عمري في وسعهم تحمُّل آثار الثمالة.

- سحب عليَّ بعد ذلك (أردف في حالة أنها لا تعرف ما أقصده) أقصد أنه لا يجيب رسائلي. وأنا أرى العلامة الزرقاء في الهاتف.

تومئ.

- عدتُ إلى الجامعة. ثملت ذات ليلةٍ وكنت حزينة بعد مساءٍ قضيته خارج المنزل، فأرسلت له عشر رسائل دفعةً واحدة. حاولت الاتصال به وأنا عائدة إلى السكن في الثانية صباحًا. لم يجبني. ولم يُجب رسائلي. عرفت أنني لن أراه ثانيةً أبدًا.

تقول هانا: «اللعنة».

- نعم.

تسأل حين لا أقول شيئًا آخر: «أهذا كل ما حدث؟ هل رأيتِه مرةً ثانية؟ (ثم تقول حين لا أجيبها) أوليڤيا؟».

لكني أعجز عن الكلام. كأنني كنتُ مسحورةً وأُبطِل السحر، كان سهلًا أن أتكلم. أشعر الآن وكأن الكلمات عالقة في حلقي. مع تلك الصورة في عقلي. أحمر وأبيض. كل تلك الدماء.

تقول هانا حين نعود للقلعة إنها منهكة: «سأذهب فورًا إلى السرير».

أتفهم هذا. كان الأمر مختلفًا في الكهف. جالستان هناك في الظلمة على نور الشمعة مع الڤودكا، في وسعنا هناك أن نقول أيَّ شيء. الآن تشعر كلتانا بأننا قلنا أكثر من اللازم. تجاوزنا الحد.

لكن أعرف أنني لن أتمكن من النوم، تحديدًا وأن الرجال ما زالوا يلعبون خلف باب غرفتي. لذا أستند على الجدار لحظةً وأحاول أن أبطئ من سير الأفكار المتسارعة في رأسي.

- أهلًا.

ينخلع قلبي من مكانه فزعًا: «اللعنة...».

إنه الإشبين، چونو. لا أحبه. رأيتُ الطريقة التي رمقني بها سابقًا. وهو الآن ثمل، أعرف هذا، وأنا ثملة بالمثل. أرى من النور المتسلل من حجرة الطعام ابتسامته الواسعة، يأكلني بعينيه: «عندك مزاج لهذا؟». يحمل في يديه سيجارة حشيشٍ كبيرة، تفوح رائحتها مثيرة للغثيان. ألاحظ أن عقبها رطب في موضع فمه.

أقول: «لا. شكرًا».

- مؤدبة.

أتحرك لأدخل لكن حين أصل للباب، يمسك ذراعي، يده تقبض عليها بقوة: «تعرفين، علينا أن نرقص معًا غدًا، أنا وأنتِ. الإشبين والوصيفة».

أهز رأسي.

يقترب مني، يجذبني أقرب إليه. إنه أضخم مني بكثير. لكنه لن يُقدِم على فعل أي شيءٍ هنا، صحيح؟ ليس والجميع في الطابق العلوي؟

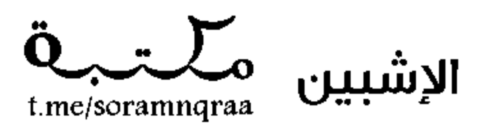
يقول: «فكري في الأمر. ربما يفاجئك. رجل يكبرك».

أقول من بين أسناني: «ابتعد عني». أفكر في المشرط في الأعلى. أتمنى لو كان معي، لأجل معرفة أنه بحوزتي فحسب.

أنتزع ذراعي من قبضته وأنا أحاول عبثًا أن أفتح الباب، أصابعي لا تتحرك كما ينبغي. أشعر بعينيه تراقبانني طوال الوقت.

چونو

الإشبين



أعود لغرفتي بعدما أنتهي من سيجارة الحشيش. تمكنتُ من إحضارها معي من دبلن حين وصلتُ، تسكعت لأجلها في شارع تمبل بار مع كل السياح. لستُ متأكدًا إن كان مفعولها قويًا كتلك التي أحضرها من رجلي المعتاد، لكن آمل أنها ستساعدني على النوم. أحتاج مساعدةً الليلة.

تشبه الأجواء على الجزيرة أيام ما كنا هناك، في مدرسة تريڤليان. ربما للأمر علاقة بتضاريس الأرض. المنحدرات والبحر. كل ما أسمعه هو صوت الأمواج خارج النافذة، تلطم الصخور في الأسفل. تعود لذاكرتي غرفة النوم في المهجع: صفوف الأسرّة والقضبان على النوافذ. لحمايتنا أو لحبسنا... ربما لكلا السببين. وصوت تلاطم الأمواج هناك كذلك، تندفع نحو الشاطئ. شش، شش، شش. تُذكّرني بأن عليّ كتمان السر. لم يخطر ببالي لسنواتٍ طويلة. لكن كأن وجودي هنا يجبرني على استعادته ثانيةً. وحين أستعيده لا أقوى على أن أتنفس نفسًا لعينًا واحدًا.

أستلقي على السرير. شربت حد الثمالة لأفقد الوعي، وأضفت لها الحشيش. لكن أشعر بأن شيئًا ما يزحف على جلدي، مليون صرصار معي في السرير. كلها هنا لمنعي من نيل أي قسطٍ من الراحة. أريد أن أحكّ جسدي، أن أمزق جلدي إن لزم الأمر، أن أوقفها. وأخاف إن سقطتُ في النوم أن تراودني أحلام مثل أحلام البارحة. لا أتذكّر متى راودتني آخر مرة... منذ سنواتٍ وسنوات.

المكان مظلم للغاية هنا. معتم. أشعر بأن الظلمة تضغط عليَّ. كأنني أغرق بها. أجلس على السرير، أذكّر نفسي بأنني بخير. لا شيء يحاول خنقي، ما من صراصير هنا. ربما الحشيش هو ما يجعلني مرتابًا، إنه صنف جديد. سأستحم، هذا ما سأفعل. سيجري الماء على جسدي لطيفًا وساخنًا، وأدعكه جيدًا.

ثم يخيل لي أنني أرى شيئًا، في زاوية الغرفة. ينمو، يلملم نفسه وسط السواد.

لا. إنني أتخيل. حتمًا أتخيل. لا أومن بالأشباح.

هذا بالتأكيد مفعول الحشيش، أو الويسكي. يلعب بي عقلي الألاعيب. اللعنة. لكني واثق أن شيئًا ما يقبع هناك. أراه بطرف عيني لكن حين أستدير وأنظر إليه مباشرةً يختفي. أغمض عيني مثل طفلٍ صغيرٍ يخاف الوحوش أسفل سريره، أضغط على جفنيَّ بأصابعي حتى أرى بقعًا رمادية. هذا لا يبشر بخير. أراه حتى وأنا مغمض العينين. لديه وجه. وهو ليس شيئًا، بل شخصًا. أعرف من هو.

أهمس: «ابتعد عني عليك اللعنة (ثم أجرب طريقةً مختلفة) أنا آسف. لم تكن غلطتي. لم أظن...».

تهتاج معدتي. أصل للحمام في الوقت المضبوط قبل أن أستفرغ كل شيء في المرحاض، يرتعد جسدي خوفًا.

چولز

العروس

أجلس أنا وتشارلي على قمة القلعة، جوار كوّات السهام، ننظر إلى بريق الأضواء الممتد على طول البر. تركنا الآخرين وحدهم مع لعبتهم المقرفة. كأنه أمر محرم، أن نكون معًا وحدنا هنا في الأعلى. شيء أرعن. ربما ينبع من كوننا نقف على سطح العالم، أسفلنا سفح حاد -لا نراه لكنه موجود- إنه يثري الإثارة العابقة في الجو، ويجعل كل شيء مُحمّلًا بالمخاطر. أو ربما السبب هو أننا ملتحفون بظلمة الليل، وأن أي شيءٍ قد يحدث هنا فإن أحدًا لن يعرف عنه.

أخبره: «وجودك هنا لطيف للغاية. تعرف أنك إشبيني حقًا؟».

يجيب: «شكرًا. سعيد أنني هنا. لمَ اخترت هذا المكان؟».

- أنت تعرف. جذوري الأيرلندية. وهو مكان خصوصيٌّ للغاية. أحب فكرة أن أكون أول من يقيم به حفلًا. كذلك موقعه النائي كان عاملًا. لأصعّب الأمر على أي متعقبين.

- كانوا سيحاولون فعلًا التقاط صورٍ لزفافه؟

يعلو الشك نبرة صوته، كأنه لا يصدق أن شهرة ويل تبرر الأمر.

- ربما يحاولون. والمكان دعايا لصالح ويل أيضًا، أن يقيم زفافه في مكانٍ وعرٍ كهذا.

كل ما أقوله صحيح نوعًا ما. لكنه ليس الحقيقة الكاملة.

أريح رأسي على كتفه. أشعر به يتجمد. ربما لا يراه تصرفًا عاديًّا كما في السابق، أن نكون قريبَين من بعضنا بعضًا لهذا الحد. الآن وأنا أفكر فيه، أكان عاديًّا أصلًا؟

يسلّك تشارلي حلقه: «هل يمكن أن أسألك سؤالًا؟».

نبرته جادة. وأشم رائحة الحذر: «تفضّل».

- إنه يسعدك، أليس كذلك؟

أرفع رأسي قليلًا من على كتفه: «ماذا تقصد؟».

أشعر به يهز كتفيه: «أسأل فحسب. تعرفين كم أهتم لأمرك يا چولز».

أقول: «نعم، يسعدني. ويمكنني أن أطرح عليك السؤال نفسه عن هانا».

- هذا يختلف كليًّا...

- فعلًا؟ كيف؟

لا أريد أن أسمع إجابته، لا أريد سماع شخصٍ آخر يخبرني أن كل شيءٍ تم بسرعة بيني وبين ويل. ثم، ولأني كنتُ ثملةً أكثر ما انتويتُ هذا المساء -هل سيتاح لي أن أثمل هكذا في أي وقتٍ آخر؟- أقولها: «هل تقصد أنك أنت كنتَ ستسعدني أكثر؟».

- چولز... (قالها بصوتٍ كالأنين) لا تفعلي هذا.

أسأل ببراءة: «أفعل ماذا؟».

- لم تكن علاقتنا ستنجح. إننا صديقان، صديقان رائعان. تعرفين هذا.

ثم أشعر به يسحب نفسه بعيدًا عني، مبتعدًا عن حافة الجرف.

هل أعرف هذا فعلًا؟ وهل هو حقًا مقتنع تمام الاقتناع بهذا؟ أدري أنه رغب فيَّ ذات يوم. ما زلتُ أفكر في تلك الليلة. الذكرى التي اجتررتُها مراتٍ كثيرة... حين أحتاج إلهامًا وأنا أستحم مثلًا. لم نتحدث عن الأمر مذ ذاك الحين. ولأننا لم نفعل، فقد ظلت محافظة على سطوتها الأولى. إنني واثقة أنه يفكر فيها أيضًا.

يقول كأنه قرأ عقلي: «كنا شخصين مختلفين آنذاك»، أتساءل إن كان مقتنعًا بهذا الكلام كما يدّعي. ثم يقول: «لم أسألك بسبب أيٍّ من هذا. لا بسبب الغيرة... أو أي شيء».

- حقًا؟ لأنه يبدو سؤالًا غيورًا بعض الشيء؟
- لستُ... أنا...
- هل أخبرتكَ عن مدى روعته في السرير؟ هذه هي الأشياء التي يفترض بالأصدقاء حكيها لبعضهم بعضًا، أليس كذلك؟

أعرف أنني أستفزه، لكن لستُ أقدر على منع نفسي.

يقول تشارلي: «اسمعي. جُلّ ما أريده هو سعادتك».

الاهتمام المتعالي اللعين! أرفع رأسي بعيدًا عن كتفه. أشعر بالمسافة بيننا تتمدد، مجازًا وحرفًا: «إنني قادرة تمامًا على معرفة الفرق بين ما يسعدني وما لا يسعدني»، أردفُ: «وفي حالة أنك لم تلاحظ، فأنا في الرابعة والثلاثين من عمري. ولست عذراء في السادسة عشرة منبهرة بك».

يمتعض وجهه: «يا إلهي، أعرف. آسف، لم أقصد ما فهمت. إنني أهتم لأمرك، لا أكثر ولا أقل».

باغتني شيء ما. أسأله: «تشارلي؟ هل أنت من أرسل الرسالة؟».

- رسالة؟

أسمع إجابة سؤالي في حيرته. لم يكن هو.

أقول: «لا شيء. انسَ الأمر. تعرف؟ أظنني سآوي للفراش. إن نمتُ الآن فسأحصل على ثماني ساعاتٍ من النوم قبل الغد».

يقول: «طيب». أشعر بارتياحه لأنني قررتُ إنهاء اليوم، وأغضبني هذا.

أطلب منه: «هل لي بعناق؟».

- أكيد.

أميل عليه. جسده أطرى من جسد ويل، متراخٍ أكثر مما كان عليه بكثير. لكن رائحته ما زالت كما هي، مألوفة على نحوٍ ما، وهو أمر غريب قياسًا

بالمدة الطويلة التي مرت. لا تزال موجودةً بيننا. مؤكد أنه يشعر بها أيضًا. لكن هل تتلاشى المحبة من الأساس؟ أنا على ثقةٍ أنه يشعر بالغيرة.

أرى ويل يخلع ملابسه حين أدخل الغرفة. يبتسم لي وهو يسير نحوي. يتمتم: «هل لنا أن نكمل حيث توقفنا؟». أظن أنها طريقة مناسبة لأتخلص من مهانة تلك المحادثة مع تشارلي.

أفكّ الأزرار المتبقية على قميصه، يخلع حمّالة بذلتي بعنفٍ محاولًا تجريدي منها. إنها تشبه أول مرةٍ معه -تلك اللهفة- لكنها أفضل؛ كلانا يعرف ما يريد الآخر بالضبط. نفعلها على السرير. أصل إلى الذروة... بلا شك. لا أتحلى بالهدوء. وبطريقةٍ غريبة، أشعر وكأن المساء الذي قضيناه بطوله كان مداعبة طويلة. الشعور بنظرات الآخرين لنا، ملآنة بالحسد والانبهار. أن أرى في أعينهم روعتنا معًا. ونعم، بالضبط، ألم تجاوز الحد مع تشارلي ورفضه لي. ربما سيسمعنا.

يستحم ويل بعدها. إنه يهتم بنفسه اهتمامًا فائقًا، روتينه يجعل روتيني يبدو مثل فوضى هوجاء. أتذكر مفاجأتي حين عرفتُ أن سبب سمرة وجهه ليس التعرض المستمر لعوامل الطبيعة بل بسبب مسمّر سيسلي، النوع نفسه الذي أستخدمه أنا.

الآن فحسب تصل إلى أنفي وأنا جالسة على الأريكة مرتديةً ثوب النوم تلك الرائحة الغريبة، أقوى من رائحة الغرام المالحة سريعة الزوال. إنها الرائحة الأقوى التي لا ينازعها شيء، رائحة البحر. يلتصق بمؤخرة حلقي المذاق اللاذع السمكي الشبيه بالأمونيا. وأشعر به وأنا جالسة في مكاني كأنه يجمّع نفسه من أركان الغرفة المظلمة، يكتسب قوامًا وعمقًا.

أنهض وأفتح النافذة. الهواء قارس البرودة بعدما حلّ الظلام. أسمع تلاطم الأمواج على الصخور. والمياه فضية أسفل نور القمر، مثل معدنٍ ذائب، بريقها شديد حد أنني أنظر إليها بصعوبة. بإمكاني أن أرى تموجها حتى من هنا، حركات رهيبة عتيدة أسفل سطحها، كلها عزم وتصميم. أسمع قرقعةً فوقي، ربما تأتي من أعلى السطح. تبدو مثل سخريةٍ فرحة.

ألا يفترض أن تكون رائحة البحر أقوى خارج القلعة وليس داخلها؟ لكن النسيم الذي ينبعث في الغرفة نقيٌّ ولا رائحة له. لستُ أفهم. أروح للتسريحة

وأشعل شمعةً عطرية فوّاحة. ثم أجلس على الكرسي وأحاول الاسترخاء. لكني أسمع صوت نبضات قلبي. سريعة مثل رفرفةٍ في صدري. أهو عاقبة الجهد الذي بذلناه؟ أم شيء يتجاوز هذا؟

عليَّ أن أتحدث مع ويل عن الرسالة. إذا كنتُ سأخبره عنها فالآن هو الوقت الأنسب. لكنني نلتُ نصيبي من المواجهات هذا المساء -مع تشارلي- ولا أقوى على مواجهة ذاك الشيء وجهًا لوجه، أن أستمر في التفكير فيها وأضخّم من شأنها. وربما هي لا شيء. إنني متأكدة بنسبة 99% أنها لا شيء، لا ربما بنسبة 98%.

يفتح ويل باب الحمام. يسير إلى وسط الغرفة، يحيط خصره بمنشفة. ورغم أنني كنتُ معه لتوي فإن مرأى جسده يشتت انتباهي للحظة، استوائه وانحناءته، عضلاته المشدودة على معدته وذراعيه وساقيه.

يسألني: «لمَ ما زلتِ مستيقظة؟ علينا أن نرتاح قليلًا. ينتظرنا يوم حافل غدًا».

أدير ظهري إليه وأسقط ردائي، أشعر بعينيه تأكلان جسدي. أستمتع بسطوتهما. ثم أرفع طرف الغطاء وأنزلق في السرير وبينما أفعل تلمس ساقاي العاريتان شيئًا صلبًا وباردًا، قوام لحمٍ ميت. كأنه يبعد وأنا أزيحه بقدمي دون أن أقصد لكنه في الوقت ذاته يطوّق نفسه حول ساقيّ.

- يا إلهي! اللعنة! يا إلهي!

أقفز من السرير، أتعثر، وأنبطح على الأرض.

يحدق ويل إليَّ: «چولز؟ ماذا هناك؟».

أعجز عن إجابته في البداية، مرعوبة ومتقززة مما لمستُ. تصاعد الهلع في حلقي وخنقه. ترج الصدمة جسدي، عميقة ومزلزلة ووحشية. كأنه أتى من كابوس، نوع الأشياء التي تحلم بإيجادها في سريريك ثم تستيقظ لتدرك أنها بقعة عرقٍ باردة والأمر كله من نسيج مخيلتك. عدا أن هذا حقيقيٌّ. ما زلتُ أشعر ببرودته على قدمي.

أقول بعدما عثرتُ على صوتي أخيرًا: «ويل... هناك شيء ما... في السرير. أسفل الأغطية».

يسرع إليه واثبًا وثبتين هائلتين، يرفع اللحاف بكلتا يديه ويلقي به بعيدًا.

لم أستطع فعل شيءٍ إلا الصراخ. تمدد هناك، في قلب الفراش، جسم ضخم لحيوانٍ بحريٍّ ما، أذرعه تنبسط في كل اتجاه.

يتراجع ويل: «اللعنة ما هذا؟! (يبدو غاضبًا أكثر منه خائفًا. يكرر قوله، كأن الشيء في السرير ربما يجيب مبررًا وجوده) اللعنة ما هذا...».

تستحوذ رائحة البحر، رائحة الأشياء العفنة المالحة، على المكان كله، تتصاعد من الكتلة السوداء على السرير.

ثم وبسرعة، يقترب ويل ثانيةً منه، مستفيقًا من صدمته أسرع مني. أصرخ حين يمد يده إليه: «لا تلمسه!». لكنه كان قد قبض على أذرعه بالفعل، ونفضها. تتراخى في يده، الشيء نفسه يتفكك مثيرًا للغثيان ببشاعة. إنه قابع مكان ما مارسنا الحب، ينتظرنا أسفل الغطاء...

يضحك ويل ضحكةً خافتةً وخشنة، تخلو تمامًا من أي مرح: «انظري، إنها طحالب فحسب. طحالب لعينة!».

يرفعها عاليًا أمامي. أقترب. إنه محق. إنها الأشياء التي رأيتُها متناثرةً على الشاطئ هنا، حبال ضخمة وسميكة، داكنة اللون تلقي بها الأمواج. يرميها ويل على الأرض.

شيئًا فشيئًا يفقد المنظر كله ما أحاط به من جزعٍ وقبح ويغدو فوضى شنيعة. ثم أعي مهانة وضعي، منبطحةً أرضًا كما أنا وعارية. أشعر بنبض قلبي يهدأ. وأنفاسي تطمئن.

لكن... كيف أتت إلى هنا في المقام الأول؟ ولمَ هي هنا؟ شخص ما فعل هذا بنا. شخص ما جلبها إلى هنا ودسّها أسفل اللحاف، يعرف أننا سنجدها فور أن نخلد إلى النوم.

ألتفت إلى ويل: «من قد يفعل هذا؟».

يرفع ويل كتفيه: «حسنًا. عندي شكوكي».

- ماذا؟ حول من؟

- إنه مقلب اعتدنا عمله في الفتيان الصغار في المدرسة. كنا ننزل طريق المنحدر ونجمع طحالب البحر الملقاة على الشاطئ قدر استطاعتنا. ثم

نخبئها أسفل أسرّتهم. لذا أخمن أنه چونو أو دنكن، ربما كلهم اتفقوا عليها. ربما ظنوا أنه مقلب طريف.

- أتسمي هذا مقلبًا؟ إننا لسنا في المدرسة يا ويل! إنها عشية ليلة زفافنا! اللعنة! (أتى غضبي بطريقةٍ ما غوثًا لي).

- من وجهة نظرك ليس مقلبًا، لكنه كذلك بالنسبة إليَّ. تعرفين، لأجل الأيام الخوالي. لم يقصدوا قط إزعاجك...

- إنني ذاهبة لإحضارهم جميعًا حالًا، لأعرف أيهم فعل هذا. لأريهم طرافتها على حق.

- چولز (يمسكني ويل من كتفيَّ. ثم يردف بهدوءٍ ولطف) اسمعي، إن فعلتِ هذا... فأظن أنك قد تقولين أشياء تندمين عليها لاحقًا. ستفسد أجواء الغد، أليس كذلك؟ ربما يقلب حال كل شيء.

أتفهم ما يقصده نوعًا ما. يا إلهي، إنه دائمًا عقلانيٌّ هكذا، وأحيانًا عقلانيٌّ على نحوٍ مستفزٍ كما يحدث الآن، دائمًا يتصرف بحذرٍ ومراعاة. أنظر إلى الكتلة السوداء على الأرض. من الصعب تصديق أنهم لم ينتووا بها إيصال رسالةٍ شرّانية.

يقول ويل بحنو: «اسمعي. إننا متعبان، كان يومًا طويلًا. دعينا لا نقلق حيالها. وسأحضر أغطية جديدة من الغرفة الفارغة».

كانت تلك الغرفة مخصصة لوالدَي ويل. رفضا رفضًا قاطعًا الفكرة العجيبة للإقامة في جزيرة فعلًا. لم يبدُ على ويل أنه تفاجأ من رفضهما: «أبي لم يعجبه أي شيءٍ فعلتُه قط، وليس زواجي استثناءً لهذه القاعدة». بدا متألمًا منه. إنه لا يتحدث عن والده كثيرًا، وللمفارقة فإن قلة حديثه عنه تترك فيَّ شعورًا بأن له تأثيرًا هائلًا في زوجي أكثر مما قد يقر به.

- لتحضر لحافًا أيضًا.

أود أن أخبره بشدةٍ أنني أرغب في الانتقال للغرفة الثانية. لكن هذا سينافي العقل، وأنا أعتز بكوني عكس ذلك.

- أكيد (يشير إلى الطحالب ويقول) وأنا سأتولى أمرها كذلك، تعاملتُ مع ما هو أسوأ، ثقي بي.

هرب ويل في المسلسل من ذئابٍ وهاجمته خفافيش مصاصة للدماء -رغم أنه ليس بمنأى عن نيل مساعدة طاقم العمل- لذا فحتمًا كل ما حدث مثير للشفقة من وجهة نظره. قليل من الطحالب على السرير ليست بالأمر الجلل قياسًا بمجمل الأحداث.

يقول: «وسأتحدث أنا مع الشباب صباح الغد وأخبرهم أنهم حمقى ملاعين».

أقول: «طيب». إنه بارع في المواساة. إنه... حسن، كلمة واحدة تصفه، مثالي.

لكن، في تلك اللحظة تحديدًا، في توقيتٍ غاية في الدناءة، تصعد الكلمات القليلة في تلك الرسالة البشعة على السطح.

«إنه ليس الرجل الذي يدّعيه... إنه خائن.... كذاب...

لا تتزوجيه».

يقول ويل برفق: «كل ما نحتاج هو ليلة من النوم العميق».

أهز رأسي.

لكن لا أظن أنه سيغمض لي جفن.

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

أسمع جلبةً في الخارج. إنها غريبة، تشبه النواح. كأنه يصدر من إنسانٍ لا حيوان، لكن في الوقت نفسه لا يبدو بشريًا تمامًا. أتبادل أنا وفريدي النظرات ونحن في غرفتنا. عاد كل الضيوف إلى حجراتهم منذ نصف ساعةٍ تقريبًا. ظننتُ أن التعب لن ينال منهم أبدًا. اضطررنا أن نظل مستيقظَين حتى النهاية المُرة علهم يحتاجون أي شيءٍ منا. سمعنا قرع الطبل والهتاف الآتي من غرفة الطعام. تمكّن فريدي، الذي درس اللاتينية في المدرسة، من ترجمة هتافهم: «إن كنت عن تحريك الجحيم عاجزًا، فسأشعلنّ الجحيم». اقشعر بدني عند سماع الترجمة.

كان أصدقاء العريس أشبه بصبيان ضخام الحجم، لكن ظني أنهم يفتقرون لبراءة الصغار، لكن لا يتحلى بعض الصغار بأي براءةٍ في الواقع. ما أقصده هو أنه يفترض بهم أن يتحلوا بالحكمة نظرًا إلى أنهم رجال راشدون. كما أن روح القطيع تقودهم، مثل قطيعٍ من الكلاب، كل كلبٍ منهم مهذب على حدة، لكن تطير عقولهم باجتماعهم معًا. عليَّ أن أبقي عيني عليهم غدًا لأتأكد أنهم لا ينساقون وراء طيشهم. من واقع خبرتي، المناسبات الملأى بالضيوف الأثرى والأرقى تفقد فيها السيطرة أسرع. نظّمتُ حفل زفافٍ في دبلن حضره نصف الصفوة السياسية في أيرلندا -حتى رئيس الوزراء كان هناك- وحدث أن اشتبك العريس وحموه في عراكٍ قبل أول رقصةٍ في الزفاف.

أما هنا فتضاريس الجزيرة تضاعف من الخطورة. تتسلل وحشية المكان أسفل جلدك. سيشعر المدعوون بأنهم بعيدون كل البعد عن المعايير

الأخلاقية الطبيعية للمجتمع وفي مأمنٍ من أعين الآخرين المتصيدة. كان هؤلاء الرجال طلابًا في مدرسة خاصة، قضوا جُلّ حياتهم ملتزمين بتعليماتٍ لم تنتهِ صلاحيتها بانتهاء المدرسة، بل أتى معها اختيار الجامعة التي سيلتحقون بها، والوظائف التي سيعملونها والمنازل التي سيعيشون بها. من واقع تجربتي فإن أولئك الذين يُكنون أجَلّ احترامٍ للقواعد يجدون أمتع لذةٍ في مخالفتها.

أقول: «سأذهب وألقي نظرة».

يقول فريدي: «ليس آمنًا، سآتي معك».

أخبر فريدي أنني سأكون بخير. ولأطمئنه أكثر أخبره بأنني سآخذ مذكّي النار من جوار المدفأة في طريقي. أعرف أنني الأشجع بيننا. لا يشوب قولي هذا أي شعورٍ بالكبرياء، حين تمر بالأسوأ فإنك ببساطةٍ لا تهاب أي شيءٍ آخر.

أتقدّم في الليل الأليل، ممتنةً للعتمة، يلفني غطاؤها المخملي ويشملني بها. لا يؤثر أي نورٍ آتٍ من القلعة بها إلا تأثيرًا ضعيفًا، رغم أن المطبخ مضاء بالكامل، وكذلك إحدى نوافذ الطابق العلوي، غرفة الحبيبين اللذين زفافهما على الأبواب. أعرف ما يُبقيهما مستيقظَين حتى اللحظة، الأصوات تفضحهما.

لن أستخدم المصباح الآن. سيجعلني حمقاء وسط الظلام الدامس. أقف مكاني، وأنصتُ بكل جوارحي. كل ما أسمعه بدايةً هو ارتطام الماء بالصخور وصوت هامس غريب، أدرك بعد لحظةٍ أنه الصيوان، حفيف قماشه في النسيم الرقيق على بُعد خمسين ياردة تقريبًا.

ثم تعود تلك الجلبة ثانيةً. الآن أميزها بشكلٍ أفضل. إنها صوت نشيج شخصٍ ما. محال تحديد إن كان رجلًا أم امرأة. أستدير تجاهه وبينما أفعل أظن أنني رأيتُ بطرف عيني بريق حركة، ناحية أطلال البنايات خلف القلعة. لا أعرف كيف رأيتها إذ إن المكان معتم بشدة. لكنها حاسة كامنة فينا، في ذواتنا الحيوانية. أعيننا يقظة لأي اختلالٍ بقع، لأي تغييرٍ في صورة الظلام.

ربما هو خفاش، أحيانًا أراها في مطلع المساء ترفرف في الغسق بسرعةٍ شديدة لدرجة أنني أشك إن كنتُ رأيتها فعلًا. لكن أظنه كان أكبر حجمًا. إنني واثقة أنه إنسان، نفسه الجالس ينتحب متلحفًا بالظلمة. حتى حين أتيتُ إلى هنا منذ سنواتٍ بعيدة، كانت قصص الأشباح تدور حول الجزيرة رغم أنها

كانت مأهولةً وقتها. قصص عن نساءٍ منكوباتٍ يرثين أزواجهن الذين نُحرت أعناقهم بوحشية. أو عن الأصوات الآتية من السبخة، التي تنفي أنهم دُفنوا بشكل لائق. أرعبتنا تلك القصص بلا داعٍ آنذاك. لكن أشعر بذاك الإحساس رغمًا عني الآن، إحساس أن جلدي ينكمش على عظامي.

أنادي: «مرحبا؟». يتوقف الصوت بغتةً. لا تصلني إجابة فأضيء مصباحي. أحرك شعاعه يمنةً ويسرة.

يقع ضوؤه على شيءٍ ما وأنا أحرّكه في قوسٍ بطيء. أعيده على البقعة ذاتها، وأسلّطه على قمة الشيء الذي يحدق إلى اتجاهي. يميز الشعاع الشعر الأشعث الداكن والعينين البراقتين. كأنه خرج توًا من حكايةٍ من التراث الشعبي، البوكا: العفريت الشبح، ينذر بنبأٍ آزفٍ.

أرجع خطوةً للوراء رغمًا عني، وشعاع المصباح يضطرب. لكن تنبلج الحقيقة شيئًا فشيًا. إنه الإشبين، لا أحد غيره، رابض جوار إحدى البنايات.

- من هناك؟ (صوته متلعثم وأجش).

أجيبه: «إنه أنا. إيفا».

- أوه، إيفا. هل أتيتِ لتخبريني بأنه حان وقت إطفاء الأنوار؟ حان وقت الخلود للنوم مثل فتى مطيع؟

يبتسم ابتسامةً ساخرة. لكنها سخرية واهنة، وأظن أن بقايا الدموع تلمع على شعاع المصباح.

أقول بصوتٍ عمليٍّ: «ليس أمانًا أن تتجول في أرجاء هذه البنايات»، هناك ماكينة زراعة قديمة في هذا المكان قد تشقّ المرء نصفين. أردف: «خصيصى دون مصباح»، وخصيصى وأنت ثمل لهذا الحد. لكن ينتابني شعور مريب، كأنني أحمي الجزيرة منه، ولستُ أحميه منها.

ينهض ويسير نحوي. إنه رجل جسيم وثمل، أشم علاوةً على ذلك رائحة الحشيش الغثة الحلوة. أبتعد خطوةً أخرى عنه وأدرك أنني أقبض بقوةٍ على مذكّي النار. ثم يبتسم وتلوح أسنانه المعقوفة. يقول: «نعم، صحيح. حان وقت خلود چونو الصغير إلى السرير. أظنني اكتفيتُ من چونو الكبير.

تعرفين (يمثّل شرابه من زجاجةٍ ثم تدخينه السيجارة) لا أشعر بخيرٍ حين أفرط في الاثنين معًا. خِلتُ أنني أرى أشياء لعينة».

أومئ رغم أنه لا يراني. أردد في عقلي: «وأنا أرى كذلك».

أراه يشيح بنظره بعيدًا ويترنح عائدًا إلى القلعة. لم تقنعني سخريته التي قالها بشق الأنفس ولا للحظةٍ واحدة. بدا، رغم ابتسامته، أنه عالق بين البؤس والذعر. كمن رأى شبحًا.

يوم الزفاف

هانا

المُرافِقة

يؤلمني رأسي حين أصحو من النوم. يخطر ببالي كل ما شربتُ من الشمبانيا والڤودكا. أتحقق من الساعة: السابعة صباحًا. يغط تشارلي في نومٍ عميق مضطجعًا على ظهره. سمعته حين عاد للغرفة البارحة وخلع ملابسه. انتظرتُ التعثر والسباب، لكنه بدا متماسكًا على نحوٍ مفاجئ.

همس حين جلس على السرير: «هان... تركتُ لعبة الشرب. لم ألعب إلا دورةً واحدة».

هدّأ هذا من شعوري بالعدائية نحوه. ثم تساءلتُ أين كان طوال هذا الوقت. بصبحة من؟ ثم تذكرتُ المغازلات التي تبادلها مع چولز. تذكّرتُ سؤال چونو عن إن كانا قد مارسا الحب، تذكّرت أنهما لم يجيبا. لذا لم أجبه. تظاهرتُ بالنوم.

لكني استيقظتُ مستثارة، راودتني أحلام جامحة بعض الشيء. أظن أن منبعها الڤودكا. لكن كذلك ذكرى عينَي ويل عليَّ في بداية الأمسية. ثم الحديث مع أوليڤيا في الكهف في نهايتها، متلاصقتين في الظلمة والمياه تضرب أقدامنا، مع شمعةٍ واحدة للإنارة وزجاجة ڤودكا تروح وتجيء بيننا. لفّ الغموض كل شيء، ومعه الرغبة بطريقةٍ ما. أجد نفسي متعلقةً بكل كلمةٍ قالتها، والصور التي رسمتها تتضح أمامي وضوحًا صارخًا في الظلام. كأنها كانت أنا من دُفِعت نحو الحائط، ومن رُفِعت تنورتها على ردفيها، ومن

استكشفها شخص غريب. ربما الرجل نفسه أحمق، لكن بدا الأمر معه مثيرًا. ذكّرني كذلك بالإثارة الخطرة النابعة من الجنس مع الغرباء، حين أكون عاجزةً عن تخمين كل حركةٍ من حركاتهم.

ألتفت إلى تشارلي. ربما آن الأوان لأن نكسر الجفاف بيننا وأن نستعيد الحميمية الضائعة. أتسلل بيدي أسفل الأغطية، أداعب شعر صدره الكثيف، أنزل يدي لأسفل...

يُصدر تشارلي همهمةً ناعسةً ومتفاجئة. ثم يقول بصوتٍ خامل: «ليس الآن يا هان. إنني متعب للغاية». أسحب يدي كأن عقربًا لدغني. «ليس الآن»، وكأنني ثقيلة على قلبه. متعب لأنه ظل ساهرًا البارحة يفعل ما لا يعلم به إلا الله، تحدّث ونحن على القارب في طريقنا إلى هنا عن هذه العطلة بأنها ستكون راحةً لكلينا. عله يعرف ما أشعر به من ألمِ الآن. تنتابني رغبة مُلحّة بأن أتناول الكتاب المقوّى من على الطاولة المجاورة للسرير وأضربه به على رأسه. إنه نذير للخطر، اندفاع الغضب هذا. كأنني قضيتُ وقتًا أضمره.

ثم تتسلل فكرة في عقلي على استحياء. أدع نفسي أتساءل عما تشعر به جولز حين تستيقظ جوار ويل. سمعتُهما البارحة. سمعهما كل من في القلعة. أفكر ثانيةً في قوة ذراعَي ويل حين حملني خارج الزورق البارحة. أفكر، كذلك، حين لمحته ينظر إليّ ليلة أمس بتلك النظرة الغريبة المتسائلة. غمرني الشعور بعينيه على جسدي بإحساس بالسطوة.

يهمهم تشارلي في نومه وتهب عليّ نفحة من رائحة أنفاسه الصباحية المثيرة للغثيان. لا أتخيل ويل برائحة فمٍ كريهة. أشعر فجأةً بأهمية أن أبعد نفسي عن هذه الغرفة، عن هذه الأفكار.

ما من حركةٍ داخل القلعة، أظنني أول من استيقظ.

النسيم يملأ الجو اليوم، أسمع صفيره على أحجار المكان العتيقة وأنا أهبط السلّم، وبين حينٍ وآخر تصلصل النوافذ كما لو أن أحدًا صفعها. أتساءل إن كنا حظينا بالطقس الأجمل البارحة. لن يُعجب هذا جولز. أدخل المطبخ على أطراف أصابعي.

تقف إيفا هناك مرتديةً قميصًا أبيض وبنطالًا، تحمل في يدها لوحًا ذا مشبك، ويبدو على محياها وكأنها مستيقظة منذ ساعات. أقول: «صباح الخير». أشعر بها تتفرّس وجهي.

- كيف حالك اليوم؟

أدرك من سؤالها أن إيفا لا يفوتها شيء بهاتين العينين الذكيتين، تُقيّم كل ما تبصره. إنها جميلة، إلى حدٍ ما. أحس أنها تبذل جهدًا لتهمّش جمالها لكنه يظهر رغمًا عن محاولاتها. حاجباها الغامقان مرسومان بجمال باهر، وعيناها بلونٍ أخضرٍ ممزوجٍ بالرماديّ. قد أرتكب جريمةً ثمنًا لهذا الحسن الطبيعيّ الشبيه بأودري هيبورن، لا مثيل لخطّي فكّها!

أقول: «إنني بخير. إنني أعتذر، لم أكن أعرف أن أحدًا هنا».

تقول: «بدأنا مع طلوع الشمس، اليوم يوم حافل».

نسيتُ أمر حفل الزفاف كليًا. أتساءل عما تشعر به چولز هذا الصباح. متوترة؟ لا أتصورها متوترةً حيال أي شيء.

- أكيد. كنتُ سأتمشى قليلًا. رأسي يؤلمني.

تقول مبتسمةً: «حسنًا، الأسلم أن تسيري نحو قمة الجزيرة، اتبعي المسار المجاور للكنيسة، واتركي الصيوان على جانبك الآخر. سيبعدك هذا عن السبخة. وارتدي حذاءً واقيًا من المطر، ستجدينه جوار الباب. خذي حذرك وامشي على الأجزاء الجافة، أو ستجدين نفسك وسط الخث. توجد إشارة هناك أيضًا، إن أردتِ إجراء مكالمة».

مكالمة. يا إلهي. الأولاد! أعي أنني غفلتُهما تمامًا، ويغمرني الشعور بالذنب. طفلاي! أنساني هذا المكان نفسي لدرجةٍ صادمة.

أغادر القلعة وأجد الطريق، أو بقاياها. لم يكن إيجادها سهلًا كما وصفتها إيفا، ترى بصعوبةٍ أين وطئت أقدام من قبلك الأرض وشقّوا بها طريقًا لا ينبت بها العشب بكثافةٍ مثل باقي المكان. أرى السحب تركض وأنا أسير، تدور في طريقها إلى البحر الفسيح. اليوم فعلًا عاصف أكثر من البارحة وغيومه أكثف أيضًا، رغم أن الشمس تبزغ مشرقةً أحيانًا من وسط الغيوم. يصدر الصيوان الهائل على يساري حفيفًا بسبب الرياح. في وسعي أن أتسلل داخله

وألقي نظرةً. لكن أتجه في استسلامٍ إلى المقبرة على يميني، جوار الكنيسة. ربما هذا انعكاس لحالتي الذهنية في هذا الوقت من العام، المزاج الكدر الذي ينقضّ عليَّ كل يونيو.

أتجول حول الشواهد وألحظ عدة صلبانٍ قلطية بارزةً بروزًا لا يخفى على العين، لكن ألحظ أيضًا صورًا باهتةً رُسمت عليها، مراسٍ وورود. معظم الأحجار موغلة في القدم حد أنه يصعب قراءة ما كُتب عليها. حتى إن تمكنت من القراءة، فالكتابة ليست إنجليزية، بل باللغة الغيلية، على ما أظن. بعضها مكسور أو اهترأ حتى فقد شكله الأصلي بالكامل. ودون أن أفكر فيما أفعله، لمستُ بيدي أقرب شاهدٍ وشعرتُ بالحجر القاسي الذي نعّمته الرياح والمياه على مر العقود. منها ما يبدو أجدد بعض الشيء، ربما وُضعت قبل أن يغادر سكان الجزيرة للأبد بفترةٍ وجيزة. لكن طغت الحشائش والطحالب على أكثرها، كأن أحدًا لم يرعها من وقتٍ طويل.

ثم أمُر أمام شاهدٍ بارزٍ لا شيء نابت من حوله ليغطيه. بل يبدو في الواقع في حالةٍ حسنة، موضوع أمامه وعاء مربى مملوء بأزهارٍ برية. يتضح من التواريخ -أجري حسبةً سريعة- أنه يخص فتاةً صغيرة: دارسي مالون. مكتوب على الحجر: «فُقدت في البحر». أنظر نحو البحر. أخبرنا ماتي بأن كثيرين غرقوا في محاولة عبوره. لكنه لم يخبرنا متى غرقوا بالضبط. افترضتُ أنهم غرقوا منذ مئات السنين. لكن ربما هو أمر حديث العهد. كانت ابنة شخصٍ ما!

أنحني على شاهد القبر. أشعر بنخزة ألمٍ في حلقي.

- هانا!

ألتفتُ إلى القلعة. تقف إيفا هناك وتنظر إليَّ. ثم تقول: «ليس من هذه الطريق»، ثم تشير حيثما ينعطف المسار بعيدًا عن الكنسية: «من هناك!».

أجيبها: «شكرًا. آسفة!». أشعر كما لو أنه قُبض عليَّ بينما أتلصص على أسرار شخصٍ ما.

تتلاشى أي علامةٍ للطريق كلما أبتعد أكثر وأكثر عن القلعة. تتقوّض أسفل قدمي رقع من الأرض تبدو آمنةً ومعشوشبةً، متحولةً إلى وحلٍ سائلٍ أسود. تسرب ماء السبخة البارد في حذائي الأيمن وقدمي تتخضخض داخل الجورب

المبتل. يقشعر جسدي من الفكرة نفسها بأن أجسادًا ممددةً في مكانٍ ما تحت قدمي. أتساءل إن كان أحد سيعرف الليلة أنهم يرقصون على مقربةٍ من مقبرةٍ جماعية.

أرفع هاتفي. صدقت إيفا، توجد إشارة كاملة هنا. أتصل بالبيت. أسمع الرنّات في الطرف الآخر رغم الرياح. ثم أسمع صوت أمي: «مرحبًا؟».

أسألها: «ليس الوقت مبكرًا جدًا؟».

- يا إلهي، لا، يا حبيبتي. إننا مستيقظون منذ... أوه، أشعر وكأن ساعاتٍ مرت.

حين يأخذ بن الهاتف منها لا أميز ما يقول؛ صوته عالٍ وصاخب.

أضغط الهاتف على أذني: «ماذا قلت يا عزيزي؟».

- قلتُ مرحبًا يا ماما.

ثمة شيءٌ في وقْع صوته أشعر به في أعماقي، الجذب القوي لرابطتي به. حين أبحث عن وصفٍ أصف به محبتي لطفليَّ، أجد أنه لا يشابه مطلقًا حبي لتشارلي. إنه حب وحشيٌّ، جبار. إنه رابطة الدم. حب العائلة. أقرب ما خطر ببالي كان الحب الذي أشعر به نحو شقيقتي أليس.

يسأل بن: «أين أنتِ؟ كأنك عند البحر. هل هناك قوارب؟». إنه مهووس بالقوارب.

- نعم، أتينا على متن واحد.

- قارب كبير؟

- كبييير.

- تعبتْ لوتي بشدةٍ أمس يا ماما.

أسأل بسرعةٍ: «ما الذي حدث؟».

أشد ما يقلقني هو فكرة أن يصاب أي شخصٍ أحبه بأذى. كنتُ في صغري أصحو ليلًا وأتسلل إلى سرير أختي أليس لأتأكد أنها تتنفس، إذ إن أشنع تصوراتي هو أن تنتزع بعيدًا عني. كانت تقول همسًا: «إنني بخير يا هان (كنت أسمع الابتسامة في صوتها) لكن تعالي ونامي جواري إن أردتِ».

ثم أستلقي هناك، وتعانقني من ظهري، فأشعر بحركة ضلوعها المطمئنة وهي تتنفس.

تدخل أمي في الخط وتخبرني: «لا داعي للقلق يا هان. لقد أكلت كثيرًا البارحة. أبوك المخبول تركها وحدها مع كعكة ڤيكتوريا وأنا في السوق. إنها بخيرٍ الآن يا حبيبتي وهي الآن جالسة على الأريكة تشاهد سي بيبيز، مستعدة للإفطار. استمتعي أنت في عطلتك الرائعة».

لستُ أشعر بهذه الروعة الآن وجوربي مشبّع بالمياه والنسيم يحرق عيني فتدمع. أقول: «حسنًا يا أمي. سأحاول الاتصال غدًا ونحن عائدان. أتمنى أنهما لا يصيبانك بالجنون؟».

تقول أمي: «لا. صراحةً...». لا يفتنني تهدُّج صوتها.

- ماذا؟

- إنهما مصدر تشتيتٍ لطيف. إيجابي. أن أرعى الجيل القادم (تتوقف وأسمعها تستنشق نفسًا عميقًا) كما تعرفين... إنه ذاك الوقت من السنة.

أقول: «أفهمك يا أمي. أشعر به كذلك».

- مع السلامة يا عزيزتي. اعتني بنفسك.

يغمرني فيض من الأفكار فور إنهاء المكالمة. أهذا هو ما تذكّرني به أوليڤيا؟ أليس؟ أجد كل شيءٍ فيها، النحافة والهشاشة والذعر. أتذكّر حين رأيتُ شقيقتي لأول مرةٍ حين عادت إلى البيت من الجامعة لقضاء عطلة الربيع. كانت قد فقدتْ ثلث وزنها. كأنها مريضة بمرضٍ عضال، كأن شيئًا ما كان يأكل جوفها. وكان أسوأ جزءٍ أنها عجزت عن التحدث مع أي أحدٍ عما حدث. ولا حتى أنا.

أسير. ثم أتوقف وأنظر حولي. لستُ متأكدةً أنني أسير في الطريق الصحيحة لكنه ليس واضحًا أي طريقٍ هي الصحيحة. لا أرى القلعة ولا حتى الصيوان من مكاني، إنهما محجوبان خلف الأرض العالية. ظننتُ أن العودة ستكون أسهل لأنني سأعرف الطريق. لكن أشعر الآن بالتيه، حتى أفكاري كانت في مكانٍ آخر تمامًا. حتمًا انعطفتُ في طريقٍ مختلفة، تبدو أوسع من هذه. عليَّ أن أقفز بين رقع العشب الجافة لأتجنب الأجزاء السوداء من الخث

اللين الرطب. أراوغ بصعوبة. ثم أعلق قليلًا وأقفز قفزةً كبيرة. لكني أخطئها، يختل توازني وينزل حذائي المطاطي الأيسر ليس على النتوء العشبيِّ، بل على السطح اللين من الخث.

أغوص. أغوص أكثر. كل شيءٍ يحدث بسرعة. تنفتح الأرض وتبتلع قدمي. يختل توازني، أترنح للوراء فتغوص قدمي الأخرى مع صوت شفطٍ شنيع، إنها سريعة مثلما ابتلع حلق الغاق الأسود السمكة. وخلال لحظاتٍ، يغطي الخث أعلى حذائي الطويل، وأغوص إلى بُعدٍ أعمق. في الثواني الأولى أذهل من الصدمة، مشلولة. ثم أدرك أن عليَّ التصرف، أن أنقذ نفسي. أمدّ يدي لبقعة الأرض الجافة من أمامي وأحكم قبضتيَّ على كتلتين من العشب.

أرفع نفسي. لا شيء يحدث. يبدو أنني علقتُ بسرعة. يا إلهي كم سيكون منظري محرجًا حين أعود إلى القلعة وأنا متسخة هكذا وعليَّ شرح ما حدث. ثم أدرك أنني ما زلتُ أغوص. تتحرك الأرض السوداء أعلى ركبتي، تصل لأسفل فخذيَّ. إنها تمتصني، شيئًا فشيئًا.

لا ألقي لشعوري بالحرج بالًا إطلاقًا. إنني مرتعبة من أعماق قلبي. أصرخ: «ساعدوني!». لكن تبتلع الرياح استغاثتي. محال أن يبتعد صوتي أكثر من عدة ياردات، ناهيك بأن يصل للقلعة. ورغم ذلك، أحاول ثانيةً. أصرخ: «ساعدوني! النجدة!».

تخطر ببالي الجثث في السبخة. أتخيل أيادي عظمية تمتد ناحيتي من سحيق الأرض، متأهبةً لسحبي معها. ثم أشرع في التشبث بالضفة وأصابعي تخدشها، أحاول بكل قوتي جر نفسي لأعلى، أجعر وأزمجر مثل الحيوانات. أشعر وكأن لا شيء يحدث لكن أصر على أسناني وأحاول بقوةٍ أكبر.

ثم ينتابني الشعور الغريزي بأنني مراقَبة. قشعريرة تمر في عمودي الفقري.

- هل أنت بحاجةٍ للمساعدة؟

أجفل. أعجز عن الالتفات بجسدي لأرى من تكلم. يتحرك ببطءٍ حولي ثم يقف أمامي. إنهما اثنان من أصدقاء العريس: دنكن وپيت.

يقول دنكن: «كنا نستكشف الجزيرة. نتعرّف على أسرارها كما تعلمين».

يقول پيت: «لم نكن ندري أننا سننال شرف إنقاذ سيدةٍ في محنة».

تعابير وجهيهما محايدة تمامًا. لكن رُسمت شبه ابتسامةٍ على شفتَي دنكن وأشعر أنهما كانا يسخران مني. ربما كانا يراقبانني وأنا أصارع الأرض. لا أرغب في الاعتماد على مساعدتهما. لكني كذلك لستُ في موقفٍ يسمح لي أن أكون انتقائية.

يمسك كل واحدٍ منهما بإحدى يديَّ. أتمكن أخيرًا، وهما يسحبانني، من انتزاع قدمٍ واحدةٍ من سجنها. أفقد الحذاء وأنا أجر قدمي من سطح السبخة، وتغلق الأرض عليه بنفس سرعة انشقاقها. أسحب قدمي الثانية وأتشبث بالحافة، إنني في مأمن. أظل رابضةً على الأرض للحظةٍ، أرتجف من الإنهاك والأدرينالين، عاجزة عن استجماع أي طاقةٍ أرفع بها قدمي. لا أصدق ما حدث. ثم أتذكّر الرجلين اللذين ينظران إليَّ، كل واحدٍ ممسكٌ بيد. أنهض مترنحةً وأشكرهما بينما أتحرر من يديهما بسرعةٍ مهذبةٍ بما يكفي، أشعر بغتةً بأن عناق أصابعنا يبث حميميةً غريبة. ينحسر الأدرينالين فيتنامى لإدراكي بشاعة منظري وهما يسحبانني، قميصي مرفوع يكشف عن حمّالة صدري الرمادية، ووجهي متعرق ويشتعل نارًا. أدرك أننا وحدنا هنا. رجلان وامرأة.

أقول: «شكرًا يا شباب (أكره ارتعاش صوتي) سأرجع إلى القلعة».

يقول دنكن متشدّقًا: «أكيد. عليك تنظيف كل هذه الفوضى لما بعد».

لا أقدر على تحديد إن كنتُ أنا من يبالغ في التدقيق أو أن طريقة حديثه تنطوي فعلًا على إيحاء ما.

أتجه إلى القلعة. أمشي بأسرع ما يمكنني بقدمي المبتلة وأنا أنتقي المنعطفات الآمنة بعنايةٍ فائقة. أرغب فجأةً في أن أعود داخلها، نعم، أن أعود لتشارلي. أن أترك أبعد مسافةٍ ممكنةٍ بيني وبين السبخة. ولأكون صادقةً، بيني وبين من أسعفاني.

إيفا

مُنظّمة الزفاف

أجلس على المكتب لمراجعة خطط اليوم. أحب هذا المكتب. أدراجه ملأى بالذكريات. صور وبطاقات بريدية ورسائل -اصفرّ ورقها مع الزمن- كُتبت فيها خربشات طفولية بخط اليد.

أدير المذياع على قناة الطقس. تصلنا هنا عدة محطاتٍ تُبث من جالواي.

يقول مذيع الطقس: «من المرجح أن تهب الرياح اليوم. لدينا أدلة متضاربة عن قوتها، لكن في وسعنا القول إن معظم مناطق كونمارا وغرب جالواي ستتأثر بها، لا سيما الجزر والمناطق الساحلية».

يقول فريدي وهو واقف خلفي: «هذا لا يبشر بالخير».

ننصت إلى المذيع في المذياع معلنًا أن الرياح ستعصف تقريبًا حول الخامسة مساءً.

أقول: «سيكون المدعوون بحلول هذا الوقت قد دخلوا الصيوان في أمان، وسيصمد أمام هبّات الرياح. لذا لا داعي للقلق تمامًا».

يسأل فريدي: «ماذا عن مولدات الكهرباء؟».

- ممتازة، أليس كذلك؟ إلا إذا كان ما نترقبه هو عاصفة حقيقية. والمذيع لم يقل أي شيءٍ عن هذا.

إننا مستيقظان مع نور الفجر. حتى إن فريدي ذهب إلى البر بصحبة ماتي ليحضر ضرورياتٍ لم تطرأ إلا في آخر لحظة بينما بقيتُ أنا أتحقق أن كل شيءٍ مضبوط هنا. سيصل منسّق الورود خلال وقتٍ وجيز ليزين الكنسية

والصيوان بتشكيلةٍ من الأزهار البرية المحلية، وقع الاختيار على أزهار ڤيرونيكا وأزهار الأوركيد البرية المرقّشة وأزهار السوسن.

يعود فريدي إلى المطبخ لوضع اللمسات الأخيرة على الأطعمة التي سيحضرها سابقًا: الكانابيه وفواتح الشهية، والمقبلات الباردة من الأسماك المدخّنة التي أتى بها خصيصى من كونمارا. زوجي شغوف بالطعام. يتحدث عن الأطباق التي يفكر فيها بنفس الطريقة التي قد يتحدث بها موسيقيٌّ عظيم عن إحدى مقطوعاته. إنه شغف نابع من طفولته، أخبرني أنه تكوّن من انعدام التنوع في نظامه الغذائيّ حين كان صغيرًا.

أسير إلى الصيوان. يحتل أعلى التلة كما الكنيسة والمقبرة، يبعد قرابة خمسين ياردة من شرق القلعة جوار أرضٍ فسيحة وجافة، بينما تقع سبخة الخث على ناحيته الأخرى. أسمع أقدامًا تركض ركضًا مضطربًا ثم تظهر أمامي، أرانب برية ذاهلة خارج حجورها، نخاريب شقّتها وسط براح الأرض لتقطن بها. تتراكض أمامي لوهلةٍ، تتمايل أذنابها البيضاء، وتضرب سيقانها القوية الأرض وتنطلق، ثم تنعطف خلف العشب الطويل لتتوارى عن نظري. يُحكى عن الأرانب البرية في الأساطير القلطية أنها متحولة. أحيانًا أظن حين أراها هنا بأنها أرواح الهالكين على جزيرة آمبلورا، تعود في حلةٍ جديدة لتركض وسط المروج.

أشرع في تأدية مهامي في الصيوان، أملأ المدافئ، أضع لمساتٍ أخيرة على الطاولات، أوزع القوائم المُعدّة والملونة باليد، أرتب مناديل الكتان في الحلقات الفضية المنقوش على كل حلقةٍ اسم الضيف الذي سيعود بها إلى بيته. سيكون هناك تناقض صادم لاحقًا بين بهاء هذه الطاولات الأنيقة وبين البرية خارج الصيوان. لاحقًا، حين نشعلها، سيفوح المكان بشذى الشموع من كلون كين، صانع عطورٍ حصريٍّ من جالواي، شحنتْ إلى هنا من البوتيك بكلفةٍ ليست زهيدة.

ينتفض الصيوان من حولي وأنا أتحقق من كل شيء. إنه أمر مدهش التفكير في أنه خلال سويعاتٍ ستعج هذه المساحة الخاوية بالناس. النور هنا أصفر وباهت مقارنةً بضوء النهار الفاقع في الخارج، لكن الليلة سيتوهج المكان بأكمله مثل الفوانيس التي نطيرها في سماء الليل. سينظر الواقفون

على البر ويرون أن شيئًا مذهلًا يجري على جزيرة آمبلورا، الجزيرة التي لا تأتي سيرتها إلا بأنها مكان ميت، جزيرة مسكونة، كأنها لا توجد إلا في الماضي. إن أديتُ وظيفتي كما يجب، فإن هذا الزفاف سيقنعهم جميعًا بالحديث عن حاضرها.

- طق طق!

ألتفتُ. إنه العريس، يده مرفوعة ويتظاهر بأنه يطرق القماش كما لو أنه باب حقيقيٌّ.

يقول: «أبحث عن صديقين شاردَين. علينا أن نرتدي بذلاتنا الصباحية الآن. ألم تلحظي أي أثرٍ لهما؟».

أقول: «أوه... صباح الخير. لا. لا أظن. هل نمتَ جيدًا؟».

ما زلتُ لا أصدق أنه هو، بشحمه ولحمه، ويل سلاتر. شاهدتُ أنا وفريدي مسلسله «النجاة من الليل» من بدايته. لم آتِ على ذكر هذا للعروس أو العريس كيلا يقلقا حيال أننا مهووسان مخبولان سيتسببان في إحراجهما ونفسيهما معًا.

يجيب ويل: «جيد. جيد جدًا».

إنه وسيم للغايةِ في الواقع أكثر مما يبدو على التلفاز. أمدّ ذراعي لأعدّل شوكةً في حالة كنتُ أحدق إليه. في وسع المرء معرفة أنه كان دائمًا على تلك الشاكلة. يكون بعض الناس غريبي الأطوار وفقيري الوسامة في طفولتهم، لكنهم يكبرون فاتنين. لكن يتحلى هذا الرجل بوسامته بأريحيةٍ وأناقة. أظنه يستخدمها بأثرٍ كبير ومن الواضح أنه واعٍ بقوتها. كل حركةٍ تصدر منه تشبه مراقبة عمل ماكينةٍ مضبوطةٍ بدقةٍ فائقة، مثل حيوانٍ في أجمل خلقٍ له.

أقول: «إنني سعيدة أنك نمت جيدًا».

يقول: «رغم أننا واجهنا مشكلةً صغيرةً قبل أن نخلد للنوم».

- ماذا؟

- وجدنا طحالب أسفل اللحاف. مقلب صغير أعدَّه أصدقائي.

أقول: «يا إلهي! أنا آسفة بشدة. كان عليك أن تبلّغني أنا أو فريدي. كنا سنرتب الوضع ونحضر لك أغطيةً جديدة».

يقول: «لا تعتذري أبدًا (تلك الابتسامة الساحرة ثانيةً) سيظل الفتيان فتيانًا (يهز كتفيه) وإن كان چونو فتى متضخمًا قليلًا».

يقترب مني ويقف جواري، قريب مني بما يكفي لأشم عطر حلاقته وأحدد نوعه. أخطو خطوةً للوراء. ثم يتابع: «المكان هنا رائع يا إيفا. مذهل للغاية. عملك عظيم».

أجيبه: «شكرًا لك». لا تدعو نبرتي لاسترسال الحديث. لكن أتصور أن ويل سلاتر غير معتادٍ على وجود أناسٍ لا يرغبون التحدث معه. أفهم، حين لا يبرح مكانه، أنه قد يرى صلافتي معه تحديًا.

يسألني ورأسه مائل على الجنب: «إذًا ما قصتك يا إيفا؟ ألا تشعرين بالوحدة بالعيش هنا، وحدكما هنا؟».

أتساءل إن كان مهتمًا اهتمامًا حقيقيًّا أم يزيفه ببساطة؟ لمَ يرغب أساسًا أن يعرفني؟ أهز كتفيَّ بلا مبالاةٍ وأجيب: «لا، ليس بالضبط. إنني من محبي العزلة على أي حال. ولأكون صادقةً فإن الحياة في الشتاء تبدو مثل مسلسك. لذا فإننا نعيش هنا في الصيف فقط».

- لكن كيف انتهى المطاف بكما هنا؟

يبدو فضوله صادقًا فعلًا. إنه واحد من الناس القادرين على إقناعك بأنهم مأخوذون بكل كلمةٍ تنطقها. هذا جزء من سحره على ما أظن.

أقول: «كنتُ آتي إلى هنا في عطلات الصيف. وأنا صغيرة. عائلتي، كلنا كنا نأتي إلى هنا».

لا أتحدث عادةً عن ذاك الزمن. هناك الكثير في جعبتي قد أخبره به. عن مثلجات الفراولة الرخيصة على الشواطئ بيضاء الرمال، عن احمرار ألسنتنا وشفاهنا من ألوان الطعام. عن برك الصخور الممتدة على الناحية الأخرى من الجزيرة، نفلّي شباكنا بأصابع متلهفة علنا نجد روبيانًا وسلطعونًا صغيرًا شفاف الجسم. عن اللعب في البحر الفيروزيِّ أسفل الخلجان المحجوبة عن السماء حتى تعتاد أجسادنا الهواء القارس. لن أخبره أيًّا من هذا طبعًا، لن يكون هذا لائقًا. أحتاج أن أحافظ على الحدود الأساسية بيني وبين الضيوف.

يقول: «آها. لم أظن أنك تتحدثين باللهجة المحلية». أتساءل عما توقعه بالضبط. هل يريدني أن ألوي لساني وأن أردد:
«Top O' The Morning To Ya» وأحيط المكان من حولي بالبرسيم ومخلوقات الليبريكان؟

أقول: «لا. لهجتي لهجة دبلن، التي ربما يبدو وقْعها أضعف قليلًا. لكني عشتُ كذلك في أماكن كثيرة. كنا نتنقل كثيرًا في طفولتي، بسبب عمل والدي، كان أستاذًا في الجامعة. عشنا في إنجلترا فترةً، وفي الولايات المتحدة كذلك».

- التقيتِ فريدي في الخارج؟ إنه إنجليزي، أليس كذلك؟

ما زال مهتمًا، فاتنًا. يربكني هذا بعض الشيء. أتساءل عما يود معرفته بالضبط.

أخبره: «التقيتُ فريدي منذ وقتٍ بعيد».

يبتسم تلك الابتسامة المعنية البديعة: «حبيبٌ من الطفولة؟».

- لك أن تقول هذا.

ليس صحيحًا بالمرة. يصغرني فريدي بعدة أعوامٍ وكنا صديقين في البداية، لسنواتٍ كثيرةٍ قبل أن يجدّ جديد. أو ربما لم نكن صديقين حتى، بل تمسكنا ببعضنا بعضًا كلما هجم طوفان على حياة أحدنا. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تتحول أمي إلى قشرةٍ من المرأة التي كانتها يومًا. قبل نوبة أبي القلبية بعدة أعوام. لكني لن أخبر العريس بكل هذا. من المهم في هذه المهنة ألا تسمح لنفسك أبدًا بأن تبدو إنسانًا عُرضةً لارتكاب الأخطاء.

يقول: «أفهم».

أقول بسرعةٍ قبل أن يتكون السؤال التالي على شفتيه، أيًّا كانت فحواه: «إذن، إن لم تمانع، يجدر بي أن أكمل العمل».

يقول: «أكيد. بعض من مدعوينا الليلة عرابيد في الحفلات يا إيفا. أتمنى ألا يتسببوا في فوضى عارمة». يزيح شعره للوراء ويبتسم لي بطريقةٍ أظن أن المقصود بها أن تكون آسفةً ومنتصرة. تنجلي أسنانه ناصعة البياض حين يبتسم. بل في الواقع فاقعة لدرجةٍ تحثني على التساؤل إن كان يبيضهم تبييضًا خاصًا.

ثم يقترب مني ويضع يدًا على كتفي: «إن عملك خياليٌّ يا إيفا. شكرًا لك».
تظل يده في مكانها وقتًا أطول من اللازم، أشعر بدفء راحة يده تتسلل عبر قميصي. فجأةً أعي أن لا أحد سوانا في هذا المكان الخاوي.

أبتسم -أشد ابتساماتي تهذيبًا واحترافيةً- وأخطو خطوةً قصيرةً للوراء. أظن أن رجلًا مثله مدركٌ كل الإدراك بسلطانه الجنسيِّ. يبدو سحرًا في أوله ثم تحته شيء أخبث، أعقد. لا أظنه منجذبًا لي في الواقع، لا شيء من هذه الشاكلة. إنه يضع يده على كتفي لأن في استطاعته وضعها هناك. ربما أنا من أتعمق في تحليل الإيماءة. لكن كأنها تذكير بأنه المسيطر هنا، بأنني أعمل عنده. بأن عليَّ أرقص على وقْع نغماته.

الآن

ليلة الزفاف

يدلف فريق البحث في رحم الظلمة. تبطش بهم الريح من فورها، هجومها الصراخ. تموج شعلات مشاعل البرافين وتهسّ وتهدد بخمودها. تدمع أعينهم، تصفّر آذانهم. يجدون أنفسهم يدفعون الرياح دفعًا برؤوسٍ منحنيةٍ كأنها كتلة صلبة.

يتدفق الأدرينالين في أجسادهم، إما هم وإما قوى الطبيعة. يرجّع بداخلهم شعورًا من أيام الصبا -عميقًا، عصيًّا على التسمي، ضاريًا- لا تختلف كل ذكريات الليل المحرّضة مجتمعةً عن هذه. هم في مجابهة الظلمة.

يتقدمون، ببطءٍ. فسحة الأرض الطويلة بين الصيوان والقلعة، تطوّقها سبخة الخث من كل اتجاه، هنا سيبدأ بحثهم.

ينادون: «هل من أحد هنا؟»، «هل تأذّى أحد؟»، «هل تسمعنا؟».

صمت مطبق. يبدو أن الرياح تبتلع أصواتهم. يصرخ فيمي: «ربما علينا أن نفترق! لنسرّع البحث».

يجيبه آنجس: «هل جننت؟ والسبخة تطوّق المكان؟ لا أحد يعرف أين أولها. ليس في الظلام! لست... لست خائفًا. لكن لن أحب أن أعثر على... تعرف، الخراء وحدي».

لذا يبقون على مقربةٍ من بعضهم بعضًا، في مسافة النظر.

يصرخ دنكن: «أكيد أنها صرخت بكل قوتها. تلك النادلة. كي يصل صوتها إلى هناك».

يصرخ آنجس: «حتمًا كانت مرعوبة».

- هل أنت خائف يا آنجس؟

- لا. إليك عني يا دنكن. لكن... لكن الرؤية صعبة فعلًا.

تاهتْ كلماته وسط عصفةٍ شرسةٍ من الريح. وفي زخّةٍ من الشرر، خمد اثنان من المشاعل مثلما تخمد شموع أعياد الميلاد. لكن لا يترك حاملوهم الركائز المعدنية، يرفعونها أمامهم مثل السيوف.

يصرخ آنجس: «في الحقيقة... أنا خائف قليلًا. هل هذا عيب؟ ربما لست مستمتعًا بوجودي وسط عاصفةٍ لعينة... أو لستُ متطلعًا لما قد نعثر عليه....».

تقاطع كلماته بصرخةٍ هلوع. يلتفتون، يرفعون مشاعلهم فتقع أبصارهم على پيت يحاول التشبث بالهواء ونصف ساقه السفلي مغمور في الأرض.

يصيح دنكن: «أيها الغبي اللعين! لقد ابتعدتَ عن النواحي اليابسة». لكن تغمره الراحة، تغمرهم جميعًا. ظنوا للحظةٍ أن پيت وجد شيئًا. جرّوه خارجًا.

يصرخ دنكن بينما يربض پيت حرًا على ركبتيه ويداه أسفل أقدامهم: «بحق المسيح. أنت ثاني من ننقذه اليوم. وجدتُ أنا وفيمي زوجة تشارلي تئن مثل خنزيرٍ محشور صباح اليوم في هذه السبخة اللعينة».

يقول پيت بصوتٍ كالعويل: «الجثث... في السبخة».

يصرخ دنكن بغضب: «پيت، كُف عن هذا! لا تكن أحمق (يؤرجح المصباح قرب وجه پيت، ثم يديره نحو الآخرين) انظروا إلى عينيه. لقد فقد عقله. كنت أعرف هذا. لمَ أحضرناه معنا؟ إنه عبء لا طائل منه».

يرتاحون جميعًا حين يصمت پيت. لا أحد يذكر سيرة الجثث ثانيةً. إنها حكاية أسطورية، يعرفون هذا. في وسعهم صرف تفكيرهم عنها، ربما بصعوبةٍ تتجاوز مقدرتهم إن كانوا في وضح النهار، حين كان كل شيءٍ مألوفًا لعيونهم. لكن ليس بوسعهم صرف تفكيرهم عن هدف مهمتهم، ما هم بصدد العثور عليه. تحدق بهم أخطار حقيقية هنا، الأرض غريبة وخوّانة في الظلمة الحالكة. الآن فحسب بدؤوا في استيعاب الأمر. في فهْم أنهم عُزّل وفي العراء.

صباح اليوم

چولز

العروس

أفتح عيني. حلَّ اليوم العظيم.

لم أنم جيدًا البارحة وراودني حلم عجيب: تداعت الكنيسة المهدّمة إلى ترابٍ من حولي وأنا أسير عبرها. أصحو مستاءةً وضجرةً. إنه قلق آثار الثمالة من كأسٍ أو أكثر بلا شك. وأنا واثقة أنني ما زلتُ أشم نتانة الطحالب العالقة، رغم مرور ساعاتٍ على إزالتها.

أول ما فعل ويل هو أن انتقل إلى الغرفة الفارغة حسب التقاليد، لكني أتمنى لو أنه معي هنا. لا يهم. سيحثني الأدرينالين وقوة إرادتي على المضي قدمًا، عليهما أن يفعلا هذا.

أنظر إلى الثوب، يتدلى من شمّاعته المبطنة. تتراقص أجنحة نسيجه الواقي برقةٍ مع النسيم المستتر. عرفتُ مع الوقت أن هناك تياراتٍ في هذا المكان تشق طريقها سرًا إلى داخل المكان رغمًا عن الأبواب المغلقة والنوافذ المطبقة. تدور في الهواء وتتقافز، تقبّل عنقك، وتبث وخزاتٍ على طول عمودك الفقري، رقيقة رقة لمسةٍ من الأنامل.

أرتدي أسفل ثوبي الحريري اللانچيري الذي انتقيتُه خصيصى من أجل اليوم من «كوكو دي مير» (Coco de Mer) من دانتل ليڤرز الأرقّ والأرهف، دقيق دقة شباك العنكبوت، وبلونٍ كريميٍّ يليق بالعروس. تقليدي للغاية عند

أول نظرة. لكن يتزين السروال بخيطٍ من الأزرار الدقيقة من اللؤلؤ المصفى، ويمكن فتحها. لطيف في بدايته، ولعوب في نهايته. أعرف أن ويل سيحب استكشافه لاحقًا.

تشد انتباهي رجفة من حركة عبر النافذة. في الأسفل عند الصخور، أرى أوليڤيا. ترتدي الكنزة المهلهلة ذاتها والبنطال الچينز الممزق كما البارحة، تخطو قدمها العارية خطواتٍ متأنية نحو الحافة، حيث تتكسر أمواج البحر على الجرانيت في انفجاراتٍ هائلةٍ من المياه البيضاء. لمَ بحق السماء لا تتجهز كما ينبغي لها أن تفعل؟ رأسها منحنٍ، وكتفاها متراخيتان، يتطاير شعرها في فتيلٍ متشابكٍ خلفها. تأتي لحظة تكون شديدة القرب من الحافة، من عنف المياه، لدرجة أن أنفاسي تنحبس في حلقي. قد تسقط ولا أتمكن من الوصول إليها في الوقت المناسب لأنقذها. قد تغرق أمامي هناك بينما أقف أنا مكتوفة اليدين.

أطرق النافذة لكن أظنها تتجاهلني أو -أعترف أن هذا هو الاحتمال الأرجح- أنها لا تسمعني بالمرة من صوت الأمواج. لكن ولحسن الحظ، يبدو أنها تتراجع إلى الوراء عن الحافة.

حسنًا. لن أقلق عليها. آن أوان الاستعداد. كان في وسعي أن آتي بسهولةٍ بفنانة تجميلٍ شحنًا من اليابسة، لكن محال أن أضع وجهي تحت رحمة شخصٍ آخر في يومٍ مهمٍ كهذا. إن كانت كيت ميدلتون قد جمّلت نفسها بنفسها، فلمَ لن ينفع الأمر معي؟

أمدّ ذراعي لآتي بحقيبة المساحيق لكن رجفة مباغتة تضرب يدي فتهوي الحقيبة كلها على الأرض.

اللعنة. لم أكن قط قط ملخومةً هكذا. هل أنا... متوترة؟

أنظر إلى الأشياء المبعثرة أرضًا، تتدحرج العلب الذهبية البراقة من المسكارا وحمرة الشفاه في محاولةٍ لنيل حريتها على لوحات الأرضية، وعلبة البودرة الغامقة تُخلّف وراءها ذيلًا من مسحوقٍ برونزيٍّ.

وهناك، وسط هذه الفوضى، ترتمي ورقة صغيرة مطوية، أطرافها ملوثة بالسخام. يجمّد مرآها الدم في عروقي. أحدق إليها، عاجزةً عن الإشاحة

بنظري بعيدًا. كيف يمكن أن شيئًا بهذا الصغر يحتل مساحةً جبارة في عقلي على مر الشهرين الماضيين؟

لمَ احتفظتُ بها بحق السماء؟

أفردها على الرغم من أنني لستُ بحاجة لرؤيتها؛ كلماتها ملتصقة في ذاكرتي.

«ويل سلاتر ليس الرجل الذي يدّعيه.

إنه خائن وكذاب. لا تتزوجيه».

إنني واثقة أن مرسلها شخص غريب الأطوار مختل العقل. يتلقى ويل رسائل بريدية من أشخاصٍ يعتقدون أنهم يعرفونه ويعرفون حياته حق المعرفة. وأحيانًا أنال نصيبًا من سخطهم. أتذكّر يوم نشرتُ صورةً لنا على الإنترنت. «ويل سلاتر يتسوق بصحبة خليلته چولز كيجان».

ورغم معرفتي -أعرف دائمًا- بأنها فكرة مريعة، وجدتُ نفسي أتصفح التعليقات أسفل الخبر. يا إلهي! شهدت هذه الكراهية سابقًا لكن حين تتوجه إليك مباشرةً تشعر بأن خبثها لا مثيل له، بأنها شديدة الخصوصية. كانت قراءتهم كالوقوف في غرفةٍ تردد صدى أبشع أفكاري عن نفسي.

- يا إلهي إنها تظن نفسها جميلة!

- كأنها عاهرة.

- ألم تسمعي يا بنت أنه لا يفترض بك النوم مع رجلٍ أنحف منك؟

- ويل! أحبك! اخترني بدلًا منها. إنها لا تستحقك...

- يا إلهي أكرهها من مجرد النظر إليها. بقرة متعجرفة.

تقريبًا كل التعليقات كانت على تلك الشاكلة. عجزتُ عن تصديق أن هناك غرباء كثرًا يكنون لي نقدًا لاذعًا كريهًا كهذا. وجدتني أستمر في القراءة حتى وجدتُ تعليقين في صفي:

- إنه يبدو سعيدًا. ستناسبه كثيرًا!

- بالمناسبة إنها صاحبة ذا داونلود، مجلتي المفضلة على الإطلاق! إنهما لطيفان معًا.

حتى تلك التعليقات اللطيفة كانت مربكةً بطريقتها الخاصة، الشعور بأنهم على معرفةٍ بويل، على معرفةٍ بي أنا! أنهم أهل للتعليق عما سيسعده. ليس ويل نجمًا شهيرًا. لكن في معدل شهرته هذا تصلك أشياء أكثر من هذه الشاكلة، لأنك لم تعلُ فوق ظن الناس بأنهم يمتلكونك.

لكن أمر الرسالة يختلف عن تعليقات الإنترنت. إنها شخصية أكثر. لقد أُدرجت في صندوق البريد بلا طوابع، يعني أنها سُلِّمت باليد. أيًّا كان من كتبها فهو يعرف مقر سكني. أتى، أو أتت، إلى بيتنا في إزلنجتون، الذي كان منزلي وحدي، قبل أن ينتقل ويل إليه مؤخرًا. ليس مرجحًا، بالتأكيد، أنه مجرد عابرٍ غريب الأطوار. أو لربما يكون أسوأ أنواع غريبي الأطوار. لكن يخطر ببالي أنه ليس مستبعدًا أن يكون شخصًا نعرفه. بل حتى قد يكون شخصًا سيأتي إلى الجزيرة اليوم.

ألقيتُ الرسالة ليلة وصولها في موقد الحطب. مرت ثوانٍ قبل أن ألتقطها ثانيةً، احترق رسغي وقتها. ما زالت الندبة موجودة، أثرًا ورديًّا متورمًا ولامعًا على الجلد الرقيق. كلما تقع عيني عليها أتذكّر الرسالة في مخبئها السريّ. كلمتان قصيرتان:

«لا تتزوجيه».

أمزق الرسالة نصفين. أمزقها ثانيةً وثالثةً حتى تغدو الورقة نثارًا. لكن هذا ليس بكافٍ. آخذها إلى الحمام وأسحب السلسلة، أراقبها بتمعنٍ حتى تختفي قصاصاتها كلها، تدور في المرحاض. أتخيلها تسافر عبر المواسير، إلى المحيط الأطلسي، المحيط ذاته الذي يطوّقنا. تكدرني الخاطرة أكثر من اللازم.

على أي حال، إنها خارج حياتي الآن. رحلتْ. لن أفكر فيها ثانيةً. أتناول فرشاة شعري ومقوّس حاجبيَّ ومسكاراتي، ترسانتي، كنانتي.

اليوم سأتزوج وسيكون يومًا لا مثيل له.

الآن

ليلة الزفاف

- يا للهول، من الصعب الاستمرار وسط هذا.

يضع دنكن يده ليحمي وجهه من الرياح اللاسعة، ملوحًا بمصباحه مع الآخرين فيطلق رشًّا متطايرًا من الشرر. ثم تابع: «هل يرى أحدكم أي شيء؟».

لكن عن أي شيءٍ يسأل؟ كان هذا هو السؤال المحيِّر لأفكارهم. يتذكّر كل واحدٍ منهم كلمات النادلة: «جثة». كل تكتلٍ وكل نتوءٍ هو مصدر محتمل للفزع. لا تساعد المشاعل التي يرفعونها أمام وجوههم كما ينبغي لها. بل لا خدمة تؤديها إلا أن تجعل الليل من حولهم موغلًا في سواده.

يصرخ دنكن: «كأننا عدنا إلى المدرسة من جديد. نتسلل ليلًا. هل سينجو أحد الليلة؟».

يصرخ فيمي: «لا تكُن أبله يا دنكن. أنسيت ما نبحث عنه؟».

- طيب. لا يجدر بنا أن نسميها لعبة النجاة هوه.

يصرخ فيمي: «هذا ليس مزاحًا».

- حسنًا حسنًا يا فيمي! اهدأ. كنت أحاول تلطيف الأجواء.

- لا أظن أنه وقت مناسب لهذا أيضًا (يلتفت دنكن له) إنني أقف هنا في الخارج أبحث أيضًا، أليس كذلك؟ أفضل من الملاعين الجبناء في الصيوان.

يصرخ آنجس: «لم تكن لعبة النجاة لعبةً طريفة. أليس كذلك؟ أعي هذا الآن. إنني... اكتفيتُ من الادعاء بأنها كانت مقلبًا. لقد كانت خبلًا خالصًا.

كان ممكنًا أن يموت أحدهم... بل مات واحد بالفعل. وسمحت المدرسة لنا بمواصلة...».

يقاطعه دنكن: «كان ذلك حادثًا. حين مات الفتى. لم يكن بسبب اللعبة».

يصرخ آنجس: «حقًا؟ وكيف عرفت هذا؟ فقط لأنك أحببت كل ذاك الخراء السخيف. أعرف أنك استمتعت حين أتى دورك لتفزع الأولاد الأصغر سنًا. الآن تعجز عن التسكع في الأرجاء وتمارس تنمرك الساديّ، صحيح؟ أراهن على أنك لم تحظَ بإثارةٍ منذ...».

نادى فيمي، منادي السلام: «شباب! ليس الآن بوقتٍ مناسبٍ».

خيّم الصمت فترةً بينما يواصلون تثاقل خطاهم عبر الظلمة، وكل واحدٍ وحيد بصحبة أفكاره. لم يخُض أحدهم طقسًا كهذا من قبل قط. تأتي الرياح وتروح في هبّاتٍ عاصفة. أحيانًا تخبو بما يكفي ليسمعوا صوت أفكارهم. لكنها كانت تلملم نفسها للانقضاض التالي، همهمة منهمكة، كصوت جمعٍ غفيرٍ من آلاف الحشرات. وفي ذروتها تطلق عواءً مروعًا كأن شخصًا يزمجر، كأنها صدى لصرخة النادلة. تصفع جلودهم كما السياط، وتعمي أعينهم بالدموع. تدفعهم للتكشير عن أنيابهم، بينما هم بين أنيابها.

- لا يشعر أيٌّ منكم بأن ما يجري حقيقيٌّ، أليس كذلك؟
- ما هو يا آنجس؟
- أاال تعرفون. كنا في الصيوان منذ لحظاتٍ، نرقص ونلتهم كعكة الزفاف. الآن نحن هنا في العراء، نبحث عن... (يستجمع أشلاء شجاعته لينطق بها بصوتٍ عالٍ) جثة. ما ظنكم فيما حدث؟

يجيبه دنكن: «ما زلنا لا نعرف ما نبحث عنه. إننا نسير وراء كلمةٍ قالتها طفلة».

- نعم، لكنها كانت واثقة للغاية...

يقول فيمي بصوتٍ عالٍ: «الكثير هنا سكارى. انفلتت الأمور من عقالها جديًا. ليس أمرًا يصعب تصوره، أليس كذلك؟ أن أحدًا يتجول خارج الصيوان في الظلام، ويتعرض لحادث...»

يسأل دنكن: «ماذا عن تشارلي هذا؟ كان في حالةٍ يرثى لها».

يصرخ فيمي: «صحيح. كان حتمًا في أسوأ حالته. لكن بعد ما فعلناه به في حفل العزوبية...».

- دعنا لا نتحدث كثيرًا عنها يا فيمي.

صرخ دنكن: «لكن هل رأيتم تلك الوصيفة؟ هل خطر على بال أحدٍ ما خطر ببالي؟».

يجيبه آنجس: «ماذا؟ أنها كانت تحاول.... ممم، كما تعلم».

يصرخ دنكن: «تقتل نفسها؟ نعم، ظننتُ هذا. إنها تتصرف بغرابة منذ وصولنا هنا، أليس كذلك؟ واضح أن حالتها ميؤوس منها. لن يكون مفاجئًا إن أقدمت على فعل شيءٍ غبـ...».

صرخ پيت يقاطعه: «أحدهم قادم (يده تشير إلى الظلمة) أحدهم قادم إلينا...».

- اخرس يا أحمق (يستدير دنكن إليه) يا للهول، إنه يثير أعصابي. علينا أن نعيده إلى الصيوان وإلا قسمًا...

- لا (في صوت آنجس رجفة) إنه محق. يوجد شيء ما هناك...

يستدير بقيتهم، يشكّلون دائرة متعثرة، يرتطمون ببعضهم بعضًا، يحاربون شد أعصابهم. يصمتون محدقين خلف ظهورهم، في عين الليل.

يومض نور وسط الظلمة، نحوهم. يرفعون مشاعلهم، يبذلون جُلّ جهدهم لرؤية القادم.

يصرخ دنكن في شيءٍ من الراحة: «أوه! إنه هو... ذاك الرجل السمين، زوج منظمة الزفاف».

يقول آنجس: «لكن، لحظة. ما هذا... الذي في يده؟».



صباح اليوم

أوليڤيا

وصيفة العروس

أرى من النافذة الزوارق تحمل مدعوي الزفاف على متنها إلى الجزيرة، أطيافًا سوداء بعيدة على سطح المياه، لكنها تقترب. أزف الموعد. ويفترض بي أن أستعد، الله وحده يعلم أنني مستيقظة. صحوت بألمٍ في صدري ورأسي يدق، خرجت لأشم هواءً منعشًا. لكن الآن أجلس في غرفتي، أرتدي حمّالة الصدر والسروال. لا أقدر على حمل نفسي لأبدّل ملابسي وأرتدي الثوب. وجدتُ بقعة قرمزية طفيفة على الحرير فاتح اللون مكان القطع الصغير الذي قطعتُه على ردفي، مؤكد أنه نزف البارحة بعض الشيء وأنا أقيسه. حمدًا لله أن چولز لم تلاحظ. قد تفقد صوابها فعلًا. نظّفتُه في حوض الحمام في نهاية الصالة بالماء البارد والصابون. زالت تقريبًا الآن، حمدًا لله. تركتْ بقعةً باهتةً ذات لونٍ ورديٍّ أغمق، كأنها تذكار صغير.

ذكّرتني بدماء الأشهر المنصرمة. لم أكن أدري أنه سيكون كثيرًا لهذا الحد. أغمض عيني. لكن أراه هناك أيضًا، أسفل جفنيَّ.

أنظر من النافذة ثانيةً، وأفكر في كل الواصلين الجدد. أشعر بالاختناق في هذا المكان منذ وصولنا، كما لو أنه ما من مهرب، ما من مكانٍ ألجأ إليه... لكن سيزداد سوءًا على سوئه اليوم. في غضون أقل من ساعةٍ، سترسل چولز في طلبي وسيكون عليَّ السير في الممر أمامها، وكل العيون ستحدِّق إلينا. وبعدها سيأتي كل هؤلاء الناس -الأقارب والأغراب- الذين سيتحتّم عليَّ

التحدث معهم. لا أظن أن بوسعي فعل كل هذا. فجأةً أشعر أنني عاجزة عن التنفس.

أفكر في المرة الوحيدة التي شعرتُ بها أنني أحسن حالًا، مذ أتيتُ هنا، كانت البارحة في الكهف وأنا أتحدث مع هانا. لم أكن قادرةً على الحديث مع أي أحدٍ مثلما تحدثتُ معها، ولا حتى أصدقائي، ولا أي أحد. لست أدري ما المميز بها. ربما لأنها بدت مختلفةً عن الجميع، كأنها هي الأخرى تحاول الاختباء من كل شيءٍ مثلي.

يمكنني أن أقوم وأبحث عن هانا، أن أتحدث معها الآن. أخبرها بقية الحكاية. أبوح بكل ما بصدري. تصيبني الفكرة بالدوار والغثيان. لكن لربما يتحسن شعوري وقتها كذلك، بطريقةٍ ما، أن أخفف ولو قليلًا من عجزي عن إيصال الهواء لرئتي.

ترتعش يداي وأنا أرتدي بنطالي وكنزتي. لا رجعة بعد أن أخبرها. لكني حسمتُ أمري. عليَّ أن أخبرها قبل أن أجن بالكامل. أتسلل من غرفتي. أشعر كأن قلبي صعد إلى حلقي، ينبض بشدةٍ فلا أقوى على ابتلاع ريقي. أمشي على أطراف أصابعي عبر حجرة الطعام، أصعد السلّم. عليَّ ألا أصادف أحدًا في طريق، إن حدث فسوف تخور شجاعتي.

تقع غرفة هانا في نهاية الردهة الطويلة. أقترب منها ويتناهى إلى سمعي همهمات تأتي من الداخل، تعلو شيئًا فشيئًا.

أسمع: «حبًّا بالله يا هان! إنك تتصرفين بسخفٍ لا مثيل له...».

الباب مفتوح فتحةً ضيقة. أقترب قليلًا. هانا متوارية لكن أرى تشارلي يرتدي ملابسه الداخلية فحسب، يقبض بيده على حافة خزانة الأدراج كأنه يحاول كبح غضبه.

أتجمد مكاني. أشعر كأنني رأيتُ شيئًا لا يجدر بي رؤيته، كأنني أتجسس عليهما. لم أفكر بغبائي أن تشارلي سيكون في الغرفة كذلك، تشارلي الذي كنتُ معجبةً به إعجابًا محرجًا مخجلًا في مراهقتي. لا أقدر. ليس ممكنًا أن أقرر الصعود للطابق العلوي وطرق الباب، وأطلب من هانا أن تتحدث معي... ليس وهما نصف عاريَين، ومن الواضح أنهما وسط شجارٍ الآن. ثم ينخلع قلبي فزعًا حين يُفتَح باب من خلفي.

- أوه! مرحبًا أوليڤيا.

إنه ويل. يرتدي بنطال بذلةٍ وقميصًا أبيض مفتوحًا ويكشف عن صدره الأسمر مفتول العضلات. وبسرعةٍ أشيح بنظري بعيدًا عنه.

يقول: «ظننتُ أنني سمعتُ صوتًا في الخارج (يقطّب وجهه) ماذا تفعلين هنا؟».

أجيب، أو أحاول أن أجيب إذ لا صوت يخرج من حلقي سوى همس خشن: «لا.. لا شيء». ألتفت لأعود أدراجي.

أجلس في غرفتي على السرير. فشلتُ. فات الأوان وخسرت فرصتي. كان عليَّ أن أجد طريقةً لأخبر هانا البارحة. أنظر من النافذة إلى الزوارق المقبلة، إنها أقرب الآن. ينتابني إحساس بأنهم آتون حاملين معهم شرًا إلى الجزيرة. لكن هذه سخافة. لأن الشر وصل إلى هنا بالفعل، أليس كذلك؟ أنا الشيء السيئ. ما فعلته أنا.

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

يصل المدعوون. أراقب اقتراب الزوارق من المرفأ، متأهبةً للترحيب بهم. أبتسم وأومئ محاولةً أن أكون واجهةً للياقة. أرتدي ثوبًا كحليًّا خاليًا من أي زينة وحذاءً بكعبٍ عريضٍ منخفض. إطلالة أنيقة، لكن ليس مبالغًا بها. لن يكون لائقًا إن بدوتُ مثل بقية الضيوف. لكن ليس عليَّ القلق حيال هذا، إذ من الواضح أنهم بذلوا جهدًا جهيدًا في تنسيق ملابسهم، أقراط لامعة وكعوب عالية على نحوٍ مؤلم وحقائب صغيرة ودثائر من الفراء الطبيعي (صحيح أننا في يونيو لكنه صيف أيرلندا البارد). بل حتى أرى عدة قبعات هنا وهناك. أظن أنه حين يكون مضيّف الحفل نجمًا سينمائيًّا ومؤسسة مجلةٍ نسائية، فعلى المرء أن يدخل بكل قوته.

يترجل المدعوون من الزوارق في مجموعاتٍ من ثلاثين شخصًا أو نحوه. أراهم ينتشرون في الجزيرة، وأشعر باعتزازٍ شخصيٍّ عارمٍ. سنكون مئةً وخمسين شخصًا الليلة، هذا جمع غفير من الناس لنعرّفهم على جزيرة آمبلورا.

يسألني رجل في عجلةٍ من أمره: «أين أقرب حمام؟»، يبدو متعبًا وشاحبًا، يشد ياقة قميصه وكأنها تخنقه. بل في الواقع يبدو أن عددًا لا بأس به من الضيوف في حالةٍ سيئةٍ خلف ملابسهم المتأنقة. لكن الجو ليس هائجًا الآن، يتباين لون المياه بين الأبيض والفضي، فاقع لونها ونور الشمس البارد ينكسر عليها فيصعب النظر إليها. أحجب عينيَّ وأبتسم بكياسةٍ وأشير لهم

نحو الطريق. ربما عليَّ أن أعرض عليهم مسكناتٍ لتخفيف دوار البحر القوي لرحلة عودتهم إن صار الجو عاصفًا كما أشاروا في أخبار الطقس.

أتذكّر أول مرةٍ أتينا فيها هنا ونحن أطفال، حين ترجلنا من العبّارة القديمة. لم نشعر بدوار البحر، ليس حسبما أتذكّر. كنا نقف على سطحها ونتشبث بالسياج، ونصرخ بينما نعلو مع الأمواج، وتأتي المياه في دفقاتٍ جسيمة تغرقنا فيها. أتذكّر أننا كنا نتظاهر بأننا نمتطي تنينًا بحريًا عملاقًا.

كانت تلك الناحية من العالم دافئةً ذاك الصيف، فتجففنا الشمس بسرعة. كما أن الأطفال أقوياء، كنتُ أركض على الشاطئ نحو المياه كما لو أنها أتفه شيءٍ في الوجود. أظن أنني لم أكن قد اكتسبتُ احتراسي من البحر بعد.

ينزل زوجان أنيقان في الستينيات من عمرهما من الزورق الأخير. أدرك فورًا، بطريقةٍ ما، وقبل أن يعرّفاني بنفسيهما أنهما والدا العريس. استقى وسامته من أمه، وربما لون شعره أيضًا، رغم أن شعرها أشيب الآن. لكن لا تتحلى بأيٍّ من ثقته السلسة بذاته. بل تترك انطباعًا بأنها تحاول التواري عن الأعين، حتى ثيابها تنمّ عن هذا.

قسمات وجه والده أحدّ وأقسى. لن تصف رجلًا مثله بأنه وسيم، لكنك قد ترى وجهه كوجه تمثال إمبراطور روماني؛ الحاجبان المقوسان والأنف المعقوف والفم القاسي دقيق الشفتين. مصافحة يده قوية للغاية، أشعر بعظام يدي الصغيرة تُطحن معًا وهو يعصرها. تحيط به هالة من الأهمية، كأنه سياسيٌّ أو دبلوماسيٌّ. يقول مبتسمًا لكن بعينين محترستين تقيّمان ما تريانه: «أنتِ حتمًا مُنظّمة الزفاف».

أجيب: «نعم، إنني هي».

يقول: «عظيم، ممتاز. آمل أن تكوني قد حجزتِ لنا مقاعد في مقدمة الكنسية؟». سيكون هذا متوقعًا في حفل زفاف ابنه، لكن أظن أن هذا الرجل سينتظر أن يُقدَّم له مقعد في المقدمة في أي مناسبة.

أخبره: «بلا شك طبعًا. سوف أوصلكما إلى هناك الآن».

يقول ونحن في طريقنا إلى الكنيسة: «تعرفين، إنه أمر غريب. إنني مدير مدرسة، مدرسة فتيان. وتقريبًا ربع الحاضرين الليلة كلهم كانوا طلابًا هناك، في مدرسة تريفيليان. عجيب رؤيتهم كبارًا».

أبتسم وأُظهِر اهتمامًا مهذبًا: «هل تتذكرهم جميعًا؟».

- معظمهم. ليس كلهم. أتذكّر المشاغبين طبعًا (يقرقر بضحكة خافتة) جفل بعضهم لرؤيتي. تتميز سمعتي بالانضباط والصرامة (يبدو فخورًا بهذا) ربما أيقظتْ رؤيتي الخوف من الرب فيهم.

أيقظته فعلًا! أشعر كما لو أنني أعرف هذا الرجل رغم أنني لم أقابله في حياتي قط. تخبرني غريزتي أنه لا يعجبني.

تلو ذلك، أذهب إلى ماتي الذي تولى قيادة الزورق الأخير وأشكره.

أقول له: «أحسنت. مرّ هذا بسلاسةٍ رائعة. أديتَ عملًا رائعًا في توصيلهم في نفس الوقت».

- وأنتِ أديتِ عملًا رائعًا في إقناعهما بإقامة زفافهما هنا. مشهور، صحيح؟

- وهي لها من الشهرة نصيب.

أشكُّ في أن ماتي يتابع أحدث أخبار المجلات النسائية الإلكترونية. ثم تابعتُ: «عرضنا خصمًا ضخمًا في النهاية، لكنه سيؤتي ثماره من الصحافة (يومئ) سيعيد المكان إلى عهده الأول، مؤكد سيحدث».

ينظر إلى الماء بعينين ضيقتين من أثر نور الشمس. ثم يقول: «كان الإبحار سهلًا هذا الصباح، سيختلف الأمر في العودة بلا شك».

أقول: «إنني أتابع أخبار الطقس بحرص». من الصعب تخيُّل أن هذا الطقس سينقلب حاله بشمسه الساطعة فوق رؤوسنا.

يقول ماتي: «أينعم! الرياح تستعد. يبدو أن هذا المساء سيكون سيئًا للغاية. إنها تتكون وسط البحر، رهيبة».

أقول في ذهول: «عاصفة؟ ظننتُها ستكون رياحًا خفيفة».

يرمقني بالنظرة التي تفصح عن ظنونه عني، ساذجة دبلن. رغم أنني عشتُ وفريدي هنا دهرًا طويلًا فسنظل دومًا الوافدين الجديدَين. يقول: «لستُ بحاجةٍ لأحمق يجلس في إستوديو في جالواي ليخبرك، استخدمي عينيكِ».

يشير وأتبع إصبعه الموجَّهة نحو رقعةٍ مظلمة، بعيدة وسط الأفق. لستُ متمرسة بأحوال البحار مثل ماتي، لكنني أعي أن القادم ليس خيرًا.

يقول ماتي فرحًا بنصره: «أترينها؟ ها هي ذي عاصفتك المنتظرة».

چونو

الإشبين

أستعد مع ويل في غرفته. سينضم إلينا بقية الشباب في غضون لحظات، لذا أريد أن أقول ما خططتُ له أولًا. إنني سيئ في التعبير عما أشعر به. لكني سأُقدِم على ما أنا فاعله على أي حال، ألتفتُ إلى ويل: «أردتُ أن أخبرك يا صاحبي... ممم كما تعلم، إنه لشرف عظيم أن أكون إشبينك».

يقول: «لم يخطر ببالي غيرك لهذا الدور. أنت تعرف هذا».

ممم لستُ على ثقةٍ تامة بأن هذا صحيح. كان ما فعلته يائسًا بعض الشيء. ربما لأنني كنت مخطئًا، لكن انتابني شعور لفترةٍ ما بأن ويل يحاول إقصائي من حياته. منذ أن انشغل بالمسلسل وأنا لم أره تقريبًا. لم يخبرني حتى عن الخطبة، قرأت عنها في الصحف. وآلمني هذا، لن أدّعي أنه لم يؤثر فيَّ. لذا اتصلت به وأخبرته أنني أود دعوته على شرابٍ للاحتفال.

وقلتها فجأةً ونحن نشرب: «إنني أقبل! سأكون إشبينك».

هل لاح على وجهه تعبير غريب وقتها؟ من الصعب الإقرار بهذا عن ويل، إنه لين سهل. أومأ وقال عقب هنيهة من الصمت: «لقد قرأتَ أفكاري».

لم أقُلها من فراغ. لقد وعدني في الواقع. حين كنا صبيانًا في مدرسة تريڤيليان.

قال لي مرةً: «أنتَ أعز أصدقائي يا چونو. رقم واحد. إشبيني». لم أنس قوله قط. ربطنا الماضي معًا، أنا وهو. أظن أن كلينا يعرف عن ظهر قلب أنني كنتُ الوحيد الأنسب لهذه المهمة.

أنظر في المرآة وأعدّل ربطة عنقي. تبدو بذلة ويل الاحتياطية شنيعةً عليَّ. ليس هذا مفاجئًا بالمرة نظرًا إلى أنها تصغرني بثلاثة مقاسات. أبدو كذلك كأنني قضيتُ الليل كله مستيقظًا، وهو ما حدث فعلًا. أتعرق من الآن أسفل طيات الصوف الضيقة. وأبدو على حالٍ أبشع جوار ويل لأن بذلته تبدو وكأن ملائكةً محترفة نسجتها على جسده. وهو صحيح نسبيًّا لأنها صُنعت له خصيصى في ساڤيل رو.

أقول: «لستُ في أبهى حلة». تبسيط مُخِلٌّ بالحقيقة.

يقول ويل: «هذه عقوبتك لنسيان بذلتك». إنه يسخر مني.

أقول: «صحيح، يا لي من غبي». أسخر مني كذلك.

ذهبتُ بصحبة ويل لأحضر بذلتي منذ عدة أسابيع. اقترح أن نجلب واحدةً من بول سميث. بالطبع نظر إليَّ المساعدون في المتجر وكأنني سأسرق شيئًا. أخبرني ويل وقتها: «إنها بذلة ممتازة. ربما هي أفضل ما ستجد دون أن تلجأ لساڤيل رو». أحببتُ شكلي فيها، لا شك في هذا طبعًا. لم أحظ ببذلةٍ رائعة في حياتي من قبل. ولم أرتدِ شيئًا بهذه الأناقة منذ أيام المدرسة. راق لي أنها نحتت كرشي. لم أعد أهتم بنفسي كثيرًا آخر عامين. كنت أقول: «ملذات الحياة كلها هنا!»، وأربّت على بطني. لكنني لستُ فخورًا بها. أخفت البذلة كل ذلك. جعلتني أبدو مثل زعيم. جعلتني أبدو مثل شخصٍ أبعد ما يكون عن نفسي.

أستدير أمام المرآة وأنظر من الجنب. أزرار السترة كأنها على وشك أن تنخلع. أفتقد بذلة بول سميث بصوفها الذي يُخفي كرشي. أيًّا ما كان. لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب، كما تقول أمي. ولا فائدة من التفاخر بالمظاهر. لم أكن قط مهندمًا من الأساس.

يقول دنكن مقتحمًا الغرفة ويبدو باهرًا في بذلته التي تلائمه بإتقان: «چونو! ما هذا بحق الجحيم؟ هل انكمشتْ في الغسالة؟». يقف پيت وفيمي وآنجس خلفه. يقول فيمي: «صباح الخير يا شباب! لقد وصلوا جميعًا. ألقيتُ نظرةً على المرفأ وتحدثتُ مع جمعٍ غفيرٍ من فتيان تريڤيليان القدامى».

يطلق پيت صيحةً ويقول: «چونو! يا إلهي! بنطالك ضيق للغاية، أستطيع رؤية ما تناولته على الإفطار».

أمدّ ذراعي جانبًا فيظهر رسغاي، أتبختر أمامهم لأؤدي دور الأحمق كما كان الحال دومًا. يلتفت فيمي إلى ويل: «يا إلهي! انظر إلى نفسك. ما هذه البراءة الملائكية!».

يقول دنكن: «إنه فاسق على الدوام لكنه يبدو صالحًا (يميل إلى ويل ويبعثر شعره، وبسرعةٍ يتناول ويل المشط ويعيد تمليسه ثانيةً) أليس كذلك؟ بوجهه الجميل هذا. لم تتورط قط مع المعلمين، صحيح؟».

يبتسم ويل بملء فيه ويرفع كتفيه ببراءة: «لم أخطئ قط».

يصرخ فيمي: «هراء! لقد أفلت من جريمة قتل. لم يقبض عليك قط. أو ربما هم من غضوا الطرف عنك، أبوك المدير طبعًا».

يقول ويل: «لا. كنتُ مثل النسمة».

يقول آنجس: «لن أستوعب أبدًا كيف تمكنت من اجتياز امتحانات الثانوية وأنت لم تبذل أي جهدٍ يُذكَر».

أرمي ويل بنظرة، أحاول أن تلتقي أعيننا، هل يعقل أن آنجس خمّن ما حدث؟ يردف: «سافل محظوظ»، ينحني إليه ويلكمه في ذراعه. لا، محال. لا يبدو مرتابًا بالمرة، معجب به لا أكثر. يقول فيمي: «لم يكن بيده الاختيار. أليس كذلك يا صاحبي؟ وإلا فإن أباك كان سيتبرأ منك». كان فيمي حاد الذكاء دومًا في قراءة الناس.

يهز ويل كتفيه: «نعم. هذا صحيح».

أن تكون ابن مدير المدرسة هو مثل أن تصاب بجذامٍ اجتماعيٍّ. لكن ويل نجا منه، ابتكر تكتيكات تمتع بها. مثل تلك الفتاة التي صاحبها في المدرسة الثانوية العامة، كان يمرر صورها الفاضحة على الفصل كله. عقب هذا غدا محصّنًا. وفي الواقع، كان ويل هو من دفعني دائمًا لفعل كل شيء، لأنه كان يعرف أنه سيفلت منها. بينما كنتُ أنا مرتعبًا من خسارة المنحة، في أول الأمر على الأقل. كان ذلك سيدمر أبويَّ.

يقول دنكن: «أتتذكرون ذاك المقلب الذي كنا نعدّه بالطحالب؟ (يردف مشيرًا إلى ويل) كانت تلك فكرتك».

يجيب ويل: «لا. أنا واثق أنها لم تكن فكرتي». بل قطعًا كانت.

كان الفتيان الصغار الذين لم يمروا بالتجربة من قبل قط يفقدون صوابهم بينما نستلقي نحن في الخفاء، ننصت إلى انهيار أعصابهم. لكن هكذا تسير الأمور إن كنت واحدًا من الصغار. كلنا مررنا بهذا. عليك أن تتقبل الخراء الملقى عليك بصدرٍ رحب. لأنك تعرف بأنه في النهاية ستنال فرصتك لتلقيه على شخصٍ آخر.

عرفنا ذاك الفتى في تريڤيليان الذي كان هادئًا هدوءًا عجيبًا حين وضعنا الطحالب في فراشه، طالبًا في السنة الأولى وكان اسمه عجيبًا. على أي حال، كنا نناديه «المتوحد». المهم، كان متعلقًا بويل الذي كان رئيس المهجع، بالطريقة التي يتعلق بها الصغار بمن يكبرهم سنًا. بدأ يسرّح شعره بنفس طريقة ويل، وكان دائمًا في ذيلنا. وأحيانًا كنا نعثر عليه متربصًا خلف شجيرةٍ أو شيءٍ ما لمراقبتنا، وكان يحضر كل مباريات الرجبي التي كنا نلعبها. كان أكثر فتى ضآلةً في المدرسة كلها، ويتحدث بلهجةٍ مضحكة ويرتدي نظارةً ضخمة، لذا كان مادةً خامًا للتنمر. على أنه بذل جهدًا جهيدًا ليكون محبوبًا. وأتذكّر إعجابي الشديد لأنه نجا من الفصل الدراسي الأول دون أن يمر بانهيارٍ عصبيٍّ، مثلما حدث مع بقية الفتيان الصغار. حتى حين وضعنا طحالب البحر في فراشه لم يتذمر حيالها ولم يهلع مثل البقية، بل مثلما فعل صديقه السمين -أظننا كنا نسميه الضرطة السمينة- الذي هرع راكضًا ليبلّغ المشرفة. أذهلني هذا حقًا. أعود بتركيزي مع الآخرين. أشعر كما لو أنني عدتُ من تحت الماء.

يقول دنكن: «كنا نحن من نُستدعَى لننال العقاب، ونحن كنا من نخاطر».

يقول فيمي: «كنتُ وحدي دون البقية طبعًا».

يقول ويل: «على ذكر الطحالب، لم يكن الأمر مضحكًا على الإطلاق، ما فعلتموه البارحة».

- ما الذي لم يكن مضحكًا؟

أنظر إلى البقية، الكل محتار.

يرفع ويل حاجبيه قائلًا: «أظنكم تعرفون ما أتحدث عنه. الطحالب في الفراش. كادت چولز تجن، وغضبت بشدةٍ من الأمر».

أقول: «لم يكن أنا. صدقًا». لستُ وكأنني سأُقدِم على فعل شيء يوقظ ذكريات أيامنا في تريڤز.

يقول فيمي: «ولا أنا».

يقول دنكن: «ولا أنا. لم أحظَ بفرصة، كنتُ منشغلًا وجورجينا قبل العشاء، إن كنت تفهم قصدي... كنت أنجز أشياء أهم من التجول في الجزيرة وجمع الطحالب».

يقول ويل متجهمًا: «طيب. أعرف أنه واحد منكم».

يرمقني بنظرةٍ طويلة.

ثم يطرق الباب.

يقول فيمي: «أفلت منه!».

إنه تشارلي. يقول: «هل ورود العراوي هنا؟». إنه لا يشبه أيًّا منا. مسكين.

يقول ويل: «إنهم هناك. چونو، هلَّا ناولت تشارلي واحدة؟».

أتناول واحدةً، إنها غصين صغير تحيطه أشياء خضراء وأزهار بيضاء، وألقيها لتشارلي، لكن ليس بقوةٍ بما يكفي لتصل إليه. يثب تشارلي وثبةً ليلتقطها لكنه يفشل ويلتقطها متعثرًا من على الأرض. حين يمسكها أخيرًا يغادر الغرفة بأسرع ما يمكن دون أن يتفوه بأي شيء. تلتقي عيناي عيون الآخرين ونحن نكابد الضحك. وللحظةٍ نشعر بأننا عدنا فتيانًا من جديد، وكأننا لا نقوى على ضبط أنفسنا.

نسمع صوت إيڤا تنادي: «يا شباب؟ چونو؟ وصل كل الضيوف. إنهم في الكنيسة».

يقول ويل: «حسنًا. كيف أبدو؟».

أقول: «مثل سافلٍ قبيح».

- شكرًا.

يسوِّي سترته أمام المرآة. ثم، وبينما يمضي البقية، يلتفت إليَّ قائلًا بصوتٍ خفيض: «شيء أخير يا صاحبي، قبل أن ننزل، لأنني أعرف أنني لن أحظى بفرصة قوله لاحقًا. بخصوص الكلمة التي ستلقيها. لن تحرجني،

صحيح؟». يسألني مبتسمًا لكن أعرف أنه جاد. أعرف أن هناك أمورًا لن يحب أن أذكرها. لكن لا يجدر به القلق حيال هذا، أنا نفسي لا أريد التطرق إليها. لن يعود ذكرها بالخير على كلينا.

أقول: «لا، يا صاحبي. صدقني، ستفخر بي».

چولز

العروس

أرفع التاج الذهبيَّ إلى رأسي بيدين تخونانني بارتجافٍ فاضح. أدير رأسي يمينًا ويسارًا. إنه العنصر المغير لإطلالة ثوبي، رخصتي لأدخل قصة خيالية رومانسية. طلبتُ صناعته خصيصى من صانع قبعاتٍ في لندن. لم أرغب في اختيار تاجٍ من الورد لأنه سيكون أشبه بأطفال الغجر، وشعرتُ أن هذا هو الحل الأنيق. يحمل في طياته لمحةً إلى عروسٍ خرجت من حكايةٍ أسطورية أيرلندية.

ألحظ لمعان التاج الرقيق في تضادٍ مع شعري الأسود. أتناول باقة أزهاري من المزهرية الزجاجية، تشكيلة من الورود البرية: أزهار ڤيرونيكا مع أزهار الأوركيد البرية المرقّشة وأزهار السوسن.

ثم أنزل للطابق السفلي.

- تبدين باهرة الجمال يا حبيبتي.

يقف أبي هناك في حجرة المرسم ويبدو قمةً في الأناقة. صحيح، والدي هو من سيسير جواري في ممر الكنيسة. درستُ بقية الاختيارات، فعلًا فعلتُ. طبعًا والدي ليس هو الممثل الأنسب لأفراح الزواج. لكن في النهاية، انتصرتْ عليَّ الطفلة الصغيرة بداخلي، تلك التي ترغب في النظام وأن تنجز الأشياء بالطريقة الصحيحة. إضافةً لذلك، من غيره كان سيفعلها؟ أمي مثلًا هههه!

يقول: «اتخذ المدعوون أمكنتهم في الكنيسة، لذا فإن كل شيءٍ في انتظارنا».

في غضون دقائق، سنقطع المسيرة القصيرة على الطريق المكسوة بالحصى الفاصل بين الكنيسة والقلعة. الفكرة تشقلب معدتي، وهو أمر سخيف. لا أتذكّر آخر مرةٍ شعرتُ بهكذا شعور. قدّمتُ السنة الماضية خطابًا على منصة تيدكس عن النشر الرقميّ أمام قاعةٍ ملأى بثمانمئة شخص ولم أشعر بما أشعر به الآن.

أنظر إلى أبي. أقول لأشتت نفسي عن تقلُّب معدتي لا شيء آخر: «إذًا.. قابلت ويل أخيرًا (يخرج صوتي غريبًا ومختنقًا بعض الشيء. أسعل وأردف) أن تأتي متأخرًا...».

يجيب أبي: «نعم. طبعًا التقيتُه».

أحاول إبقاء نبرة صوتي لطيفة: «ما معنى هذا؟».

- لا شيء يا چوچو. كل ما أقول هو أنني طبعًا قابلته.

أعرف، قبل حتى أن أفرّق شفتيّ، أنه لا يجدر بي طرح السؤال التالي. لكن لا أقدر أبدًا على كبته. أحتاج لمعرفة رأيه، شاء أم أبى. سعيتُ أكثر من أي أحدٍ آخر لنيل رضا أبي. حين كنت أفتح نتائج اختباراتي الممتازة في مرأب المدرسة، كان تعبير فرحته هو وليس أمي ما كنتُ أتصوره، صوته يقول: «أحسنتِ يا حلوتي». لذا أسأله: «إذًا؟ هل أعجبك؟».

يرفع أبي حاجبيه: «حقًا يا چولز؟ تودين خوض هذه المحادثة الآن؟ قبل نصف ساعةٍ من زواجك بالرجل؟».

أظن أنه على حق. إنه توقيت سيئ على كل الأصعدة. لكن وبما أن أقدامنا زلّت في هذه الطريق، فلا رجعة منها. وبدأت أشك في أن امتناعه عن الإجابة ربما هو الإجابة نفسها.

أقول: «نعم. أود أن أعرف. هل راق لك؟!».

يعبس أبي ويقول: «يبدو رجلًا ساحرًا يا چوچو. وسيم للغاية أيضًا. حتى أنا في وسعي ملاحظة هذا. لا مثيل له. هذا مؤكد».

لا يبشر أيٌّ مما قال بالخير. وعلى ذلك، لا أنهي الحديث.

أقول: «لكن من المؤكد أنك كوّنت انطباعًا أقوى من هذا. كنت دائمًا تخبرني أنك بارع في قراءة الناس. إنها مهارة مهمة في العمل، وعليك أن تفعلها بسرعةٍ شديدة.... بلا بلا بلا».

يُحدِث صخبًا، أشبه بزمجرة، ويضع يديه على ركبتيه كما لو أنه يستجمع قواه. أشعر أن بذرة الخوف الصلبة الضئيلة، التي غُرست في نفسي مذ رأيت الرسالة هذا الصباح، تبدأ في التمدد داخل بطني.

أقول: «أخبرني (أسمع الدماء تتدفق في أذنيَّ) أخبرني ما كان انطباعك الأول عنه».

يقول أبي: «اسمعي، لا أظن أن رأيي مهم. إنني والدك العجوز ليس إلا. ما الذي أعرفه؟ وكم قضيتِ من الوقت بصحبته لحد الآن... عامين؟ هذا وقت كافٍ لتعرفيه».

لم يمضِ عامان في الواقع. ولا فترة مقاربة من ذلك. أقول: «نعم. إنها فترة طويلة بما يكفي لمعرفة أنه حان الوقت المناسب».

رددتُ هذه الجملة مراتٍ كثيرة، على مسامع أصدقائي ومعارفي. وهذا ما قلته البارحة بتمكنٍ وأنا أقدم نخبي. وفي كل مرةٍ كنت أعني ما أقول. على الأقل... أظن أنني كنت أعنيه. إذن لمَ هذه المرة ترن كلماتي بلا معنى؟ لا أقدر على تجاهل الشعور بأنني أقولها لا لأقنع والدي بل بالأحرى لأقنع نفسي. منذ وجدت تلك الرسالة استردت كل الشكوك أماكنها. لا أُريد أن أفكر فيها لذا أغير حيلتي. أردف: «على أي حالٍ يا أبي، لأكون صريحةً، أظن أنني أعرفه أفضل مما أعرفك أنت. بما أننا قضينا ستة أسابيع معًا طيلة حياتي كلها».

كان يفترض أن يكون كلامًا جارحًا، وها أنا ذي أرى أثره، جفل كما لو أنه لُطم لطمة حقيقية. يقول: «حسنًا. أحسنت. هذا كل ما تحتاجين قوله. لن تحتاجي رأيي بعد الآن».

أقول: «تمام يا أبي، تمام. لكن تعرف؟ كان في وسعك هذه المرة فحسب أن تأتي وتخبرني بأنك تراه رجلًا عظيمًا. حتى إن كنت تكذب وتصرّ على أسنانك وأنت تقولها. أنت تعرف ما أحتاج سماعه منك. إنه... إن ما تفعله أناني».

يقول أبي: «اسمعيني، أنا آسف. لكن... لكن لا يمكنني أن أكذب عليك يا عزيزتي. أتفهم تمامًا إن غيّرتِ رأيك الآن ولم ترغبي أن أسير جوارك في ممر الكنيسة». يقولها بكرمٍ وتسامحٍ وكأنه يقدّم لي هدية عظيمة. وأشعر بالألم يجتاحني كلي.

أقول بغضبٍ: «طبعًا ستسير جواري في الممر اللعين. أنت لم تكن في حياتي قط. لم تكن لتجد متسعًا من الوقت لتحضر زفافي حتى. ونعم، نعم، أعرف... التوءمان أو أيًا كان. لكني كنتُ ابنتك لأربعة وثلاثين عامًا. تعرف أهميتك عندي، رغم أنني أدعو الله لو لم تكن. أنت أحد الأسباب التي دفعتني لإقامة زفافي هنا، في أيرلندا. لأنني أعرف مدى اعتزازك بإرثك، ولأنني أعتز به أيضًا. أتمنى لو أن رأيك ليس مهمًا أبدًا عندي. لكنه مهم. لذا فسوف توصلني عبر الممر. هذا أقل ما قد تفعله لأجلي. أن تسير جواري والسعادة تعلو وجهك لأجلي، في كل خطوةٍ من الطريق اللعينة».

يطرق الباب وتُدخل إيفا رأسها.

- الكل مستعد لنذهب؟

أجيبها: «لا. أمهلوني لحظة».

أصعد السلالم هرولةً إلى غرفة النوم. أبحث عن شيءٍ ما، له شكل مناسب ووزن مضبوط. سأعرفه حين تقع عيناي عليه. هناك الشمعة المعطرة... أو لا، المزهرية التي احتوت باقة أزهاري. أمسكها وأرفعها في يدي، أجهز نفسي. ثم ألقي بها على الحائط، أراقبها في رضا ونصفها العلوي ينفجر في شظايا زجاجية.

ثم ألف يدي في قميصٍ -كنتُ دائمًا حذرةً ألا أجرح نفسي، لم يكن هدفي قط إلحاق الأذى بنفسي- أتناول القاعدة السليمة ثم أصفع الجدار بها، ثانيةً وثالثةً حتى أجد نفسي محاطةً بالشظايا وألهث مجهدةً وأصر على أسناني. لم أفعلها منذ فترةٍ طويلة، طويلة للغاية. لم أرغب أن يرى ويل هذا الجانب مني. نسيتُ الشعور المريح الذي تُخلّفه بداخلي. التنفيس عنه. أرخي أسناني. أتنفس، شهيقًا وزفيرًا.

كل شيءٍ في الجانب الآخر يبدو أوضح قليلًا، أهدأ.

ألملم الفوضى، كما فعلتُ دائمًا. آخذ وقتي وأتروى. إنه يومي أنا. عليهم أن ينتظروني.

أرفع يديَّ أمام المرآة وأعدّل التاج فوق رأسي، مال للجنب بعض الشيء. في الواقع أضفى انفعالي لونًا لطيفًا على بشرتي، مناسبًا أكثر لعروسٍ خجلة. أضع يديَّ على وجهي وأدلّكه، أعيد تنظيمه وترتيبه ليأخذ أحد تعبيرات الفرحة الهانئة المرتقبة.

- جاهزة.

ثم أنادي على أوليڤيا. تخرج من الغرفة الصغيرة المجاورة لحجرة الطعام. تبدو شاحبةً أكثر من المعتاد، أهذا ممكن؟ لكنها، وبأعجوبةٍ ما، على أتم الاستعداد، ترتدي ثوبها وحذاءها وتحمل في يدها طوق أزهارها. أنتش باقتي من إيفا. وأتبختر خارجةً من الباب، تاركةً أوليڤيا وأبي يسيران في ظلي. أشعر مثل ملكةٍ محاربة في طريقها إلى ساحة المعركة.

يتغير مزاجي وأنا أسير في الممر، يهتز ثباتي. أراهم جميعًا ينظرون إليَّ مشرئبي الأعناق، وجوههم ضبابية وبلا ملامح على نحوٍ عجيب. يحاوطني صوت الغناء الأيرلندي الشعبي، وأصعق للحظةٍ من كآبة النغمات، رغم أنها أغنية رومانسية. تتسارع السحب فوق أطلال المنارات بسرعةٍ رهيبةٍ كما في الكوابيس. استعرت الرياح، أسمع صفيرها بين الصخور. للحظةٍ يغمرني شعور بأن كل مدعوينا غرباء، وأنني أُراقَب بصمتٍ من قِبل حشدٍ من الناس لم ألقَهم في حياتي من قبل قط. أشعر بالذعر ينمو بداخلي، كما لو أنني خطوتُ داخل صهريجٍ من الماء البارد. كلهم غرباء عني، بمن فيهم الرجل الذي ينتظرني في نهاية الممر، الذي استدار برأسه بينما أقترب منه. ترتج تلك المحادثة الممزقة مع أبي في عقلي، لكن أصخب كلماتها هي الكلمات التي لم يقُلها. أرخي قبضتي حول ذراعه، أحاول ترك شيءٍ من المسافة بيننا، كأن أفكاره قد تلوثني أكثر وأكثر.

ثم فجأةً وكأن الضباب ينقشع، أراهم بوضوحٍ بهيٍّ، أصدقائي وعائلتي، يبتسمون ويلوحون. لا أحد منهم -حمدًا لله- يصوب هاتفًا نحونا. تحكّمنا في هذا بإضافة ملحوظةٍ صارمة اللهجة مع دعوة الزفاف كُتب فيها أن التصوير ممنوع خلال المراسم. أتمكن من بسط وجهي، وأرُد الابتسامات بابتسامة.

ومن خلف كل هذا الجمع، وقف هناك في قلب الممر، تحيطه هالة من نورٍ شقّت طريقها للحظاتٍ من بين السحب، زوجي المنتظر. خاطفٌ للأنفاس في بذلته. متألق، تتفوق وسامته على نفسها. يبتسم لي وتشع بسمته كما الشمس، تنهمر دافئةً على وجنتيّ. تعلو أطلال الكنيسة من حوله شامخةً نحو السماء، جميلةً جمالًا باهرًا.

مثاليٌّ. كل شيءٍ كما خططتُ له تمامًا، بل أفضل من مخططاتي. وأجملها عريسي -الجميل المشرق- الذي ينتظرني عند المذبح. أنظر إليه، أحثّ الخطى نحوه، محال أن أصدق أن هذا الرجل ليس نفسه الشاب الذي عرفتُ روحه على سجيتها.

أبتسم.

هانا

المُرافِقة

جلستُ وحدي خلال المراسم، محشورةً في مقعدٍ بصحبة قريبات چولز، محجوز لتشارلي مقعد في المقدمة، لأنه سيؤدي دورًا في تنظيم الزفاف. مرت لحظة غريبة وچولز تقطع الممر. تلبّس وجهها تعبير لم أره من قبل. بدت خائفة، عيناها جاحظتان وحاجباها قد استويا في خطٍ رفيع جهم. أتساءل إن لاحظها أحد غيري، أو أنه كان من صنيع مخيلتي، لأنها فور ما وصلتْ إلى ويل كانت الابتسامة ترتسم على وجهها، كانت العروس المتوهجة التي توقّع الكل رؤيتها وهي تحيي عريسها. تعالت التنهيدات من حولي، وهمسات تهمس بمدى روعتهما معًا.

ثم سار كل شيءٍ بسلاسةٍ عقبها، ما من لعثمةٍ خلال قول نذور الزواج، مثلما حدث في بعض حفلات الزفاف التي حضرتُها. قال كلاهما نذوره بصوتٍ عالٍ وواضحٍ بينما رنا بقيتنا لهما في صمت، الصوت الوحيد الذي تدخّل بينهما كان صوت صفير النسيم بين الصخور. لكنني في الواقع، لستُ أنظر إلى چولز وويل، بل أحاول أن ألمح تشارلي عبر كل تلك المسافة. أحاول رؤية أي تعبيرٍ يعلو وجهه حين تنطق چولز قائلةً: «نعم، أقبل». لكن رؤيته مستحيلة، لا أرى سوى مؤخرة رأسه وكتفيه. أنفضُ رأسي لأستفيق، ما الذي أحسب نفسي سأراه من الأساس؟ أي دليلٍ أبحث عنه؟

ثم تنتهي المراسم فجأةً. ينهض كل من حولي في جلبةٍ صاخبة من الضحك والثرثرة. المرأة نفسها التي غنّت وچولز تدخل الكنسية، تغني الآن كذلك ونحن نغادرها، ونغم الكمان المصاحب لها يتلاشى من خلفنا. كل

الكلمات تُغنّى باللغة القلطية، صوتها عالٍ ونقيٌّ مثل الأثير، يتردد صداه بخفةٍ وغرابةٍ على الجدران المتهدمة.

أتبع فوج الضيوف المغادرين، أحاول تفادي زينة الأزهار الضخمة، أغصان خضراء وورود برية ملونة، متناسقة وملائمة لمحيطها. أتذكّر زفافنا، حين منحتنا صديقة أمي كارين خصمًا على الورد. كانت ألوانها باهتة وموضتها قديمة. لكن ليس لي الحق أن أتذمر لأننا لم نقدر على تحمُّل تكلفة منسّق أزهارٍ من اختيارنا. أتساءل كيف تكون الحياة حين يمتلك المرء مالًا يفعل به ما يشتهي؟

أما عن بقية الضيوف فهم مجموعة ترتدي أفخم الملابس والأحذية. حين دققتُ النظر في الحشد في الكنيسة أدركتُ أنه ما من أحدٍ آخر يرتدي قبعةً ريشية. ربما لم تعد مميزةً في وسطٍ كهذا؟ يبدو أن كل امرأةٍ ترتدي قبعةً باهظة الثمن، ذاك النوع الذي يصل في صندوقٍ صُنع خصيصى للقبعة. أشعر تمامًا كما شعرتُ في المدرسة حين لم أعرف لا أنا ولا أليس أن ذاك اليوم كان مخصصًا للملابس العادية، وأتينا للمدرسة ونحن نرتدي الزي الرسمي. أتذكّر جلوسي وسط الجموع وأتمنى لو كان باستطاعتي أن تنشق الأرض وتبتلعني كيلا أقضي اليوم وأنا أشعر أن الأعين كلها مصوبة عليَّ.

وزِّعتْ علينا بتلات أزهارٍ مجففة ومجروشة لنرمي بها چولز وويل حين يغادران الكنيسة. لكن النسيم كان عنيفًا لدرجة أنها طارت بعيدًا. لم أرَ بتلةً واحدةً تهبط على العروسين. بل انجرفت بعيدًا في سحابةٍ كبيرة، طارت عاليًا نحو البحر. يخبرني تشارلي بأنني متطيّرة أكثر من اللازم، لكن إن كنتُ مكان چولز، فلن يروق لي طيرانها بتاتًا.

ذهب المقربون من العروسين لجلسة التصوير، بينما تجمهر بقيتنا عند الصيوان حيث أقيم البار أمامه. أقرر أنني بحاجةٍ لحقن نفسي بشيءٍ من الشجاعة الهولندية. أقطع الطريق المعشوشبة نحوه، وكعبا حذائي ينغرسان فيها مع كل خطوة. وقف ساقيان لتلبية الطلبات، يخضّان رجّاجات الكوكتيل. أطلب كأسًا من الچن والتونيك، وتأتيني بصحبة غصين من الروزماري.

أتبادل أطراف الحديث مع الساقيَين قليلًا لأنهما أكثر الأوجه ودًا وسط هذا الحشد. إنهما فتيان من أهل المكان، عادا من الجامعة لقضاء العطلة الصيفية: أوين وشون.

يخبرني شون: «نعمل عادةً في الفندق الكبير على البر. كانت تملكه عائلة جينيس، إنه قلعة ضخمة تطل على بحيرة. يقيم الناس حفلات الزفاف هناك معظم الوقت. لم أسمع قط عن زفافٍ أقيم هنا، غير أولئك في الأيام الخوالي. أتعرفين أنه يقال إن هذا المكان مسكون بالأرواح؟».

يميل أوين ناحيتي ويخفض صوته: «نعم. أخبرتني جدتي حكاياتٍ مروعة عن هذا المكان».

يردف شون: «الجثث في قعر السبخة. لا أحد يعرف بالضبط كيف ماتوا. ويقال إن الڤايكينج مزقوهم أشلاء. لم يُدفنوا في أرضٍ مقدسة لهذا السبب يردد الجميع أن أرواحهم لم تسترح في قبورها».

أعرف أنهما يتسليان بالعبث في عقلي ومع ذلك أشعر بالقلق يغمرني.

يقول أوين: «وتقول الشائعات إنه لهذا السبب تحديدًا رحل آخر سكانها، لأن الأصوات القادمة من السبخة غدت أعلى من أن تُحتمل (يبتسم لشون ثم لي ويسترسل) وتعرفان ماذا؟ إنني أتطلع لبقائي هنا بعد حلول الظلام الليلة. إنها جزيرة الأشباح».

ثم يأتي رجل من خلفي يرتدي نظارة شمسية عريضة وسترة صوفية ويقول منزعجًا: «بعد إذنك، كل ما تحكيه يبدو قصةً لعينة شائقة، لكن هل تمانع أن تعدّ لي كوكتيل أولد فاشون؟».

كان قوله كإشارةٍ كي أتركهما لعملهما. أقرر أن أتسلل وأخطف نظرةً لما داخل الصيوان عبر المدخل المضاء بمشاعل متقدة. يفوح في الداخل شذى حلو له رائحة الأزهار من شموعٍ كثيرةٍ تبدو باهظة الثمن. لكن (لستُ فخورةً بسعادتي لهذا الأمر) تعبق من تحتها رائحة قماشٍ رطب. إنها في النهاية خيمة فسيحة. لكن يا لها من خيمة! بل خيام، بالجمع. في طرفٍ ليس ببعيد تقع خيمة أصغر حجمًا تحتلها منصة رقصٍ ومنصة أخرى مُعدّة للفرقة، وفي الطرف الآخر هناك خيمة أخرى تحوي بارًا ثانيًا. يا إلهي. لمَ تجلبين بارًا واحدًا في زفافك إن كان بوسعك جلب اثنين؟ في الخيمة الكبرى تتنقل

نادلات يرتدين قمصانًا بيضاء في حُسنٍ يلائم راقصات الباليه، يُعدّلن الشوك ويلمّعن الكؤوس.

وفي قلب المكان كله، تقبع كعكة عملاقة فوق طاولةٍ فضية. إنها غاية في الجمال لدرجة أنه يحزنني التفكير في أن چولز وويل سيدبان بها سكينًا بعد قليل. ليس في وسعي أبدًا تخمين كلفة كعكةٍ كهذه. ربما بتكلفة حفل زفافي بأكمله.

أغادر الصيوان ثانيةً وأجفل أمام هبوب الريح. إنها حتمًا تشتد. حتى في البحر، تعلو قمم الأمواج رؤوس بيضاء الآن.

أنظر إلى الحشد أمامي. كل من أعرفه في هذا الزفاف هم برفقة العروس. إن لم أستجمع شجاعتي سأظل واقفةً وحدي حتى يعود تشارلي، وأظنه عقب انتهاء التصوير سيبدأ فورًا مهام إدارة الحفل. لذا أزدرد الچن والتونيك وأدفع نفسي نحو تجمعٍ قريب.

يعلو الود وجههم لكن أدرك أنهم أصدقاء قدامى يتبادلون ما فاتهم من الأخبار، فلا أنخرط في حديثهم. أقف وسطهم وأتجرع شرابي وأنا أحاول ألا أقتلع عيني بغصين الروزماري. أتساءل كيف يتعامل البقية مع كؤوسهم دون أن يجرحوا أنفسهم. ربما هو درس تتعلمه في المدارس الخاصة: كيف تحتسي كوكتيلًا عليه زينةٌ شكسة؟ لأن جميع الحضور هنا، بلا ذرة شك، التحقوا بمدراس خاصة.

سألتْ إحدى السيدات: «هل يعرف أحدكم الهاشتاج الذي سنرفقه بما سننشر؟».

- تقصدين هاشتاج الزفاف؟ بحثتُ في الدعوة ولم أجد واحدًا.

أجابت صديقتها: «لا أظن أنهم أطلقوا واحدًا. الإشارة هنا شنيعة للغاية فلن تتمكني من نشر أي شيءٍ ما دمت على الجزيرة».

قالت الأولى بنبرة العارف: «ربما لهذا السبب تحديدًا اختاروا هذا المكان للزفاف، يعني، بسبب شهرة ويل».

علّقت الأخرى: «إنه شديد الغموض. بصراحة لقد توقعتُ إقامته بإيطاليا، أو في منطقة ليك ديستريكت. هذا هو الرائج حاليًّا، صحيح؟».

قفزت ثالثة وسط الحديث: «لكن چولز هي من تحدد الرائج».

- ربما هي الموضة الجديدة... (كادت هبّة هوجاء تطيّر قبعتها بعيدًا فأطبقت يديها عليها بإحكامٍ وأردفت) أن نقيم حفلات الزفاف على جزرٍ نائيةٍ وموحشة وسط العراء.
- بل هو رومانسي أكثر، أليس كذلك؟ وسط البراري والوجاهة المنكوبة. يذكّرني بذاك الشاعر الأيرلندي. كيتس.
- ييتس يا عزيزتي.

تتلون السيدات بسمرةٍ داكنة حقيقية من عطلات صيفية قضينها في جزرٍ يونانية. أعرف تلك المعلومة لأنهن شرعن في الحديث عنها تاليًا، يقارنّ محاسن هيدرا على كريت. إحداهن تقول الآن: «يا إلهي، لمَ قد يسافر أحدهم في الدرجة الاقتصادية بصحبة الأطفال. أقصد هل سنبدأ العطلة بغمٍّ كهذا؟».

أتساءل عما سيقلن إن قاطعتُ حديثهن وبدأت أناقش مميزات وعيوب كل حديقةٍ من حدائق نيو فورست للتخييم. في وسعي أن أقول: «أظن شخصيًّا أن كل شيءٍ يتعلق بأيها يحظى بأفضل مراحيض متنقلة»، سأقولها بنفس النبرة التي يجادلن بها عن أجمل إطلالةٍ تتوافر في مطعم مُطلٍ على البحر. عليَّ أن أكتم هذه الفكرة حتى أرى تشارلي لاحقًا. لكن، وكما ثبت البارحة، ينقلب حال تشارلي بعض الشيء برفقة الأثرياء، يصبح غير واثقٍ بنفسه ويأخذ موقفًا دفاعيًّا.

يلتفت الرجل الذي على يميني ناحيتي، يبدو مثل طالب متضخم الحجم، وجهه واحد من تلك الأوجه دقيقة الاستدارة المضرّجة بالأبيض والأحمر في غير امتزاج، ذو منبت شعرٍ منحسر. يقول لي: «إذن.. هانا؟ صحيح؟ هل أنتِ مع العروس أم العريس؟».

تغمرني راحة هائلة لأن أحدهم تكرَّم بالحديث معي لدرجة أنني أود تقبيله.

- مع العروس.

- أنا من صحبة العريس. كنتُ في المدرسة مع ذاك الوغد (يبسط ذراعه أمامي وأصافحه. أشعر كما لو أنني أدخل مكتبه لأُجري مقابلةً وظيفية) وتعرفين چوليا، كيف...؟

أقول: «إنني زوجة تشارلي، إنه صاحب چولز؟ وهو أحد المساعدين في الزفاف».

- ومن أين لك هذه اللهجة؟

- مانشستر. من ضواحيها في الواقع.

رغم شعوري الدائم بأنني نسيتُ معظمها، لكنني عشت طويلًا في الجنوب.

- تشجعين اليونايتد، ها؟ تعرفين، سافرتُ إليها لأجل مهمة عملٍ قبل عدة سنوات. هه حسنًا، كان لأجل مباراة. ضد ساوثهامبتون أظن. انتهت «اثنان واحد، واحد صفر»، لا أتذكّر، المهم لم يكن تعادلًا، كان سيكون هذا مملًا لدرجةٍ لا تطاق. لكن الطعام كان شنيعًا. مقرف لا يؤكَل.

أقول: «أوف! يشجع أبي...».

لكنه يشيح بوجهه، ضجرًا قبل أن أنطق، ويشتبك في الحديث مع رجلٍ يجاوره. لذا أقدم نفسي لزوجين كبيرين في السن، لا لشيءٍ إلا لأنهما يبدوان لا يتحدثان مع أحدٍ آخر.

يقول الرجل: «أنا والد العريس»، أذهل أمام صياغة عبارته الغريبة. لماذا لم يقل: «أنا أبو ويل» ببساطة؟ ثم يشير بيدٍ طويلة الأصابع إلى المرأة بجانبه: «وهذه زوجتي».

تقول: «مرحبًا»، ثم تعاود النظر إلى قدميها.

أقول: «مؤكد أنكما تشعران بالفخر به».

- فخر؟

يعبس متسائلًا. إنه فارع الطول وذو ظهرٍ مستقيم لذا أضطر إلى رفع عنقي لأعلى قليلًا كي أنظر إليه. وربما بسبب شكل أنفه المعقوف الطويل، لكن أشعر أنه ينظر إليَّ بازدراءٍ وترفُّع. نظراته تثير اضطرابًا في معدتي، وتُذكّرني بزجر أحد المعلمين لي في المدرسة.

أقول في حيرةٍ واضحة: «ممم نعم (لم يخطر ببالي أنه سيكون عليَّ شرح مقصدي) أقصد بسبب زفافه في المقام الأول، وبسبب مسلسله كذلك».

- ممم (بدا وكأنه يدرس ما قلت) لكنها ليست مهنة على الإطلاق، صحيح؟
- حسنًا... أاا ليس بالمعنى التقليدي.
- لم يكن طالبًا مثاليًّا على الدوام. أوقع نفسه في متاعب كثيرة، تعرفين... لكنه فتى ذكي بشهادة الجميع، تمكّن من دخول جامعةٍ جيدةٍ نسبيًّا. كان بإمكانه أن يدرس السياسة أو الحقوق. ربما ليست من أرقى الجامعات، لكنها مقبولة.

يا إلهي الرحيم. أتذكّر الآن أن والد ويل يعمل مدير المدرسة. كأنه يتحدث عن فتى عشوائيٍّ، وليس عن ابنه من صلبه. لم أظن قط أنني قد أشعر بالشفقة حيال ويل الذي يظهر دومًا بمظهر من امتلك كل مقومات النجاح في الحياة، لكنني الآن أشفق عليه.

يسألني: «لديك أولاد؟ فتيان؟».

- نعم، بن، إنه...
- بقية المدارس أسوأ مما تظنين من تريفليان. أعرف أن أساليبنا قد يعدّها البعض... صارمة بعض الشيء، لكنها أثمرت رجالًا أشداء من فتيانٍ ميؤوسٍ منهم.

فكرة أن أضع بن بين مخالب هذا الرجل متبلد الحس تملؤني بالرعب. أريد أن أخبره بأنني حتى إن كان بمقدرتي تحمُّل كلفتها، وحتى إن كان بن في سنٍ تقترب من سن المدرسة الثانوية، فمحال أن أرسل ابني إلى مكانٍ يديره. لكنني أبتسم بأدبٍ وأستأذن. إن كان والدا ويل هنا فحتمًا قد عاد لفيف العروسين من جلسة التصوير. إن صح هذا، فلم لم يعد تشارلي للبحث عني؟ أتطلع بين الحشود، وألمحه أخيرًا بين زمرةٍ كبيرة مع بقية أصدقاء العريس ورجالٍ آخرين. أشعر بشيءٍ من الغضب وأتحرك بأسرع ما يسمح به حذائي العالي.

أقول محاوِلةً ألا أبدو متسلطةً: «تشارلي. يا إلهي، شعرتُ أنك غبت ساعات. خضت أغرب محادثةٍ قد...».

يقول بعقلٍ شبه غائب: «أهلًا يا هان». وعبر النظرة السريعة التي يرمقني بها، وربما من تغيُّرٍ طفيفٍ في قسمات وجهه، أعرف بثقةٍ لا غبار عليها أنه شرب بالفعل. يحمل في يده كأس شمبانيا لكن لا أظن أنها كأسه الأولى. أذكّر نفسي أنه منضبط دائمًا، يعرف حدوده. إنه رجل راشد. يقول: «بالمناسبة، أظن أن بإمكانك خلع ذاك الشيء عن رأسك الآن».

يقصد قبعة الريش. أشعر بخديَّ يشتعلان حرارةً وأنا أخلعها. هل يشعر بالحرج مني؟

يسير نحونا أحد الرجال الذين كان يتحدث معهم تشارلي ويلكز كتفه: «أهذه المدام يا تشارلي؟».

يجيب تشارلي: «نعم. روري، هذه زوجتي هانا. هانا، هذا روري. قابلته في حفل العزوبية».

يقول روري مع شبح ابتسامة: «من اللطيف لقاؤكِ يا هانا».

كل ذاك السحر الذي يحمله طلاب المدارس الداخلية وحدهم! خطر ببالي أصدقاء العريس ونحن خارج الكنسية، يسألون الكل بكياسةٍ: «هل لي أن أطلعك على خطة سير الزفاف؟»، «هل ترغب في قليلٍ من الزهور المجففة؟». يا لبراءة الملائكة! لكنني رأيتُ ما أصابهم البارحة، لن أثق بهم مثقال ذرة.

يقول روري: «إنني مدين لك باعتذارٍ على الحالة التي أعدنا بها رجُلكِ من حفل العزوبية. لكنها كانت كلها لهوًا ولعبًا، أليس كذلك يا تشارلي؟».

لا أفهم مقصده بالضبط. تنقبض ملامح زوجي وتختفي شفتاه في خطٍ نحيفٍ مشدود، حتى يتلبّس وجهه التعبير ذاته الذي لاح عليه حين أتيت لأُقلّه من المطار عقب تلك العطلة.

أسأل روري: «ما الذي فعلتموه هناك بحق الجحيم؟ (أحاول أن أبقي نبرتي لعوبًا) حتمًا لن يخبرني تشارلي».

يبدو مرتاحًا لسماع هذا، ويقول: «رجل صالح (ثم يلكز كتف تشارلي ثانيةً) ما يحدث في الحفل يظل في الحفل (يغمز لي) استمتعنا على أي حال. سيظل الفتيان فتيانًا».

أسأل حين ينسحب روري ونحظى بلحظةٍ وحدنا: «تشارلي؟ أكنت تشرب؟».

يجيبني: «رشفتين فحسب (لا أظنه يتلعثم في حديثه) لتلطيف الأجواء».

- تشارلي...

يقاطعني بحزم: «هان. لن يفقدني صوابي شرب كأسين».

- و... (تعود لي صورته حين خرج من مطار لندن ستانستد، بعينين غائرتين مصدومًا كمن رأى جهنم) ما الذي جرى في حفل العزوبية؟ ماذا كان يقصد؟

- آه يا إلهي (يرجع تشارلي شعره للوراء بيده ويقطّب وجهه) لا أدري لمَ تأثرت بهذا القدر. إنه... حسنًا، ربما كان بسبب أنني لست واحدًا منهم. لكنها كانت مروعة في الوقت نفسه.

أقول: «تشارلي (أشعر بأن عاصفةً هوجاء تدور في معدتي) ما الذي فعلوه؟».

ثم يستدير لي زوجي ويُصدر صوتًا كالهسيس من بين أسنانه يتسلل إلى كلماته: «لا أريد أن أتحدث عن الحفل يا هانا».

ها هو ذا. يا إلهي، كان تشارلي يشرب بلا شك!

چونو

الإشبين

أترك كأس الشمبانيا من يدي وأتناول أخرى من النادلة المارة. أزدردها بسرعة، لعل وعسى أشعر بأنني... لا أعرف، على طبيعتي. شعرتُ هذا الصباح، حين رأيت كل هذا، حين رأيت كل ما يتمتع به ويل... شعرت بشعورٍ مُزرٍ. لستُ أعتز به البتة. بل إنني مستاء بسببه، فعلًا. ويل أعز أصدقائي، أود أن أفرح له فرحًا صادقًا. لكن رفقة الشباب من جديد أعادت جرف كل شيء إلى السطح. كأن لا شيء مما حدث ترك به أثرًا، لا شيء أعاق طريقه. بينما شعرتُ أنا دائمًا بـ... لا أدري، كأنني لا أستحق أن أكون سعيدًا.

أرى وجوهًا مألوفةً كثيرةً بين الجموع خارج الكنيسة، أناس ممن حضروا حفل العزوبية وآخرون لم يأتوا لكنهم كانوا معنا في المدرسة. يسألونني: «لم تأتِ معك رفيقة يا چونو؟». ثم: «إذًا ستلعب ألاعيبك على فتاةٍ محظوظة الليلة؟».

أجيب: «ربما. محتمل».

أظن أن هناك رهانًا قائمًا على مَن مِن الفتيات سأحاول مغازلتها. ثم يتغير مسار الكلام إلى التحدث عن وظائفهم ومنازلهم وتبادل النميمة. تُروى قصة عن آخر سياسيٍّ جعل من نفسه أحمق (أو من نفسها). ليس في وسعي إثراء هذا الحديث بالكثير لأنني لا أسمع الاسم، وحتى إن سمعته فغالبًا لن أعرفه. أقف بينهم وأشعر بالحماقة، أشعر كأنني لا أنسجم معهم. لم يحدث قط أن انسجمتُ معهم من الأساس.

يعملون جميعًا الآن في وظائف ذات نفوذ. حتى أولئك الذين لا أتذكّر أنهم كانوا أذكياء لهذه الدرجة. كلهم يختلفون قليلًا عما كانوا أيام المدرسة. ليس هذا بمفاجئٍ إذ إن عشرين عامًا لم تكن منذ زمنٍ سحيق. لكني لستُ أشعر على هذا النحو. ليس الآن، وأنا أقف هنا، في هذا المكان. أنقّل بصري من وجهٍ لوجه، لا يهم الوقت الذي مضى، ولا أن الشعر الكثيف سابقًا ملطخ الآن ببقعٍ صلعاء، ولا أن السواد حلّ مكان الشقرة، ولا أن العدسات حلّتْ مكان النظارات. بإمكاني التعرف عليهم مهما كان.

إذ إنه، وحتى الآن، على الرغم من أنني كنتُ خيبة أملٍ لعينة، ما زال أهلي يضعون صورة مدرستي في صدر البيت: أعلى المدفأة في الصالة. لم أر قط ذرة غبارٍ عليها. إنهم شديدو الفخر بهذه الصورة. «انظروا إلى ابننا في مدرسته الراقية! إنه واحد منهم». يتراص طلاب المدرسة كلهم في الساحة العشبية أمام المبنى الرئيسيِّ، تحيطه الجروف على الناحية الأخرى. نجثم جميعنا على واحدةٍ من المنصات المعدنية تلك ونبدو في أبهى حُلّة، شعورنا مشطتها المشرفة وفرّقتها إلى جانبين وعلت وجوهنا ابتسامات عريضة بلهاء، نلبي نداء: «ابتسموا للكاميرا يا أولاد!».

أبتسم لهم ابتسامةً عريضةً الآن، مثلما فعلتُ وقت التقاط الصورة. أتساءل إن كان كلهم ينظرون إليَّ في الخفاء والأفكار القديمة ذاتها تدور في رؤوسهم. چونو: المثير للشفقة. الفاشل. موضوع ماتع للسخرية، لا يصلح لأكثر من ذلك. أصبح الشخص الذي توقعوه بالضبط. حسنًا، في هذا الجزء تحديدًا أثبت لهم أنهم أخطؤوا. لأن لدي مشروع الويسكي لأتحدث عنه، أليس كذلك؟

«چونو، صاحبي. لا أصدق متى آخر مرةٍ رأيتك!». جريج هيستنجز: الصف الثالث، الثاني من اليسار، كانت أمه مثيرة، وهو أمر لم يرث منه شيئًا.

«أاااا يا چونو! طبعًا نسيت بذلتك اللعينة!». مايلز لوك: الصف الخامس، في مكانٍ ما في الوسط. له من العبقرية نصيب لكنه لا يثير جلبةً عنها، لذا فقد لاءم الشلّة.

«على الأقل لم تنسَ خاتمَي الزواج! أتمنى لو فعلت، كانت ستكون ذروة أعمالك». چيرمي سويف: أقصى يمين الصف الأخير. ابتلع قطعةً معدنيةً من فئة الخمسين بنسًا في تحدٍ للجراءة وأخذوه للمستشفى.

«چونو، صاحبنا العظيم. تعرف، عليَّ أن أخبرك، ما زلتُ أتعافى من حفل العزوبية. لقد خدعتني. يا إلهي، وذاك الرجل المسكين! فعلًا فعلًا، لعبنا به هه. إنه هنا، صحيح؟». كرتس لو: الصف الرابع، الخامس من اليمين. كان على وشك احتراف التنس لكن انتهى به المطاف محاسبًا.

الفكرة أنهم لا يرونني سوى أبله غبي، لكن ذاكرتي حادة حين يأتي ذكر هذا.

في الصورة وجه واحد لا أقوى أبدًا على حمل نفسي للنظر إليه. الصف السفلي، مع أصغر الأولاد، على اليمين. «المتوحد»، الفتى الذي أحب ويل حد العبادة، وكان سيفعل أي شيءٍ ليُسعده. أي شيءٍ نطلبه. سرق ملفوفات اللحم والزبدة من المطبخ لأجلنا، وأزال الطين من على أحذيتنا الرياضية، ونظف مهجعنا. كل الأمور التي لم نحتج في الواقع لفعلها أو تلك التي لم نُرد أن نفعلها بأنفسنا. لكن كنا نستمتع، بطريقةٍ ما، بالتفكير في أمورٍ لنكلّفه بها.

وجدنا أنفسنا نميل إلى طلب أشياء فادحة الحماقة أكثر وأكثر. أمرناه مرةً أن يتسلق سطح المدرسة وينعب مثل البومة، وفعل. أمرناه مرةً ثانية بأن يطلق كل أجراس الإنذار. كان صعبًا ألا نعلي السقف لنرى إلى أي مدى سيصل. كنا أحيانًا نفتش أغراضه ونأكل الحلوى التي أرسلتها له أمه، أو نعثر على رسائله التي سيرسلها إلى عائلته ونقرؤها جهرًا بصوتٍ بكّاء: «إنني أفتقدكم جميعًا بشدة». وكذلك كنا نعنّفه أحيانًا، حين لا ينظف أحذيتنا الرياضية جيدًا مثلًا، أو حين نقرر نحن أنها ليست نظيفةً كفاية، لأن عمله كان متقنًا دومًا. كنتُ أجبره على الوقوف وأضربه على ظهره بناحية القفل المعدني من الحذاء تشجيعًا له. كنا نختبر مدى ما يمكننا أن نفلت منه، وكان دائمًا يدعنا نفلت من أي شيء.

أتناول كأسًا أخرى من الشمبانيا وأزدردها. يحقق هذا مبتغاي أخيرًا، أشعر وكأنني أطفو. أتجه نحو تجمع خريجي تريڤيليان القدامى. أرغب أن أحكي لهم كل شيءٍ عن مشروع الويسكي. لمدة نصف ساعةٍ أو نحوها.

لعلهم يدركون في نهاية المطاف أنني بارع براعة أي أحدٍ منهم. لكن الحديث تغير ومضى قدمًا ولا تخطر ببالي طريقة لأعيد دفته كما أرغب.

يربّت أحدهم على كتفي، بقوة. أستدير فأقابله وجهًا لوجه: السيد سلاتر. والد ويل، لكنه أولًا وأخيرًا ودائمًا، مدير مدرسة تريڤيليان.

يقول: «چونثان بريجز. لم تتغير البتة». لا يعني قوله هذا مجاملةً.

اللعنة. كنتُ آمل أن أتجنبه طوال اليوم. لم يتغير تأثير رؤيته فيَّ بمرور الزمن. كنتُ أظن أنه بما أنني راشد الآن فسيختلف الأمر. لكنني مرتعب منه الرعب ذاته. غريب، إنه من أنقذ حياتي ذات يوم، حرفيًا.

أقول: «مرحبًا يا سيدي (أشعر كأن لساني عالق في حلقي) أقصد.. سيد سلاتر». أظنه يفضل دعوته «سيدي». انفضت الشلّة التي كنتُ بها لذا فإننا عالقون وحدنا الآن: هو وأنا. لا مهرب.

ينظر إليَّ من أعلى رأسي لأخمص قدمي: «أراك ما زلت ترتدي ملابسك بالطريقة المعتادة. كانت سترتك في تريڤيليان مهلهلة عليك في البداية ثم ضيقة في النهاية».

نعم. لأن عائلتي لم تقدر أن تتحمل سوى كلفة سترةٍ واحدة فقط.

يردف: «وأراك ما زلت تتسكع في ذيل ابني». لم يحبني إطلاقًا. لا أستطيع تصوره محبًا لأحدٍ أبدًا، ولا حتى ابنه نفسه.

أجيب: «نعم. إننا صديقان مقربان».

- فعلًا هل تدعوه هكذا؟ حسبتك دائمًا تنجز له عمله القذر فحسب. حين اقتحمت مكتبي لتسرق امتحانات الثانوية العامة مثلًا.

للحظةٍ يتلاشى كل شيءٍ حولي ويتجمد. تصعقني الدهشة حد أنني عاجز عن التفوه بكلمةٍ واحدة.

يسترسل السيد سلاتر غير عابئٍ بصمتي: «آه صحيح. أعرف. هل ظننت لأن أحدًا لم يبلّغ عن السرقة أنك ستفلت بها ببساطةٍ هكذا؟ كانت ستكون تشويهًا لسمعة المدرسة، بل لسمعتي شخصيًا، إن عُرِف الأمر».

أقول: «لا. ليس عندي أي فكرةٍ عما تتحدث عنه». لكن ما أفكر فيه هو: أنت لا تعرف سوى نصف الواقعة. أو ربما تعرف لكن لك وجهًا متخشبًا أشد مما ظننت.

أنجح في التملص منه بعدها. أروح لأبحث عن المزيد كي أشربه. شيء أقوى. هناك بار أقاموه خارج الصيوان. لكنهم لا يُلبّون الطلبات بسرعةٍ كافية، يطلب كل واحدٍ كأسين أو ثلاثًا، مُدّعين بأنها لأصدقائهم ومرافقيهم بينما أراهم يزدردون الكأس تلو الأخرى. إننا مقبلون على ليلةٍ من الجنون، خصيصى مع العتاد الذي أحضره پيتر رمزي. أرفع كأس الويسكي -إنها مما جلبته معي- ألاحظ أن يدي ترتجف.

ثم تقع عيناي على رجلٍ أعرفه وسط حشود الناس. ينظر إليّ مقطبًا وجهه. لم يكن في تريڤيليان. إنه في الخمسين من عمره، عجوز على أن يكون في تلك الصورة. يزعجني بدايةً لأنني لا أتذكّر بالضبط من أين أعرفه. شعره حليق حلاقةً غاية في العصرية، مثل مغني الجاز، رغم أنه أشيب وفي طريقه إلى الصلع، يرتدي بذلةً وحذاءً رياضيًّا. يبدو وكأنه خرج لتوه من إحدى شركات سوهو مدّعية الرقي ولا يعرف كيف انتهى به الأمر يقف في العراء على جزيرةٍ لا يعرفها.

تمر عدة لحظاتٍ لا أعرف فيها صدقًا أين قد أكون قابلتُ شخصًا مثله. ثم أظن أن كلينا أدرك الأمر في آنٍ واحد. اللعنة. إنه منتج «النجاة من الليل». له اسم فرنسي ذو وقْعٍ فاخر. نعم، بيرس. هذا هو.

يسير نحوي ويقول: «چونو! سعيد لرؤيتك».

أشعر بالإطراء لأنه تذكّر اسمي، تذكّر وجهي. ثم يعود لذاكرتي أن وجهي لم يعجبه بما يكفي ليختارني في مسلسله، لذا أقلل من حماسي. أقول بينما أصافحه: «بيرس». لستُ أدري لمَ يريد أن يتحدث معي. التقينا مرةً واحدة حين أتيت بصحبة ويل لتجربة الأداء. مؤكد أن الموقف سيكون أقل حرجًا لو رفعنا كؤوسنا لبعضنا بعضًا سلامًا وانتهينا من الأمر؟

يقول متأرجحًا للأمام والخلف على طرف كعبه: «لم أرك منذ زمنٍ يا چونو. لم أعرفك... مع كل هذا الشعر». إنه يتصرف بلباقةٍ فحسب، لم يطُل شعري لهذا الحد. لكن ربما أبدو أكبر خمسة عشر عامًا عما رآني آخر مرة.

أظن أنه بسبب شراهتي في الشرب. يسألني: «إذًا ما الذي تعمل عليه حاليًا؟ إنني متأكد أن هنالك شيئًا مهمًا للغاية يشغلك».

أشعر بأن في قوله شيئًا غريبًا لكن أتجاهله. أقول باعتزازٍ وفخر: «حسن، إنني مشغول في صناعة الويسكي يا بيرس».

أحاول جاهدًا تكرار الحديث الذي أحفظه عن ظهر قلب لكن، صراحةً، لا أستطيع ألا أفكر في الطريقة التي رفضني بها هذا الرجل، بضعة أسطرٍ في رسالةٍ بريدية:

«لست الوجه الأنسب للمسلسل».

لا يعرف الناس هذا عني، يرون چونو القديم، الجامح المجنون... دون إدراكٍ لما يدور خلف الكواليس. وبالطبع أحب أنهم يرونني على هذه الشاكلة، بل إنني أسعى لها. لكنني إنسان يشعر أيضًا، وأشعر بالحرج من خوض هذه المحادثة، حرج يشبه ما شعرت به حين استبعدتني شركة الإنتاج. لكن على الأقل حصلت على بضعة آلافٍ ثمنًا للفكرة.

ما لم أفصح عنه هو أنني صاحب فكرة المسلسل. لا أقصد طبعًا أن حبكته كلها من تأليفي. لكن أعرف أنني من زرع البذرة. قبل عامٍ أو نحوه كنتُ أجلس مع ويل في حانةٍ ونشرب. كنت دومًا من يقترح أن نلتقي. أما ويل فمشغول على الدوام، رغم أنه لم يكن لديه أي فرصةٍ تُذكر في مجال التمثيل، وكيل فني لا أكثر. لكنه حتى وإن أجّل لقاءنا عدة مراتٍ فإنه لا يُلغيه مطلقًا. تربط صداقتنا رابطة أقوى من أن تحلّ بسهولة. إنه يدرك هذا مثلي.

أظنني وقتها ثملتُ بشدةٍ حد أنني تجرأتُ على ذكر اللعبة التي كنا نلعبها في المدرسة: لعبة النجاة. أتذكّر ويل وهو يرمقني بتلك النظرة. كان خائفًا مما سأقوله تاليًا. لكن لم أكن لأذكر أيًّا من ذلك. لا نفعل أبدًا. كنتُ أشاهد عرضًا قبل لقائي بويل عن فتى مغامر لكنه كان غاية في السهولة. لذا قلتُ: «كان من الممكن أن تكون هذه فكرةً لعرضٍ تلفزيونيٍّ أفضل بكثيرٍ من معظم الهراء الذي تشاهده وتسميه نجاةً، أليس كذلك؟».

نظر إليَّ نظرةً مختلفةً وقتها.

سألتُه: «ماذا دهاك؟».

فقال: «چونو، ربما تكون هذه أفضل فكرة خطرت على بالك في المطلق».

- ربما.. لكنك لن تفعلها فعلًا. كما تعلم... بسبب ما حدث.

قال: «حدث هذا منذ زمنٍ سحيق. وكانت حادثة، تتذكر؟ (ثم كرر حين لم أجبه) تتذكر؟».

نظرتُ إليه، أحقًا كان يصدّق ما يقول؟ كان ينتظر إجابتي.

قلتُ: «نعم، نعم. كانت حادثة».

ثم أعرف بعدها أن كلينا حصل على تجربة أداء. وبقية الحكاية، قد نقول، غدتْ ماضيًا. بالنسبة إليه على الأقل. اتضح أنهم لا يرغبون بسحنة دميمة.

ألحظ بيرس يرمقني بنظرةٍ غريبة. أظنه طرح عليَّ سؤالًا ما، فأقول: «معذرةً، ماذا قلت؟».

- كنتُ أقول واضح أنك منهمك فيما هو أصعب. لكن على الأقل أثمرت خسارتنا مكسبًا للويسكي.

خسارتنا؟ لكنها لم تكن خسارتهم! هم من لم يقبلوا بي. انتهى.

أزدرد رشفةً كبيرة من كأسي وأقول: «بيرس. أنت لم ترغب بوجودي في مسلسلك. لذا، ومع كامل احترامي، ما الهراء الذي تتفوه به؟».

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

يدنس الطقس السيئ الأفق، يظلمه. يجمد النسيم. ترفرف الفساتين الحريرية مع الرياح، وقد تشقلبتْ قبعتان وهما ترحلان بعيدًا، واختلطت الزينة التي علتْ كؤوس الكوكتيل في الهواء.

لكن يرتفع صوت المغنين مع صوت أزيز الريح المتنامي صادحًا:

“is tusa ceol mo chroí,

Mo mhuirnín

is tusa ceol mo chroí”.

«أنت موسيقى قلبي،

يا حبيبي،

أنت موسيقى قلبي».

تمر لحظة أشعر كأنني نسيتُ كيف أتنفس. تلك الأغنية. كانت أمي تغنيها لنا ونحن صغار. أُجبر نفسي على الشهيق والزفير. إيفا، ركزي. في جعبتك الكثير لتتولي أمره.

يتجمهر المدعوون حولي معربين عن مطالبهم:

«أهناك كانابيه خالٍ من الجلوتين؟».

«أين أجد إشارةً هنا؟».

«هلّا طلبت من المصور أن يلتقط صورًا لنا؟».

«هل يمكنك تغيير مقعدي؟».

أتجول بينهم، أطمئنهم وأجيب أسئلتهم، أوجههم إلى أماكن الحمامات وغرفة تعليق الملابس والبار. كأن عددهم يفوق المئة وخمسين ضيفًا بكثير، إنهم في كل مكان، ينطلقون داخلين وخارجين من أبواب الصيوان الخافقة، يحتشدون حول البار، ينتشرون على العشب، يتموضعون لالتقاط الصور، يتبادلون القُبل ويضحكون ويلتهمون الكانابيه من جيشٍ من النُدُل. بل حتى إنني أبعدتُ عدة مدعوين بعيدًا عن السبخة قبل أن يقعوا في المتاعب.

أتجه إلى شلّةٍ أخرى منهم تحاول دخول المقبرة ومعهم كؤوسهم كما لو أنهم يتجولون في معرضٍ سياحيٍّ وأقول: «من فضلكم، بعض هذه الشواهد عتيقة وهشّة للغاية».

أسمع رجلًا يقول بنبرةٍ ساخرة ومتعجرفة بينما يعود أدراجه: «لا يبدو أن أحدًا زارهم منذ فترة. كما أنها جزيرة مقفرة، صحيح؟ لا أظن أن أحدًا منهم سيعترض».

واضح أنه لم يلمح جزء عائلتي الصغير فيها، وإنني لهذا سعيدة. لا أريدهم أن يتسكعوا حول شواهد القبور أو أن يسكبوا مشاريبهم أو حتى يطؤوا الأرض المقدسة بكعوبهم الحادة وأحذيتهم البراقة، ويقرؤوا نقوشها جهرًا. مأساتي مكتوبة هناك، متاحة لأن يتدارسها الكل.

حضّرتُ نفسي لغرابة هذا الشعور، شعور استضافة كل هؤلاء الناس، هنا. إنه شر لا بد منه، هذا ما رغبت به وسعيت له، أن أحضر أناسًا للجزيرة من جديد. مع ذلك لم أقدّر كما ينبغي لأي مدى ستكون عودتهم انتهاكًا لحرمة أهلها.

أوليڤيا

وصيفة العروس

امتدت المراسم لساعات، أو هكذا شعرتُ. كنت أرتعش في ثوبي الخفيف. قبضت على باقة أزهاري بقوةٍ شديدة حد أن أشواكها انبثقت من شريط الحرير الأبيض ووخزت يدي. كان عليَّ أن ألعق قطرات الدم من على كفي في غفلةٍ من الجميع. ثم انتهت أخيرًا.

لكن أتت بعد المراسم جلسة التصوير. يؤلمني وجهي من محاولات التبسم. خداي يصرخان من الوجع. ظل المصور يشير إليَّ ويقول: «خففي من هذا العبوس يا حلوة!». حاولتُ. أعرف أنها حتمًا لا تبدو ابتسامةً أبدًا. مؤكد أنني أبدو وكأنني أكشر عن أسناني، لأن هذا ما شعرتُ به. أحس بضيق چولز مني، لكن ليس بوسعي فعل أي شيء. عجزتُ عن تذكّر كيف كنت أبتسم. تضع أمي يدًا على كتفي وتسألني: «أنت بخيرٍ يا ليڤي؟». أظنها شعرتْ بأن خطبًا ما يجري، أنني لست بخير، لست بخيرٍ تمامًا.

يتجمع الناس، عمّات وخالات وأعمام وأقارب لم أرهم منذ زمنٍ سحيق.

تسألني ابنة خالتي بيث: «ليڤي، هل ما زلت بصحبة صديقك ذاك؟ ماذا كان اسمه؟».

تصغرني بعدة سنوات، في الخامسة عشرة من عمرها. شعرتُ دائمًا أنها تتطلع إليَّ نوعًا ما. حكيتُ لها السنة الماضية في عيد ميلاد خالتي الخمسين عن كالوم، كنتُ مزهوةً بحالي وهي تنصت لكلماتي بتركيزٍ شديد.

أقول: «كالوم... لا... افترقنا».

تسألني خالتي ميج: «وأنهيتِ سنتك الأولى في جامعة إكستر الآن؟».

لم تخبرها أمي أنني تركتها. حين أحاول أن أومئ لها إيجابًا، أشعر برأسي ثقيلًا فوق عنقي. أجيبها: «صحيح (لأن الادعاء أسهل) نعم، إنها رائعة».

أحاول إجابة كل أسئلتهم لكنها تستنزفني أكثر من الابتسام. أود أن أصرخ... إنني أصرخ في سرّي بالفعل. أرى بعضهم ينظر إليَّ في حيرة، بل حتى ألمحهم يتبادلون النظرات كأنما يتساءلون: «ما خطبها؟». نظرات قلقة. أظن أنني لا أبدو مثل أوليڤيا التي عرفوها ذات يوم، الفتاة المرحة الثرثارة التي تضحك كثيرًا. لكنني لستُ بأوليڤيا التي كنت أعرفها. لست واثقةً إن كنت سأعود لأكونها، ولا أعرف الطريق إليها. كما أنني أعجز عن تمثيل أي دورٍ أمامهم، لستُ أُشبه أمي.

فجأةً أشعر كأنني أعجز عن التنفس ثانيةً، كأنني لا أستطيع إيصال الهواء لرئتي. أريد أن أهرب بعيدًا عن أسئلتهم وعن وجوههم العطوفة القلقة. أخبرهم أنني سأذهب بحثًا عن دورة المياه. لا يبدو أنهم عابئون، بل ربما مرتاحون. أبتعد عن المجموعة. أظنني سمعت أمي تنادي اسمي لكن أستمر في سيري، ثم لا تناديني ثانيةً، ربما لأنها تشتتت في الحديث مع شخصٍ ما. تحب أمي أي جمهور. أحثّ خطاي. أخلع حذائي العالي الغبي. لستُ متأكدةً إلى أين أتجه بالتحديد، لكن وجهتي هي السير في اتجاهٍ معاكسٍ لكل الموجودين.

على يساري أرى الجروف سوداء الصخور، تلمع رطبةً من رذاذ الموج. تنخفض الأرض في بقعٍ وكأن كتلةً منها اختفتْ فجأةً في البحر، مُخلّفةً من ورائها خطًا متعرجًا. أتساءل عن شعور إن هبطت الأرض تحت قدمي بغتةً، إن تلاشت على حين غرة، لن يكون أمامي خيار سوى الانسياب معها. أدرك للحظةٍ أنني واقفة مكاني في انتظار أن تتحقق رغبتي.

أسفل الطريق التي أسير في هداها أرى بؤراتٍ بين الجروف، شطآنها من الرمل الأبيض. الأمواج هائلة ورؤوسها بيضاء وعالية. أدع الريح تهبّ عليَّ حتى أشعر بأن شعري على وشك أن يُقتلع من منبته، أشعر كأن جفنيَّ يحاولان أن ينقلبا باطنهما لظاهرهما، تدفعني الرياح كأنها تبذل قصارى جهدها لتزجّ بي من الأعلى. وتلسع وجهي لسعات من الملح.

تتلون المياه البعيدة بلونٍ أزرق براق، مثل لون البحر في صورة لجزيرةٍ من جزر الكاريبي، كتلك الجزيرة التي زارتها صديقتي چس العام الماضي

بصحبة عائلتها والتي نشرتْ منها ما يقارب خمسين صورة لنفسها بملابس البحر على الإنستجرام (كلها معدّلة ببرنامج فيس تون طبعًا لذا فإن ساقيها أطول وخصرها أنحف وصدرها أكبر). إنه لمنظر جميل، ما أنظر إليه، لكن لا أشعر به جميلًا أبدًا. ربما ما عدتُ أستطيع الشعور بأشياء جميلة، كمذاق الطعام أو دفء الشمس على وجهي أو أغنية أحبها تذاع في المذياع. ألف البحر بعيني وكل ما أشعر به هو ألم راكد في مكانٍ ما أسفل أضلعي، كجرحٍ غائرٍ قديم.

أعثر على طريقٍ غير منحدرة وأسلكها، أنزل إلى حيثما تتلاقى الأرض والشاطئ في سفحٍ وليس جرفًا. عليَّ شقّ طريقي شقًّا وسط الشجيرات النامية على السفح، إنها ضئيلة وقاسية وشائكة. تعلق بثوبي خلال مروري بينها، ثم أتعثر في جذر، أهوي نحو الضفة، أتعثر، ثم أتدحرج. أشعر بتمزق الحرير -جولز سيجن جنونها- ثم أصل على ركبتيَّ: بوم! أشعر بالدحرجة وكل ما أفكر فيه هو آخر مرةٍ سقطتُ سقطةً كهذه، حين كنتُ طفلةً في المدرسة، ربما من تسع سنواتٍ مضت. أود أن أنفجر بكاءً مثل طفلةٍ بينما تزلّ قدمي نحو الشاطئ، لأنها مفترض أن تؤلمني، مفترض أن كل جسدي يؤلمني، لكن دموعي لا تنهمر، إنني عاجزة عن البكاء منذ وقتٍ طويل. ربما لو بكيتُ سيتحسن كل شيء، لكنني عاجزة. كأنها قدرة فقدتها، كأنها لغة نسيتها.

أجلس على الرمل الندي، أشعر به يبلل ثوبي. تغطي الخدوش ركبتيَّ، تشبه خدوش اللعب، وردية تكشف اللحم وخشنة. أفتح حقيبتي الصغيرة المصنوعة من الخرز، وبحرصٍ أخرج شفرة الموسى. أرفع نسيج الثوب وأضغط جلدي بالموسى. أراقب انبثاق قطيرات الدماء، حمراء فاقعة، بطيئة في البداية، ثم تتسارع. ورغم الألم، لا أشعر بأن ما ينهمر دمي، وبأن ما قطعته توًا هو ساقي. لذا أعتصر الجرح، أحثّ مزيدًا من الدماء لأن تخرج إلى السطح، في انتظار أن أشعر بأنها تخصني.

الدم أحمر قانٍ، قانٍ بشدة، جميل. أغمس إصبعي به ثم ألعقه، أتذوق مذاقه المعدنيَّ. أتذكّر دماء بعد «العملية»، هكذا يسمّونها. قالوا إن وجود

«بقع دمٍ خفيفة» يعد أمرًا طبيعيًا. لكني شعرتُ أنها استمرت لأسابيع، بقع بُنيّة غامقة أجدها في سروالي الداخلي، كأن شيئًا بداخلي يصدأ شيئًا فشيئًا.

أتذكّر مكاني بالتحديد حين أدركتُ أن دورتي الشهرية لم تأتِ. كنتُ بصحبة صديقتي چس، في حفلٍ أقامه طلاب السنة الثانية في مسكنهم، وكانت تحكي لها عن أنها شنّت غارة تفتيش لخزانات الحمام لتعثر على سداداتٍ قطنية إذ إن دورتها الشهرية أتت في موعدٍ أبكر من موعدها. أتذكّر الشعور العجيب الذي انتابني وأنا أسمعها، كأن حجرًا هبط على صدري، عجزتُ عن التنفس، يشبه حالي الآن. أدركتُ أنني لا أتذكّر متى آخر مرةٍ استخدمتُ سدادةً قطنية. كنتُ وقتها أحس بأحاسيس غريبة، مزيج من الانتفاخ والقرف والتعب، لكنني ظننتها بسبب الطعام الرديء الذي أتناوله واستيائي من ستيڤن. كانت قد مرت فترة ليست قصيرة. تأتيني دورتي الشهرية في بعض الشهور خفيفةً فلا تزعجني البتة. لكنها دائمًا تأتي. دائمًا منتظمة.

كنتُ في منتصف الفصل الدراسي الجديد. ذهبتُ إلى طبيبة الكلية وأجريتُ اختبار حملٍ معها، لم أثق بمقدرتي على إجرائه بشكلٍ صحيح وحدي. أخبرتني أنه إيجابي. جلست هناك، أحدق إليها، كأن الحيلة لن تنطلي عليَّ، كأنني أنتظرها تقول إنها تمزح. لم أصدّق فعلًا أنه حقيقيٌّ. ثم بدأت تتحدث عن اختياراتي المتاحة وتسألني إن كان هناك أحد أناقش الأمر معه؟ لم أقوَ على النطق بكلمة واحدة. فتحتُ فمي عدة مراتٍ ولم يخرج شيء، ولا حتى الهواء، لأنني، ثانيةً، كنتُ عاجزةً عن التنفس. شعرت أنني أختنق. جلست الطبيبة مكانها والتعاطف يعلو وجهها، لكنها بالطبع لم تستطع أن تقترب وتعانقني بسبب كل الأمور القانونية. ووقتها فعلًا فعلًا كنتُ بحاجةٍ إلى عناق.

خرجتُ من هناك أرتجف، حتى إنني لم أتمكن من السير كما ينبغي، شعرت كأن سيارةً صدمتني. لم أشعر بأن جسدي يخصني. كان يدبّر سرًا طوال هذا الوقت... دون أن يكون لدي أدنى فكرةٍ عما يفعله.

لم أقوَ حتى على تحريك أصابعي على هاتفي. لكني فتحتُه في النهاية. راسلته على الواتساب. رأيت أنه قرأ الرسالة فورًا. رأيتُ نقاطًا ثلاثة تظهر

أعلى الشاشة، تخبرني أنه «يكتب الآن...». ثم اختفت. ثم ظهرت ثانيةً، وكان «يكتب الآن...» لدقيقةٍ كاملة. ثم لا شيء.

اتصلتُ به لأن من الواضح أن هاتفه كان قريبًا منه، يحمله في يده. لم يُجِب. اتصلتُ ثانيةً، نفدت الرنات. اتصلتُ ثالثةً، فوصلتني رسالة البريد الصوتي مباشرةً. ألغي اتصالي. تركتُ له رسالةً صوتية، لكن لا أعرف مقدار ما فهمه مما قلته، كان صوتي يرتعش.

اصطحبتني أمي إلى العيادة لإنهاء الأمر. قطعت الطريق من لندن حتى إكستر، قرابة الأربع ساعاتٍ، وانتظرتني حتى انتهيتُ ثم عادت بي إلى المنزل بعدها. أخبرتني: «إنه الخيار الأفضل. صدقيني يا عزيزتي ليڤي، إنه أفضل شيء. أنجبتُ وأنا في عمرك، لم أظن أن عندي خيارًا غيره. كنت في بداية حياتي، في بداية عملي. دمر كل شيء».

كنتُ أعرف أن چولز ستحب سماع هذا. مرةً سمعتُ شجارًا يدور بينهما، كانت چولز تصرخ في وجه أمي قائلةً: «لم ترغبي فيَّ قط! أعرف أنني أفدح خطأ ارتكبته...».

كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن أفعله. لكنه كان ليكون أسهل كثيرًا إن أجابني، إن سمح لي أن أعرف أنه فهم، أنه شعر بما شعرتُ. سطر واحد لا أكثر... كان هذا كل ما تطلّبه الأمر.

أخبرتني أمي مرةً: «إنه داعر لعين! تركك تخوضين كل هذا وحدك».

قلتُ لها مخافة أن تقع صدفة مريبة وتلتقي كالوم فتمسك بتلابيبه وتصب عليه لعناتها: «إنه لا يعرف. لم أرغب في إخباره».

لم أعرف سبب أنني أخفيتُ عنها أنه لم يكن كالوم. ليس وكأنها أم صارمة متزمتة، لم تكن لتحكم عليَّ إن عرفت كل ما جرى مع ستيڤن. لكن أظن أنني أدركتُ مدى سوء ما سأشعر به حين أفصح عن الأمر برمته، أن أشعر بالرفض ثانيةً.

أتذكّر كل شيء في طريق عودتنا من العيادة. أتذكّر كيف بدت أمي مختلفةً عن عادتها، لم أرها على هذه الهيئة من قبل. رأيتُ كيف أحكمتْ قبضتها على

مقود القيادة حد أن جلدها حال أبيض. ظلت تهمس بالمسبّات واللعنات. بل حتى إن قيادتها للسيارة كانت أسوأ من الطبيعيّ.

أخبرتني حين وصلنا إلى المنزل أن أستلقي على الأريكة، أحضرتْ لي كعكًا وأعدّت الشاي، ثم غطتني ببطانيةٍ ثقيلة رغم أن الجو كان دافئًا. ثم جلست جواري، تحمل كوب شايها، لستُ واثقةً إن كنتُ قد رأيتها تشرب شايًا من قبل. لم تشربه في الواقع، جلست هناك فحسب، يداها تطبقان على الكوب بقوةٍ مثل قبضتها على مقود القيادة.

كررتْ من جديد: «سأقتله»، لم يكن صوتها يشبه صوتها الحقيقيَّ، كان خفيضًا وأجش. أردفتْ بنفس الصوت الغريب: «كان عليه أن يكون معك اليوم. من حسن حظه أنني لا أعرف اسمه كاملًا... آهٍ مما كنتُ سأفعله به».

أمعن النظر في الأمواج. أعتقد أن وجودي في البحر سيحسّن شعوري. فجأةً أظنه الشيء الوحيد الذي قد يُجدي نفعًا. يبدو رائقًا وجميلًا لا تشوبه شائبة، أن يكون المرء بداخله يشبه كونه في بطن حجرٍ نفيس. أنهض وأنفض الرمل عن ثوبي. اللعنة... الرياح باردة. لكنها برودة رائعة، ليست مثل برودة الكنيسة. كأن هبوبها يأخذ في طريقه كل ما يدور في رأسي.

أترك حذائي في الرمل المبتل. لا أكلف نفسي عناء خلع ثوبي. أسير نحو الماء، إنه أبرد بعشر درجاتٍ من الهواء، بارد حد التجمد، يجعل أنفاسي تتسارع فلا أستنشق من الهواء إلا قليلًا. أشعر بلسع الجرح في ساقي والملح يدخله. فأندفع أكثر نحو الماء ليغطي الماء صدري وكتفيَّ، الآن فعلًا أعجز عن التنفس، كأنني أرتدي كورسيهًا. أشعر بمفرقعاتٍ ناريةٍ صغيرةٍ تتفجر في رأسي وعلى جلدي، وترتخي كل الأفكار البشعة، أتمكن من النظر إليهم بسهولةٍ أكثر.

أُنزل رأسي، أهزه، أحثّ أفكاري البشعة بأن تطفو بعيدًا عني. تأتي موجة وتُملئ فمي بالمياه. إنها شديدة الملوحة وتدفعني إلى التقيؤ، لكني حين أتقيأ أبتلع المزيد منها فأعجز عن التنفس فيدخل مزيد من المياه، إنه في أنفي كذلك، كلما فتحتُ فمي بحثًا عن الهواء تأتي المياه مكانه، شربات مالحة هائلة منه في فمي. أشعر بحركة المياه أسفل قدمي، كأنها تسحبني إلى مكانٍ ما، تحاول أخذي معها. كأن جسدي يعرف أمرًا أجهله، لأنه يحارب من أجلي،

تتخبط ذراعاي وساقاي. أتساءل إن كان الغرق يشبه ما يجري. ثم أتساءل إن كنتُ أغرق.

چولز

العروس

كنتُ بعيدةً أنا وويل عن صخب الجموع، يلتقط المصوِّر صورنا جوار الجروف. اشتدت الريح بلا شك. اشتدت من فورها منذ أن غادرنا أمان الكنيسة وانجرفت حفنات القصاصات الملونة المنثورة بعيدًا إلى البحر قبل أن تلمسنا حتى. حمدًا لله أنني قررتُ أن أسدل شعري فلم يتضرر كثيرًا من غضب الطبيعة. أشعر به يموج من خلفي، ويرتفع ذيل ثوبي في تيارٍ حريريٍّ. يحب المصور هذا ويفصح عن إعجابه قائلًا: «تبدين مثل ملكةٍ قلطيةٍ بهذا التاج... ولون بشرتك!». يبتسم ويل بوسع فمه ويحركه كأنه يقول: «ملكتي الغيلية». أبتسم له. لزوجي.

حين يطلب منا المصور أن نتبادل القُبل، نفعلها بجرأة وشراهة، فأشار المصور -المرتبك نوعًا ما- أن هذه الصور قد تكون «جريئةً» قليلًا على أن تُعرض ضمن الصور الرسمية.

نعود إلى الضيوف الآن. تتلون الوجوه التي تستدير إلينا بينما نمر بينها بحمرةٍ من أثر الدفء والنبيذ. أشعر أمامهم بأنني عارية تمامًا كأن اضطراب الصباح جليٌّ على وجهي. أحاول تذكير نفسي بمتعة اجتماع أصدقائي وعائلتي هنا في مكانٍ واحد، ومن الواضح أنهم يستمتعون بوقتهم. وأن اليوم ينجح، خططت لحدثٍ سيتذكره الناس، وسيتحدثون عنه، وسوف يحاولون -مع فشلٍ محتمل- أن يكرروه.

يلوح في الأفق احتشاد السحاب الرماديِّ، ينذر بالنحس. تثبّت النساء قبعاتهن على رؤوسهن وتنانيرهن على أجسادهن بصرخات مرحة خفيفة.

أشعر بالريح تضرب ثوبي أيضًا، تقذف حريره السميك كأنه في خفة منديلٍ، وتصفّر بين ثغرات التاج المعدني كأنها ترغب في أن تنتزعه عن رأسي وتهرع به نحو البحر.

أرنو إلى ويل لأرى إن كان يلحظ الأجواء أيضًا. تحيطه مجموعة ثرثارة من المباركين، وهو يتصرف على سجيته الساحرة المعتادة. لكن أحس أنه ليس مندمجًا معهم بالكامل، بل يظل يرمق المكان بانتباهٍ مشتت خلف أكتاف أقاربه وأصدقائه الذين أتوا لتحيتنا، كأنه يبحث عن شخصٍ ما، أو شيءٍ ما.

أسأله: «ماذا هناك؟». أمسك بيده. أراها مختلفةً الآن، غريبةً عني، مع الخاتم الذهبيِّ الأملس.

يقول: «هل هذا... بيرس... الواقف هناك؟ يتحدث مع چونو؟».

أتبع مكان نظره، إنه بيرس وايلتي بشحمه ولحمه، منتج مسلسل «النجاة من الليل»، تميل رأسه صلعاء الوسط بجديةٍ بينما هو منصت لأيٍّ كان ما يقوله چونو.

أجيبه: «نعم. إنه هو. ما المشكلة؟». لأن حتمًا هنالك مشكلة، إنني واثقة، أراها في عبوس ويل. إنه تعبير يندر أن أراه على وجه ويل، هذا الشرود القلق.

يقول: «لا شيء بالتحديد. إنني.. إنه موقف غريب فحسب. لأن بيرس رفض چونو سابقًا. صراحةً لستُ واثقًا الموقف غريب على أيهما بالتحديد. ربما عليَّ أن أذهب وأنقذ أحدهما».

أقول: «إنهما رجلان كبيران. مؤكد أنهما قادران على حل الأمر».

يبدو أن ويل لم يسمع ما قلتُ، تحرر من يدي وقطع طريقه على العشب نحوهما، يصد أي ضيفٍ يأتي ناحيته للسلام عليه بتهذيبٍ لكن بحزمٍ. ليس هذا من شيمه بالمرة. أتبعه بنظري وأنا في حيرةٍ من أمري. ظننتُ أن شعور الاضطراب هذا سيرحل عني عقب المراسم، بعدما قلنا كل العهود المهمة. لكنه لا يزال بصحبتي، يقبع مثل الغثيان في قاع معدتي. أحس بأن شيئًا خبيثًا يتربص بي، كأنني أراه بطرف عيني فلا أتمكن أبدًا من تدقيق النظر به. لكن هذا جنون محض. إنني بحاجةٍ للاختلاء بنفسي لحظةً بعيدًا عن صخب الضيوف فحسب.

أمُر جوار الضيوف المتناثرين على الأطراف، أثني رأسي لأسفل وأسير بخطى سريعة تعرف طريقها في حالة أن حاول أحدهم اعتراض طريقي. أدخل القلعة من مدخل المطبخ. يعمّ المكان هدوء جليل. أغمض عيني لحظةً طويلة في ارتياح. في وسط المطبخ، وعلى منضدة اللحوم هناك شيء -إنه جزء من طعامٍ سيقدم لاحقًا بلا شك- مغطى بقطعة قماشٍ كبيرة. أجد كأسًا وأرتوي من المياه الباردة، وأنصت إلى دقات الساعة المهدّئة المُعلَّقة على الحائط. أقف ووجهي إلى الحوض، وبينما أرتشف المياه أعد من واحدٍ لعشرة وأعكس العد ثانيةً. أقول لنفسي: إنك تتصرفين بسخافةٍ يا جولز، كله من نسيج عقلك!

لا أعرف أي شيءٍ جعلني أشعر بأنني لستُ بمفردي. غريزة حيوانية ربما. ألتفت، وأرى عند مدخل الباب... يا إلهي. أشهق، أتعثر للخلف، قلبي يدق مثل قرع الطبول. يقف رجل يحمل بيده سكينًا هائلًا ووجهه وجسده ملطخان بالدم.

أهمس: «رباه!». أنكمش مكاني، وأحاول جاهدةً ألا أفلت الكأس من يدي. خفقان من الخوف المحض، من الأدرينالين المتسارع... ثم يفرض المنطق نفسه. إنه فريدي، زوج إيفا. يحمل سكين جزارة، والدماء تلطخ المئزر الذي يربطه على خاصرته.

يقول بطريقته المرتبكة: «آسف. لم أقصد إخافتك. إنني أقطّع الضأن هنا... سطح التقطيع هنا أفضل مما في خيمة الطبخ». وكأنه يحاول برهنة كلامه، يرفع الغطاء من على المنضدة فأرى أسفله أضلع الضأن في كتلةٍ واحدة: اللحم القرمزي اللامع، والعظام البيضاء البارزة.

بينما يعود قلبي لنبضه الطبيعيِّ، أشعر بالخزي أن الخوف كان مفضوحًا على وجهي. أقول في محاولةٍ لفرض شيءٍ من سلطتي: «حسنًا، إنني على ثقةٍ أنه سيكون لذيذًا. شكرًا لك». ثم أحثّ خطاي -لكن بحذرٍ كيلا أهرع- إلى خارج المطبخ.

حين أعود إلى ضيوفي المتحلقين في الخارج أشعر بأن تغيُّرًا أصاب حيوية الحشد. علت همهمة فضولية جديدة. كأن شيئًا ما يجري على البحر.

بدأ الكل يستدير وينظر باهتمامٍ منجذبٍ لأيٍّ كان ما يحدث. أسأل بينما أمد عنقي لأرى من فوق الرؤوس: «ماذا هناك؟»، لا أرى شيئًا البتة. يقلّ الناس من حولي متفرقين ناحية البحر دون أن يتفوه أحد بكلمة، الكل يحاول أن يلقي نظرةً أوضح على ما يجري.

ربما هو مخلوق بحريٌّ، أخبرتني إيفا أنهم يرون الدلافين من هنا طوال الوقت، وفي أحيانٍ نادرة يرون حوتًا. يا له من منظرٍ لو صح هذا، بل سيكون إثراءً لطيفًا للجو. لكن الأصوات التي تصل ممن في المقدمة لا تنبئ نبرتها بهذا أبدًا. كنتُ لأتوقع صراخًا وهتافًا مرحًا وتلويحًا حماسيًّا. إنهم ينظرون إلى ما أمامهم بتمعنٍ شديد لكن دون أي صخبٍ. يقلقني هذا، ينذر بالشر.

أندفع للأمام. يلحّ الناس في دفعهم، يحتشدون متدافعين كأنهم يتنافسون على أفضل مكانٍ في الحفل. قبل قليل، كنتُ أسير بينهم عروسًا، مثل ملكة، تفك خطواتي تجمعاتهم. الآن نسوا أنفسهم، ينصب تركيزهم كله على أيٍّ كان ما يحدث.

أصرخ بهم: «دعوني أمُر! أريد أن أرى».

يتفرقون أخيرًا لأمُر بينهم وأسير نحو المقدمة. شيء ما هناك. أضيق عينيَّ، أحجبهما عن الضوء، أرى شكلًا مبهمًا لرأس. قد يكون لفقمةٍ أو أي كائنٍ آخر، عدا أن يدًا بيضاء ظهرت عدة مرات.

شخص ما هناك. في الماء. من الصعب رؤيته أو رؤيتها بوضوحٍ من مكاننا هنا. حتمًا إنه أحد الضيوف، ليس وكأن أحدًا قد يصل من البر إلى هنا سباحةً. لن أتفاجأ لو كان چونو. لكن محال، رأيتُه يتحدث مع بيرس قبل لحظات. إن لم يكن هو، فربما هو متباهٍ آخر من الزمرة نفسها، واحد من أصدقاء ويل، يستعرض قدراته. لكن حين أدقق النظر أدرك أن السبّاح لا يتجه إلى الشاطئ، بل نحو البحر. وهذه ليست بسباحة، أفهم الآن. في الواقع...

تصرخ امرأة: «إنه يغرق! (إنها هانا على ما أظن) إنه عالق في التيار... انظروا!».

أتقدم خطوةً لعلي أرى أفضل، أندفع وسط حشود المتفرجين. حتى أصل إلى الصفوف الأولى وتتضح الرؤية. ربما ببساطةٍ هي تلك المعرفة العميقة

النادرة. طريقة نتعرّف بها على أقرب المقربين منا، حتى لو كل ما نراه هو لمحة من رأسهم.

أصرخ: «أوليڤيا! إنها أوليڤيا! يا إلهي، أوليڤيا!». أحاول أن أركض لكن يعلق ثوبي أسفل كعب حذائي ويعرقلني. أسمع صوت تمزق الحرير وأتجاهله، أركل حذائي ويختل توازني حين تغوص قدماي في أرض المستنقع اللينة. لم أحب الركض قط، زِد عليه ثوب الزفاف. أشعر وكأنني أتقدم ببطءٍ لا يُصدّق. وحمدًا لله أن ويل لا يبدو أنه يعاني من ذات المشكلة، إنه يطوي الأرض طيًّا ويجتازني، يتبعه تشارلي وآخرون.

حين أصل إلى الشاطئ، أستغرق هنيهةً حتى أستوعب ما يجري، حتى أفهم المشهد الذي أراه. تصل هانا، التي أتت ركضًا، وتقف جواري لاهثةً. يقف تشارلي وچونو وسط المياه التي تغطي نصف جسديهما، ومن خلفهما يقف عدة رجالٍ عند حافة المياه -فيمي ودنكن وآخرون- ومن ورائهم جميعًا، يخرج ويل من أعماق المياه حاملًا بين ذراعيه أوليڤيا. يبدو أنها تقاومه، تصده: ذراعاها تضربان الهواء، وساقاها تركلان بيأس. لكنه يحكم قبضته عليها. ثوبها شفاف بالكامل. إنها شديدة الشحوب، وجلدها أزرق اللون.

يقول چونو فور وصوله إلى الشاطئ: «كان يمكن أن تغرق (إنه في حالة ذهولٍ واضطراب. لأول مرةٍ أشعر بالود ناحيته) من حظها أننا رأيناها. طفلة مجنونة، أي أحدٍ في وسعه ملاحظة أنها منطقة مياهٍ غير محمية. كان يمكن أن تنجرف ويبتلعها البحر».

يصل ويل ويفلت أوليڤيا. تبتعد عنه بسرعةٍ ثم تقف محدقةً إلينا. عيناها سوداوان وزجاجيتان. أرى جسدها بوضوحٍ عبر ثوبها المبتل، كأنها عارية، تفاصيل صدرها والتجويف الصغير لسُرتها. كأنها مخلوقة بدائية، بل حيوان بريٌّ.

أرى وجه ويل وعنقه متخدشين، تنتشر علامات حمراء مهتاجة على جلده. وكأن رؤيتهم أفاقت بداخلي شيئًا. كنتُ منذ ثوانٍ معدوداتٍ أرتجف خوفًا عليها، أما الآن فأشعر بغضبٍ مسعور عنيف حامٍ حمى توهج الشمس.

- تلك الساقطة المختلة!

تقول هانا بلطف، لكن ليس لطفًا غامرًا إذ إن بوسعي سماع نبرة الاحتقار في صوتها: «چولز... لا أظن أن أوليڤيا على ما يرام. أعتقد... لربما هي بحاجةٍ للمساعدة...».

- بحق الله يا هانا! (أستدير كي أوجهها) أتفهم لطفك ومشاعر الأمومة التي تغرقك أو أيًا كان. لكن أوليڤيا لا تحتاج أمًّا لعينةً. لديها واحدة بالفعل تمنحها اهتمامًا مفرطًا -دعيني أخبرك- أكثر مما حصلتُ عليه أنا في حياتي كلها. أوليڤيا ليست بحاجةٍ للمساعدة. بل هي بحاجةٍ لأن تلملم نفسها وتتماسك. لن أسمح لها بأن تخرب زفافي... لذا كُفّي عن هذا! واضح؟

أراها تخطو، تتعثر بالأحرى، للوراء. لم أُلقِ بالًا لما ارتسم على وجهها من ألمٍ وانزعاج. تجاوزت الحد وحدث ما حدث، عبرتُ إلى الناحية الأخرى. لكن الآن، لا آبه لأي شيء. ألتفت إلى أوليڤيا وأصرخ في وجهها: «ما الذي كنتِ تفعلينه بحق الجحيم؟».

لم تفعل أوليڤيا شيئًا سوى الحملقة فيَّ، ساهمةً وخرساء. تبدو كما لو أنها ثملة. أمسك بكتفيها. ملمس جلدها قارس البرودة. أريد أن أهزها، أن أصفعها، أن أشد شعرها، أن أنتزع إجابةً منها. ثم يفتح فمها ويقفل، يفتح ويقفل. أحدق إليها، أحاول أن أفهم. كما لو أنها تحاول تكوين كلماتٍ لكن صوتها لا يجد مخرجًا. عيناها مصمتتان، متوسلتان. يقشعر جسدي. للحظةٍ أشعر كما لو أنها تحاول بكل قوتها أن ترسل لي رسالة ليس عندي وسيلة لاستقبالها. أهو اعتذار؟ تفسير؟

وقبل أن أحظى بفرصة إعادة سؤالي، أجد أمي فوقنا: «بنتاي، بنتاي!». تضمُنا في عناقٍ بجسدها العظمي النحيل. وأسفل سحابةٍ من عطر شاليمار الفوّاح، أشم رائحة عرقها اللاذعة الحادة النافذة، رائحة خوفها. إنها تحاول الوصول إلى أوليڤيا في الواقع. لكن للحظةٍ أسمح لنفسي بالاستسلام في عناقها.

ثم أنتبه لمن خلفي. يحاول بقية الضيوف اللحاق بنا. أسمع همهمات أصواتهم، أحس بالحماس النابض داخلهم. عليَّ تخفيف حدة الموقف الآن.

يعلو صوتي قائلًا: «هل يرغب أحد آخر في السباحة؟».

لا يضحك أحد. يتمدد الصمت. كلهم ينتظرون إشارةً ما ترشدهم إلى أين يتجهون الآن بما أن العرض قد انتهى. لا أعرف ماذا أفعل، لم يكن هذا في حسباني. أقف وأبادلهم التحديق، وأشعر ببلل الشاطئ يغرق أطراف ثوبي.

حمدًا لله على وجود إيفا، تظهر من بينهم، أنيقةً في ثوبها الكحلي المتعقّل وحذائها العريض، في رصانةٍ وسكون. أراهم جميعًا يلتفتون ناحيتها، كما لو أنهم يُقرّون بسلطتها.

تخاطبهم: «لو سمحتم، اصغوا إليَّ. (لها صوتٌ رنَّان يثير الإعجاب مقارنةً بكونها امرأة ضئيلة الحجم وهادئة) رجاءً اتبعوني جميعًا من هذه الطريق، سيُقدَّم الإفطار قريبًا. الصيوان في انتظاركم!».

چونو

الإشبين

انظروا إليه! يلعب دور البطل، ينقذ شقيقة چولز من المياه. انظروا إلى اللعين السافل! كان دائمًا بارعًا في أن يُظهر للناس ما يرغب في إظهاره بالضبط.

أعرف معدن ويل الحقيقي أكثر من الآخرين، ربما أكثر من أي أحدٍ في العالم أجمع. أراهن على أنني أعرفه أفضل من چولز نفسها، أو ربما أفضل مما ستعرفه في حياتها كلها. يلبس قناعًا وهو برفقتها، يحمي ذاته. لكني أخفيتُ أسراره لأنها كانت أسرارنا.

كنتُ أعرف دومًا أنه خسيس متحجر القلب. عرفت هذا منذ أيام المدرسة حين سرق الامتحانات. لكنني ظننت أنني في مأمنٍ من خسّته هذه، إنني أقرب أصدقائه. هذا ما حسبتُه حتى قبيل نصف الساعة الماضية.

قال بيرس: «كانت خيبة أملٍ فظيعة حين وصلنا أنك لا ترغب في أداء الدور. أعني أن ويل طبعًا سفاح مع النساء. خُلق ليكون ممثلًا. لكنه أحيانًا يكون... متعجرفًا بعض الشيء. وبيني وبينك، بصراحةٍ لا أظن أن المشاهدين الذكور يحبونه تمامًا. تقول بحوث التسويق التي أجريناها عن أنهم يرونه مثل... حسنًا، الوصف الذي استخدمه أحد المشاركين كان أنه «أبله من بلهائي». بعض المشاهدين، الرجال منهم بالأخص، لا يحبون أن يكون محور العرض رجلًا بالغ الوسامة. كنت أنت من سيحقق هذا التوازن».

قلتُ: «لحظة، لحظة. لمَ ظننتم أنني لا أرغب في الدور؟!».

لاح الانزعاج على وجهه بدايةً، لا أظنه رجلًا يحب أن يقاطع حديثه وهو يحكي عن الإحصائيات الديموغرافية. ثم قطّب وجهه ليستوعب حديثي.

- لمَ ظننا أنك... (ثم توقف ونفض رأسه) حسنًا. أنت لم تحضر الاجتماع، هذا هو السبب.

لم يكن عندي أدنى فكرةٍ عما قاله: «أي اجتماع؟».

- الاجتماع الذي كنا سنناقش فيه كيف سيسير كل شيء. حضر ويل بصحبة وكيله وقال إنكما للأسف تناقشتما نقاشًا طويلًا وكان قرارك في النهاية أن العرض ليس مناسبًا لك. أن «الدراما لا تناسبك».

كل تلك الأشياء التي كررتُها طوال الأربع سنوات على مسامع الجميع. عدا أنني لم أقلها لويل. ليس آنذاك. ليس قبل أن أعرف عن اجتماعٍ مهم. قلتُ: «لم أعرف عن أي اجتماعات. وصلتني رسالة بريدية تقول إنك لم تقبلني».

كأن وقْع الخبر استغرق لحظاتٍ كي يحلله في رأسه. ثم انفرجت شفتا بيرس وضمتا ثانيةً، ببلاهةٍ وفي صمت، مثل سمكة: بلوب بلوب بلوب. ثم نطق أخيرًا: «هذا محال!».

أجبته: «لا. ليس محالًا. إنني متأكد تمامًا مما أقول... لأنني لم أسمع عن أي اجتماعات...».

- لكننا أرسلنا...

- أجل. لكنكم لم تعرفوا بريدي الإلكتروني من الأساس، صحيح؟ الاتفاق كله سار من خلال ويل ووكيله. هما من خططا لكل شيء ليسير كما سار.

يقول بيرس: «حسنًا...»، وقتها فهم أنه أزاح الغطاء عن حفرةٍ من الديدان. استرسل قائلًا كما لو أنه يرغب في الإفصاح عن كل شيءٍ لحظتها: «مؤكد أن ويل أخبرنا أنك لستَ مهتمًا. وأنك منهمك في البحث عن ذاتك وأخبرته بقرار رفضك. وكانت خيبة أملٍ لنا، لأنك أنت وويل، كنتما كما خططنا، الخشن والرقيق معًا.. كان ليكون عرضًا ناسفًا».

لن يُفضي الحديث مع بيرس إلى أي شيء. بدا وكأنه يتمنى أن يتلاشى إلى أي مكانٍ آخر. كدتُ أقول له: «إنها جزيرة صغيرة يا صاحبي، لا مهرب».

لكن لم أندهش من شعوره. في وسعي رؤية محاولاته ليلمح أي أحدٍ ورائي، بحثًا عمن ينقذه.

لكن معركتي ليست معه، بل مع الرجل الذي حسبتُه أعز أصدقائي وأقربهم.

ذكرناه فحضر. رأيتُ ويل يتقدم نحونا بخطى سريعة والابتسامة تعلو وجهه، وسيمًا لعينًا كما يقول الكتاب بلا شائبة، أنيقًا مهندمًا رغم الرياح. سألَنا بمرحٍ: «أي نميمة تتبادلان وحدكما؟».

كان قريبًا بما يكفي لأرى قطرات العرق على جبينه. أترون؟ ويل نادرًا ما يتعرق. حتى ونحن نلعب الرجبي، لم أره متعرقًا سوى مرةٍ أو مرتين. لكنه كان يتفصد عرقًا الآن.

تأخرت يا صاحبي. تأخرت أكثر من اللازم.

أظن أنني أفهم. كان أذكى من استبعادي والأمور في أولها. كانت فكرة المسلسل فكرتي وكلانا نعلم ذلك. إن فعل هذا لكنتُ فضحته وأخبرت الجميع عما حدث ونحن صغار. خسارتي لم تكن بفداحة خسارته. لذا أشركني معه، أشعرني بأنني جزء من الحدث، ثم جعل الأمر يبدو وكأن إقصائي كان بيد شخصٍ ثانٍ لا علاقة له به. ليست غلطته بالمرة: «معذرةً يا صاحبي. خسارة كبيرة. كنتُ سأحب العمل معك».

أتذكّر مدى استمتاعي بتجربة الأداء. شعرتُ بأنني على طبيعتي وأنا أتحدث عن تلك الأمور، أمور أعرفها. شعرت بأن عندي شيئًا لأقوله، شيئًا سيود الناس سماعه. لو طلبوا مني تسميع جدول الضرب أو مناقشة السياسة لكنتُ فشلت فشلًا ذريعًا. لكن تسلق المنحدرات وهبوطها وما شابه، إنني بارع في تلك المهارات حد أنني أعلّمها في المنتجعات. حتى إنني لم أفكر في وجود الكاميرا، بعد الجزء الأول بالطبع.

الأشد إهانةً هو البساطة التي شعر بها ويل حيال ما فعل. جونو الأبله... لا شيء أسهل من خداعه. الآن أفهم لمَ لاقيتُ صعوبةً في الوصول إليه والحديث معه مؤخرًا. لمَ شعرتُ وكأنه يدفعني بعيدًا عنه. لمَ كان عليَّ التوسل له حرفيًّا لأكون إشبينه.

حتمًا ظن حين وافق أنها قد تكون مثل هديةٍ تعويضية، مثل ضمادة جروح. لكن كوني إشبينًا له لن يسدد فواتيري. إنه ليس ضمادة جروحٍ كبيرةٍ كما ينبغي. استغلني، طوال الوقت كان يستغلني، مذ كنا في المدرسة. كنتُ موجودًا لأؤدي عمله القذر نيابةً عنه. لكنه لم يقبل بمشاركة الأضواء معي، طبعًا لا. حين يصل الأمر لهذا الحد فهو على استعدادٍ لأن يلقي بي أسفل أي حافلة. أزدرد الويسكي جرعةً واحدة. المحتال الداعر. سأعثر على طريقةٍ أقتص بها لنفسي.

هانا

المُرافِقة

إنها على حق. أوليڤيا لديها والدتها وشقيقتها. ربما يجدر بي أن أكف عما أفعل، كما قالت چولز. لكن لا أستطيع. بينما يسرع الآخرون نحو الصيوان، أجدني أسير في الاتجاه المعاكس، ناحية القلعة.

أنادي فور أن أدخل: «أوليڤيا؟». ما من إجابة. يتردد صدى صوتي على الجدران الصخرية. القلعة معتمة وساكنة وخاوية الآن. لا أصدق أن أحدًا غيري هنا. أعرف مكان غرفة أوليڤيا -الباب الذي يؤدي إلى غرفة الطعام- سأجربه أول واحد. أطرق الباب.

- أوليڤيا؟

- نعم؟

أظنني سمعتُ صوتًا واهنًا يأتي من الداخل. أعتبره إشارةً كي أفتح الباب. تجلس أوليڤيا على السرير، وتحيط كتفيها بمنشفة. تقول دون أن ترفع بصرها: «إنني بخير. سأعود إلى الصيوان بعد قليل. كنتُ سأبدل ملابسي فقط. إنني على ما يرام».

أقول: «لا تبدين بخير».

تهز كتفيها ولا تقول شيئًا.

أسترسل: «اسمعي، أعلم أنه ليس من شأني. وأعلم أننا لا نعرف بعضنا بعضًا جيدًا. لكننا حين تحدثنا البارحة، شعرتُ أنك تمرين بمرحلةٍ عصيبة.... أعرف صعوبة أن تتظاهري بالسعادة لتغطي كل هذا».

تظل أوليڤيا على صمتها، ولا تنظر إليَّ حتى.

أكمل: «لذا، أردتُ سؤالك... عما كنتِ تفعلينه في المياه».

تهز أوليڤيا كتفيها ثانيةً وتقول: «لستُ أدري (تصمت لحظاتٍ وتردف) إنني... كان كثيرًا عليَّ. الزفاف، وكل هؤلاء الناس. وتكرارهم بأن عليَّ أن أُظهر فرحتي بزفاف چولز. أسئلتهم عما أفعله الآن. عن الجامعة...»، يخبو صوتها، وتنظر إلى يدها. أرى كيف قضمتْ أظافرها مثل طفلٍ صغير، أناملها مبتورة ومتجرحة تناقض جلدها الشاحب. ثم تردف: «أردتُ فقط الهرب من كل هذا».

أوضحت چولز أن ما وقع كان مخاطرةً لجذب الاهتمام، وأن أوليڤيا ليست إلا ملكةً للدراما. أرى أن العكس صحيح. كانت تحاول أن تختفي عن الأنظار.

أسألها: «أيمكنني أن أخبرك شيئًا؟».

لا تجيب لذا أواصل حديثي.

- تذكرين أختي أليس التي حكيتُ لكِ عنها البارحة؟
- أجل.
- أظنكِ تذكّرينني بها قليلًا، آمل ألا تمانعي قولي هذا. أعني به إطراءً لك. كانت أول واحدةٍ في العائلة تلتحق بالجامعة. نتائج امتحاناتها كانت رائعة، دائمًا تحصل على علاماتٍ ممتازة.

تتمتم أوليڤيا: «لست بهذا الذكاء».

- فعلًا؟ أظنك أذكى مما تظهرين للناس. كنت تدرسين الأدب الإنجليزي في إكستر؟ هذا مساق رائع، صحيح؟

تهز كتفيها.

أقول: «أرادت أليس أن تعمل في السياسة. كانت تعرف أنه ينبغي لها أن تبني سجلًا لا غبار عليه كي تحصل على الدرجات التي تؤهلها لمجالٍ كهذا. حصلتْ عليها طبعًا. وقُبلت في أرقى جامعات بريطانيا. ثم وفي عامها الأول، وبعدما أدركتْ أن بوسعها أن تحرز علامة الامتياز على كل مقالٍ تُسلّمه، استرخت قليلًا وقررتْ دخول علاقةٍ عاطفية لأول مرة. كلنا ظننا الأمر غريبًا، أنا وأمي وأبي، لأنها فجأةً غدت مهووسةً بصاحبها».

حكت لي أليس عن ذاك الشاب الجديد عند عودتها للمنزل في إجازة الكريسماس. التقته في نادي «الريلينج سوسايتي»، وهو نادٍ فخم انضمتْ إليه لأنهم يقيمون حفل رقصٍ فاخرًا في نهاية الفصل الدراسي. دخلت علاقتها تلك بنفس الروح المتقدة حماسًا التي تدرس بها. كانت تقول لي: «إنه مفتول العضلات يا هان، والكل يحبه. لا أصدق أنه نظر إليَّ أنا!». ثم أخبرتني بعدما أجبرتني على أن أقسم بكتم السر أنهما ناما معًا. كان أول فتى تنام معه. أخبرتني عن شعورها الكثيف بقربها منه، بأنها لم تكن تعرف أن المشاعر ستغمرها هكذا. لكن أتذكّرها كذلك تحلل الأمر، قالت إنه أثر الهرمونات وكل المثالية الاجتماعية الثقافية التي تحيط بالحب اليافع. شقيقتي الجميلة الحكيمة تحاول إيجاد منفذٍ منطقيٍّ لمشاعرها... أليس كما هي دومًا!

أخبر أوليڤيا: «لكن بدأت تنتقده بعدها».

رفعت أوليڤيا حاجبيها: «ملّت منه؟». تبدو مندمجةً معي الآن.

- أظن ذلك. بحلول عطلة عيد الفصح، قلّ حديثها عنه تمامًا. حين سألتُها ما الخطب أخبرتني بأنه لم يكن الشخص الذي ظنته. وأنها كانت ستضيع من وقتها كثيرًا إن انشغلتْ به، وهي بحاجةٍ للتركيز على دراستها. حصلتْ على تقدير جيد في مقالٍ سلّمته، وكان هذا الجيد هو منبّه صحوتها.

قاطعتني أوليڤيا وهي تقلّب عينيها: «أف. يبدو أنها مهووسة بالدراسة (ثم تداركت نفسها) آسفة».

أبتسم: «قلتُ لها الأمر ذاته. لكن هذه طبيعة أليس. على أي حال، أرادتْ أن تُنهي الأمر بلباقةٍ قدر الإمكان وأخبرته بقرارها وجهًا لوجه».

- كيف تقبّل الأمر؟

أجيب: «لم يسِر على ما يرام. كان رد فعله شنيعًا، وأخبرها أنه لن يدعها تهينه بهذا الشكل. وأنها ستدفع ثمن فعلتها». أتذكّر هذا بالتفصيل لأنني تساءلتُ كثيرًا عما قد يفعله. كيف تجعل شخصًا يدفع «ثمنًا» لإنهاء أي علاقة؟

أخبر أوليڤيا: «لم تخبرني بما فعل... لإجبارها على أن ترجع إليه. لم تخبر أمي ولا أبي. كانت تشعر بالذل والهوان».

- لكنك عرفت؟

أجيب: «أجل. لاحقًا. عرفتُ لاحقًا. كان قد صوّرها».

نُشر مقطعٌ مصورٌ على موقع الجامعة. كان مقطعًا سمحتْ له بتصويره عقب حفل الريلينج سوسايتي الراقي. أزالت الجامعة المقطع من الموقع فور أن علموا بوجوده. لكن كان قد فات الأوان وانتشر الخبر ووقع الضرر. حُفظت نسخ أخرى منه على حواسيب الطلاب في الحرم الجامعي. ونُشر على فيسبوك. حُذف، ونُشر ثانيةً.

تسأل أوليڤيا: «إذًا، مثل... بورن انتقامي؟».

أومئ: «هذا ما نسميه الآن. لكن آنذاك... كان وقتًا أكثر براءة. الآن تسمعين كثيرًا أن عليك توخي الحذر، أليس كذلك؟ الكل يعرف الآن أنك إن سمحتِ لأحدهم بأخذ صورك أو مقاطع مصورة لك، فقد ينتهي المطاف بها منشورةً على الإنترنت».

تقول أوليڤيا: «أظن ذلك. لكن ينسى الناس. في غمرة اللحظة. أو كما تعلمين، إن كنتِ تحبين أحدًا ما وطلب منك ذلك، أظن أن كل من في الجامعة شاهده؟».

أجيب: «أجل. لكن أسوأ جزءٍ هو أننا لم نعرف وقتها. لم تخبرنا. كانت خجلى. وأظنها حسبتْ أن أمرًا كهذا سيهز صورتها أمامنا. كانت مثاليةً دومًا، رغم أن هذا بالطبع لم يكن سبب حبنا لها».

حقيقة أنها لم تخبرني أنا على وجه التحديد، هذا هو الجزء الذي يؤلمني أشد ألم.

- أحيانًا نظن أنه أمر مستعصٍ أن نفصح بما نمر به للمقربين منا. من تحبينهم من كل قلبك. هل يذكّرك هذا بشيء؟

تومئ أوليڤيا.

- لذا أريدكِ أن تعرفي أن في وسعك إخباري. تمام؟ لأنه إليك الأهم. من الأفضل أن تفصحي بما لديك للعلن، حتى إن بدا مخزيًا، حتى إن شعرت أن من حولك لن يفهموه. أتمنى لو أن أليس تمكنت من التحدث

معي عما حدث. أعتقد أنني كنتُ سأقدّم لها وجهة نظرٍ مختلفة لم تصل إليها بنفسها.

تلتقي عيناي بعينَي أوليڤيا ثم تشيح بنظرها بعيدًا. تتفوه بشيءٍ يفوق الهمس قليلًا قائلةً: «أجل».

ثم يصلنا صوت إعلانٍ جهورٍ من ناحية الصيوان: «سيداتي وسادتي... (إنه صوت تشارلي مؤديًا واجباته كما ينبغي) تفضلوا بالجلوس رجاءً، حان وقت الإفطار».

لا وقت لدي لأحكي بقية القصة إلى أوليڤيا، وربما هذا الخيار الأصلح. لذا لا أخبرها أن الواقعة كلها غدت وصمة عارٍ في حياة أليس، في شخصها، كأنها وُشمتْ على جسدها. لم يدرك أحد منا الهشاشة التي غدت بها أليس. بدتْ ضليعةً دومًا، رصينةً وواثقة من نفسها، تحقق كل هذه الدرجات العالية، وتلعب في فرقٍ رياضية، وتلتحق بالجامعة، وتقتنص كل فرصةٍ أمامها. لكن أسفل كل هذا، ما كان يذكي نيران النجاح، كانت كتلةٌ متشابكة من القلق لم نلحظه قط إلا بعد فوات الأوان. لم تقدر على التكيف مع مهانة كل ما مرت به. أدركت أنها لن تمتهن أبدًا السياسية عملًا، ولن تقدر أبدًا، كما حلمت دومًا. ليس بسبب أنها لم تكمل البكالوريوس إذ إنها تركت الجامعة، لكن لأن هناك مقطعًا مصورًا لها وهي في علاقة حميمية منشورًا على الإنترنت، كان خالدًا مخلدًا.

لذا لم أخبر أوليڤيا عما حدث في يونيو، بعد عودتها من الجامعة بشهرين، تجرعت أليس مزيجًا من المسكّنات وكل ما وجدته في خزانة الأدوية في الحمام حين غادرت أمي المنزل لتُقلّني من تمرين كرة السلة. كيف حدث، منذ سبعة عشر عامًا، شقيقتي الجميلة العبقرية قتلتْ نفسها.

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

إنه خطئي أنا. ما حدث مع وصيفة العروس كان خطئي. كان عليَّ أن أتوقعه. بل توقّعته، كنتُ أدري أن مصيبةً ما تتخمّر في تلك الفتاة. شعرتُ بها حين ناولتها إفطارها هذا الصباح. كانت متماسكةً خلال المراسم، رغم ما بدا عليها من رغبةٍ في أن تغادر المكان بأسرع ما يمكن. حاولتُ بعد ذلك بالطبع أن أبقي عيني عليها. لكن ضروريات أخرى تكاثرت على عاتقي، كان المدعوون مُلحّين ومسعورين لدرجة أن طاقم الندل -الذين أغلبهم من طلبة المدارس الذين يعملون في عطلتهم الصيفية- كانوا عاجزين عن مجاراتهم.

ثم فجأةً أسمع هياج الضيوف وأجدها في المياه. شعرتُ فور رؤيتها أنني عدت إلى يومٍ مختلف. فيه كنتُ مكتوفة اليدين. رأيتُ الإشارات، لكن تجاهلتها حتى فات الأوان. تلك الصور الملحّة التي أراها في أحلامي: المياه ترتفع، يداي تمتدان كأن بوسعي فعل شيء...

لكن هذه المرة كان الإنقاذ ممكنًا. أفكر في العريس وهو يخرج من المياه، يحملها بين يديه، منقذ اليوم. لكن ربما كان بوسعي أن أمنع حدوثه من الأساس، إن انتبهتُ أكثر في الوقت المناسب. إنني غاضبة من نفسي بسبب تهاوني. تمكنتُ من ألبس وجهي قناعًا هادئًا محترفًا أمام الضيوف طوال الوقت الذي استغرقته إعادتهم جميعًا إلى الصيوان من أجل الإفطار. حتى إن لم أحكم لملمة شتات نفسي كما جرى، فأشك أن أحدًا كان ليلحظ أن بي علةً ما. ففي نهاية الأمر، وظيفتي هي أن أكون خفيةً عن كل عين.

أحتاج فريدي، فريدي دائمًا يحسّن شعوري. أراه بعيدًا عن الضيوف، عند ناحية تجهيز الطعام في مؤخرة الصيوان، يوزع الصحون مع جيشٍ صغيرٍ من المساعدين. آخذه معي خارجًا، بعيدًا عن أعين معاونيه الفضولية في المطبخ.

أقول: «كان ممكنًا أن تغرق تلك الفتاة، هناك»

أعجز عن التنفس حين أفكر في الأمر. أراه كله أمام ناظري، غرقها، روحها تنفق أمام عينيَّ. كأنني نقلت إلى يومٍ مختلفٍ تمامًا، يوم لم تكن النهاية سعيدةً. أتابعُ: «يا إلهي يا فريدي. كانت ستغرق. لم أكن منتبهةً لها». إنه الماضي، يعاد من جديد. كله خطئي أنا.

- إيفا (يحكم قبضته على كتفيَّ) إنها لم تغرق. كل شيءٍ بخير.

أقول: «لا. لقد أنقذها. لكن ماذا لو...».

- لا تقولي ماذا لو. يجلس المدعوون في الصيوان الآن. كل شيءٍ يسير بسلاسةٍ، ثقي بي. عودي إلى هناك وافعلي ما تبرعين فيه (فريدي بارع دومًا في أن يهدئ من روعي) كان خللًا تافهًا. كل شيءٍ يسير على نحوٍ جميل.

أقول: «لكنه مختلف بالمرة عما تصورت. إنه أمر شاق للغاية، وجود كل هؤلاء هنا، يتسكعون في المكان. وهؤلاء الرجال، بألعابهم الشنيعة البارحة. والآن يحدث هذا، إنه يعيد كل شيء إلى عقلي...».

يقول فريدي بنبرةٍ حازمة: «الزفاف على وشك الانتهاء. جُلّ ما عليك فعله هو انتظار مرور السويعات القادمة».

أومئ. إنه محق. وأعلم أن عليَّ أن أتماسك. لا يمكنني الانهيار، ليس اليوم.

الآن

ليلة الزفاف

الآن يرون الرجل بوضوحٍ، فريدي، يسير نحوهم بأسرع ما يمكنه. يحمل مصباحًا في يده، لا شيء يبعث على الشؤم أكثر من هذا. تضيء أنوار مشاعلهم لمعان عرقه المتفصد على جبينه وهو يقترب منهم. يصرخ بين لهاثه قائلًا: «عليكم العودة إلى الصيوان. اتصلنا بالشرطة».

- ماذا؟ لماذا؟

- عادت النادلة لوعيها. تقول إنها تظن أنها رأت شخصًا آخر هنا، في الظلام.

صرخ آنجس في بقيتهم حين غادر فريدي: «علينا أن ننصت له. علينا انتظار الشرطة. لسنا في أمانٍ هنا».

يصرخ فيمي: «لا. قطعنا مسافة طويلة».

يسأل دنكن: «هل حقًا تظنهم سيصلون إلى هنا بسرعة؟ الشرطة؟ في هذا الجو؟ محال يا صاحبي، محال. إننا وحدنا هنا في العراء».

- هذا سبب إضافيٌّ! لسنا في أمانٍ...

صرخ فيمي: «ألسنا نستبق الأحداث؟».

- ماذا تقصد؟

- لقد قال إن الفتاة «تظن» أنها رأت أحدًا ما.

قال آنجس: «إن صح قولها، فيعني أن...».

- ماذا؟

- حسنًا، إن كان هنالك شخص آخر في الصورة، يعني أنه ربما... ربما لم تكن حادثة.

لا يتعمق في قوله وينطقها فعلًا لكنهم يسمعونها، كلهم معًا، خلف كلماته: «جريمة قتل».

يحكمون قبضتهم على مشاعلهم. يصرخ دنكن: «قد تكون هذه أسلحةً تفي بالغرض، إن وصل الأمر لذاك الحد».

يصرخ فيمي بينما ينصب كتفيه: «أجل. سنقف في وجهه. إننا أربعة ضد واحد».

يسأل آنجس بغتةً: «لحظة، هل رأى أحدكم پيت؟».

- ماذا؟ اللعنة... لا!

- ربما عاد مع ذاك الرجل، فريدي.

يجيب آنجس: «لا يا فيمي، لم يعد. وكانت حالته صعبة. اللعنة...».

علا صوت ندائهم: «پيت!».

«پيت، پيت، أأنت هناك؟». ما من إجابة.

يصرخ دنكن: «يا إلهي... لن أتجول في الأرجاء بحثًا عنه أيضًا (في صوته ارتجاف واهن لكنه فاضح) إنها ليست المرة الأولى التي يتردّى إلى هذه الحالة، أليس كذلك؟ في وسعه الاعتناء بنفسه. سيكون بخير». شكّ بقيتهم في أنه بذل جهدًا مضنيًا ليبدو واثقًا من كلامه أكثر مما يشعر به في الواقع. لكنهم لم يسائلوه؛ يود جميعهم تصديق قوله بالمثل.

ظهيرة اليوم

چولز

العروس

كأن إيفا استحضرتْ تعويذةً سحريةً داخل الصيوان، الدفء يغمر المكان، إنها استراحة من الرياح الباردة المضطربة خارجًا. أرى عبر المدخل ارتعاش المشاعل وتمايلها، بين حينٍ وحين ينتفخ سقف الصيوان وينكمش بلطفٍ، منبعجًا مع هبّات الرياح. لكنه يُثري إحساس الراحة داخل المكان. عطّر الصيوان بأكمله بالشموع، تظهر الوجوه القريبة من نورها ورديةً، تضج بالصحة والشباب، حتى إن كان السبب الفعليُّ هو أمسية طويلة مترعة بالشراب في الرياح الأيرلندية العاتية. إنه كل ما هفتْ روحي إليه. أنظر إلى الضيوف من حولي وأراها في وجوههم، الدهشة أمام كل ما يحيط بهم. لكن، على ذلك... لمَ أشعر بالخواء؟

يبدو أن الكل نسي بسرعة الدراما التي سبّبتها أوليڤيا، كأنها حدثت في يومٍ مختلفٍ تمامًا. الكل يتجرع النبيذ، يزدردون كأسًا تلو الأخرى... ويزدادون صخبًا وحيويةً. عادت الأجواء إلى طبيعتها، والآن كل شيءٍ يسير كما خُطط له. لكن لن أنسى. حين أتذكّر وجه أوليڤيا، النظرة المتوسلة في عينيها حين حاولت أن تتكلم، انتصبت كل الشعيرات على مؤخرة عنقي في تركيزٍ واهتمام.

رُفعت الأطباق خاليةً، تلمع حرفيًا. فتح الكحول شهية الضيوف، فريدي موهبة فريدة من نوعها. حضرتُ حفلات زفاف كثيرة من قبل، أجبرت نفسي

فيها على بلع صدر دجاجةٍ يشبه المطاط وخضراوات كتلك التي تُقدَّم في مقصف المدرسة. لكن ما أكلناه كان أنعم ضلوع الضأن، مع بطاطس مهروسةٍ مبهّرة بالروزماري. كان طعامًا مثاليًّا.

حان وقت إلقاء الخطابات. ينتشر النُدُل في المكان، يحملون صواني ملأى بكؤوسٍ من شمبانيا بولينجر، تأهبًا لرفع الأنخاب. أشعر بحموضةٍ في معدتي وفكرة احتساء مزيدٍ من الشمبانيا تُجيِّش نفسي. شربتُ الكثير بالفعل في محاولةٍ لمجاراة الأنس الذي يحيط بضيوفي، ينتابني شعور بالغرابة، بالانطلاق والتحرر. لا تبرح عقلي صورة تلك السحابة الدهماء التي لاحت في الأفق صباحًا.

ثم أتى صوت قرع الكأس بملعقة: دينج دينج دينج!

ينحسر هدير الثرثرة في الصيوان، ويُستبدل به صمتٌ مذعن. أشعر بانتباه المكان يتغير، تدور الوجوه ناحيتنا وتثبت عند الطاولة في صدر المكان. العرض على وشك أن يبدأ. أبدِّل بتعبير وجهي تعبيرًا يليق بالترقب المرح.

ثم يرتعش النور في الصيوان، وينقطع. نغطس في ظلمةٍ تشبه نور الشفق الذاوي خارج الخيمة.

يأتي صوت إيفا من أقصى الصيوان قائلةً: «معذرةً. إنه بسبب الرياح. الكهرباء حسّاسة هنا».

يطلق شخص ما، أظنه أحد أصدقاء ويل، عواءً طويلًا مثل الذئاب. ثم تنضم بقية الأصوات إلى صوته حتى كأن المكان يعجُّ بقطيع هائلٍ من الذئاب. الكل ثمل الآن، الكل أصبح منطلقًا وجامحًا أكثر من ذي قبل. أود أن أصرخ في وجوههم جميعًا وآمرهم بأن يخرسوا.

أهمس من أسفل ضروسي: «ويل، أيمكنك أن تطلب منهم أن يتوقفوا؟».

يقول بهدوء: «سيشجعهم أكثر (يده قريبة من يدي) أنا واثق أن النور سيعود خلال لحظات».

وحين أظن أنني لستُ قادرةً على تحمُّلهم لثانيةٍ أخرى، وأنني على وشك الصراخ في وجوههم، تعود الأنوار مرتجفةً. هتف المدعوون. وقف أبي أولًا

ليلقي كلمته. ربما كان عليَّ إقصاؤه ليكون آخر من يتكلم عقابًا على تصرفه السابق. لكن هذا سيبدو مريبًا، صحيح؟ وأدركتُ مؤخرًا أن لبّ الزفاف يتمحور حول مظهره نفسه. وما دام سيمر الوقت بسلام والكل مستمتع بوقته ومبتهج... فلربما عليَّ أن أقمع أي دوافع شرّانية حائمة أسفل السجادة. أراهن أن معظم الحضور يظنون أن هذا الزفاف برمته منوط بسخاء والدي. ليس بالضبط.

تساءل الجميع عما دفعني لإقامة الزفاف هنا. نشرتُ إعلانًا على وسائل التواصل الاجتماعي بأن «حدّثني عن براعتك في إقامة حفلات الزفاف». كان جزءًا من مقالٍ صحفيٍّ لصالح المجلة. لبّت إيفا النداء. أذهلني مقدار التخطيط الذي أولته لعرضها، مراعاتها لأتفه التفاصيل وأهمها. بدتْ متعطشةً أكثر من البقية، فحسمت التنافس قبل أن يبدأ حتى. لكن ليس لهذا السبب فاز هذا المكان بأداء المهمة. الحقيقة العارية هي أنني قررتُ إقامة زفافي هنا لأنه كان مكانًا لطيفًا ورخيصًا. لأن والدي، أبي العزيز الواقف هناك باعتزازٍ شديد، أغلق الصنبور ومنع تدفقه فلا يشملني. أو أن سڤيرين هي من أغلقته.

لن يخمّن أحدهم هذه الحقيقة، صحيح؟ ليس حين آتي بكعكةٍ كلّفت ثلاثة آلاف جنيه استرليني، أو حلقات منقوشة من الفضة للمناديل، ولا إنتاج عامٍ كاملٍ من شموع كلون كين. لكن تلك التفاصيل هي ما توقعها المدعوون مني بالضبط. وكان في وسعي تحمُّل كلفتهم -وكلفة إقامة زفافٍ على مزاجي- لأن إيفا كذلك عرضتْ خصمًا مقداره خمسون بالمئة إن أقمتُه هنا. ربما تبدو مثل عجوزٍ شعثاء لكنها داهية. وعلى هذا النحو ظفرت بمرادها. إنها على علمٍ بأنني سأكتب عن الزفاف في المجلة، وتعرف أنه سينول اهتمام الصحافة بسبب ويل. كانت تعرف أنه سيؤتي أُكله في النهاية.

يقول أبي: «إنه لشرف أن أكون هنا، في زفاف صغيرتي الحلوة».

صغيرته الحلوة. فعلًا! أشعر بابتسامتي قاسية.

يرفع أبي كأسه عاليًا. إنه يشرب بيرة جينيس، دائمًا يصر على ألا يشرب الشمبانيا وفاءً لأصوله. أعرف أن عليَّ أن أنظر إليه بودٍ غامر لكنني ما زلتُ أشتعل غضبًا مما قاله حد أنني أُجبر نفسي على النظر إليه من الأساس.

يردف قائلًا: «لكن چوليا لم تكن قط صغيرتي الحلوة».

تتحول لكنته لأخشن ما سمعتُها خلال سنوات. دائمًا يؤكد على مخارج حروفه في الأوقات المشحونة بالمشاعر... أو حين يسرف في الشراب. ثم يتابع: «تميزتْ دومًا برجاحة عقلها. حتى حين كانت في التاسعة من عمرها، عرفتْ دائمًا ما أرادته. حتى إن حاولتُ... (سعل سعلةً ذات معنى) أن أثنيها عن رأيها (علتْ همهمات الضحك من الضيوف) كانت تسعى خلف رغباتها بطموحٍ عنيد (ابتسم بأسفٍ) إن كان لي أن أمتدح نفسي فكنت سأقول إنها تشابهني في هذه الخصلة. لكنني لستُ مثلها. لستُ بمثل صلابتها. إنني أدّعي معرفة ما أريد لكنه في الواقع يكون ما يتسق مع هواي. لكن لدى چولز شخصية صادقة، والويل لمن يعيق طريقها. أظن أن أيًّا من موظفيها هنا سيتفق معي».

صدرتْ ضحكات مرتبكة من طاولة طاقم المجلة. أبتسم لهم بجذلٍ صادق؛ لن يقع أيٌّ منكم في المتاعب. ليس اليوم.

يسترسل أبي: «صحيح أنني لستُ بالقدوة المثلى لأمور الزواج هذه، لذا سأكون صريحًا معكم. أجتمع هذا المساء بزوجتي الأولى وزوجتي الخامسة، لذا فلكم أن تقولوا إنني عضو فعال في هذا النادي... رغم أنني لستُ ماهرًا للغاية (ليست دعابة طريفة لكنه أحرز عددًا من ضحكات أداء الواجب من المستمعين) كانت چولز -إحم- لمّاحة في توضيح هذا لي بصورةٍ جليةٍ صباح اليوم حين حاولتُ أن أمنحها نصيحةً أبوية».

نصيحة أبوية! هه.

- لكني تعلّمتُ شيئًا أو اثنين خلال تلك السنوات، عن كيف نحسّن من فهمنا للحياة الزوجية. محورها هو أن تجد شخصًا تعرفه حق المعرفة. لا أقصد معرفة أي قهوةٍ يشرب أو فيلمه المفضل أو اسم أول قطةٍ اقتناها. بل أقصد المعرفة على صعيدٍ أعمق. معرفة روحه (يبتسم لسڤيرين التي لم تقصر في تأنقها بلا ريب) لم أشعر مطلقًا بأنني كفء لقول هذه النصيحة. أعرف أنني لم أكن موجودًا معك على الدوام... انسوا ذلك. بل إنني شبه لم أكن موجودًا بالمرة. كلانا لم يكن، أظن أن آرامينتا ستتفق معي في هذا.

عجبًا. أنظر إلى أمي. على فمها ابتسامة متشنجة أظنها متصلبة بقدر ابتسامتي. لن تستمتع بفقرة الزوجة الأولى لأنها ستُشعرها بأنها عجوز، وستنزعج من التلميح إلى الإهمال الأبوي هذا، نظرًا إلى مدى استمتاعها بلعب دور أم العروس الحنون طوال اليوم.

- لذا، وفي ظل غيابنا، كان لزامًا على چولز أن تشق طريقها بنفسها. ويا لها من طريقٍ! أعلم أنني لم أكن بارعًا دومًا في إظهار فخري، لكنني فخور بك بشدةٍ يا چوچو، فخور بكل ما حققته.

أفكر في مراسم توزيع الجوائز. في حفل تخرجي. في إطلاق مجلة «ذا داونلود»، لم يحضر أبي أيًّا منها. أفكر في لهفتي الطويلة لسماع تلك الكلمات، والآن، ها هي ذي... أسمعها وأنا أشتعل غضبًا منه. تتجمع الدموع في عينيَّ. اللعنة. أصابني هذا في مقتل. إنني لا أبكي أبدًا.

يلتفت أبي إليَّ: «إنني أحبك بشدة... أنت ابنتي الذكية العنيدة». يا إلهي. إنها ليست دموعًا جميلة، وليست لألأةً رقيقةً في العين. بل تنهمر انهمارًا على خديَّ حد أنني أضع راحة يدي عليها ثم منديلي في محاولةٍ لإيقاف تدفقها. ما الذي يحدث لي؟!

يردف أبي محدِّثًا الضيوف: «وإليكم أهم شيء. رغم أن چولز امرأة رائعة ومستقلة، فإنني أحب إطراء نفسي بأنها ابنتي الصغيرة. لأن للآباء مشاعر لا يسعنا الهرب منها... مهما كنتُ أبًا مزريًا، أو مهما قلّ وجودك بصحبة أطفالك. أحد تلك المشاعر هو غريزة حمايتهم». يلتفتُ لي ثانيةً. عليَّ أن أرفع بصري له الآن. يكتسي وجهه بحنوٍ صادق. ويؤلمني صدري.

ثم يلتفت إلى ويل: «ويليام، تبدو... رجلًا عظيمًا».

أهو من نسج عقلي أم أن هناك فعلًا تأكيد خطر في قوله «تبدو»؟ «لكن...»، يبتسم أبي، أعرف هذه الابتسامة، إنها ليست ابتسامةً بالمرة. بل أنياب كاشرة. يتابع: «حري بك الاعتناء بابنتي. يستحسن بك ألا تفسد هذا. وإن فعلتَ أي شيءٍ يؤذيها... حسن، الأمر بسيط (يرفع كأسه في نخبٍ صامت) سأعثر عليك».

حلّ صمت متوتر. ضحكتُ ضحكةً مجبرةً صدرت كأنها شهقة. لكن تلتها حركة خفيفة، يحذو بقية الضيوف حذوي في راحةٍ ربما بعدما انزاحت حيرة فهم ما قال، آها، إنها نكتة. عدا أنها لم تكن نكتة. أعرف هذا، وأبي يعرف هذا -ويتراءى لي من النظرة التي تعلو وجه ويل- أنه أيضًا يعرف هذا.

أوليڤيا

وصيفة العروس

يجلس والد چولز مكانه. إنها في حالةٍ فوضوية، وجهها منتفخ وأحمر. إنها تشعر مثلنا، أختي نصف الشقيقة، حتى إن خدعت الجميع بمهارةٍ بأن توحي لهم أنها متحجرة القلب طوال الوقت. أشعر بالاستياء حيال ما جرى سابقًا، صدقًا. أدري أن چولز لن تصدقني إن أخبرتها بهذا، لكنني آسفة، من قلبي آسفة. ما زلتُ أشعر بالبرد، تلك القشعريرة بسبب أن البحر تسلل بعمقٍ أسفل جلدي. بدّلت ملابسي وارتديت الثوب الذي ارتديته البارحة، لأنني ظننته الاختيار الذي سيُغضب چولز أقل شيء، لكنني أتمنى لو كنتُ ارتديت ملابسي العادية. أحيط جسدي بذراعيَّ وأحاول أن أشعر بالدفء لكن هذا لا يوقف أسناني عن الاصطكاك ببعضها بعضًا.

ينهض ويل في تحيةٍ للهتاف والصفير، وقليل من الصرخات المستهجنة. ثم يخيم الصمت على المكان. ينصب جُلّ انتباههم عليه، لديه تلك المقدرة على التأثير بالناس. أظن أنها بسبب شكله وطبيعته، ثقته بذاته. سيطرته الدائمة على كل شيء.

يقول: «نيابةً عني وعن زوجتي».

ثم يغوص صوته في الصياح والهتاف وقرع الطاولات وضربات الأقدام، يوزع ابتسامته في الأرجاء حتى يهدأ الكل. ثم يقول: «نيابةً عني وعن زوجتي، شكرًا جزيلًا على حضوركم جميعًا اليوم. أعرف أن چولز ستؤيدني حين أقول إنه أمر مذهل أن نحتفل بزواجنا بصحبة الأشخاص الأحب إلى قلوبنا، أعزائنا وأقربائنا (يلتفت إلى چولز) أشعر بأنني أكثر رجلٍ محظوظٍ في العالم».

تجفف چولز دموعها الآن. وحين ترفع نظرها إلى ويل، يختلف تعبير وجهها تمامًا، يتحول. تبدو فرحةً فجأةً لدرجة يصعب معها النظر في وجهها، كأنني أحدق إلى مصباحٍ متوهج.

أسمع امرأةً تهمس على الطاولة المجاورة: «يا إلهي! إنهما في غاية الكمال».

تتسع ابتسامة ويل، ويقول: «كان يوم لقائنا الأول حظًا لا مثيل له. ماذا لو لم أكن في المكان الصحيح في الوقت الصحيح. كما تحب چولز أن تقول دومًا: كانت لحظة غيّرتْ أقدارنا (يرفع كأسه ويردف) لذا... لأجل الحظ. ونخبًا لخلق مصائرنا بأيدينا... أو لأن نمد له يد المساعدة وقتما يحتاج».

يغمز، يضج المدعوون بالضحك.

يكمل: «أولًا وقبل كل شيء، من المعتاد امتداح جمال وصيفات العروس، أليس كذلك؟ لدينا وصيفة واحدة اليوم، لكن أظننا نتفق جميعًا على أن جمالها يُغني عن سبع منهن. لذا، نخب أوليڤيا! شقيقتي الجديدة».

يلتفت كل من في المكان ناحيتي ويرفعون كؤوسهم. لا يمكنني تحمُّل هذا. أنظر إلى الأرض حتى يخبو الهتاف ويسترسل ويل في حديثه.

- حبيبتي چولز الفاتنة الحكيمة... (ضجّ المدعوون ثانيةً) دونك، كانت الحياة لتكون ثقيلةً وباهتةً. دونك، تغيب المتعة، يغيب الحب. أنتِ الجزء الذي يكمّلني. لذا قفوا رجاءً ولنرفع نخبًا إلى چولز.

ينهض المدعوون جميعًا من حولي، مبتسمين وتتكرر أصواتهم مثل الصدى: «إلى چولز!». الكل يبتسم لويل، النساء منهن خاصةً، أعينهن لا تُرفع عن وجهه. أفهم ما يرونه. ويل سلاتر، نجم السينما. الآن زوج أختي نصف الشقيقة. البطل المغوار الذي أنقذني صباح اليوم من المياه. رجل كامل متكامل.

يسأل ويل حين يجلس الجميع: «أتعرفون كيف التقينا أنا وچولز؟ كان القدر. أقامت حفلًا في متحف ڤيكتوريا وألبرت لصالح مجلتها «ذا داونلود». لم أكن مدعوًا حتى، أتيتُ برفقة صديق. ثم اضطر صديقي إلى مغادرة الحفل وبقيتُ وحدي. كنت متحيرًا ما بين الرغبة في الرحيل والبقاء. لذا كان قرار

العودة إلى الحفل قرارًا وليد اللحظة. من يعلم ما كان سيحدث إن لم أعُد؟ هل كنا سنلتقي ذات يومٍ؟ لذا... ورغم أن چولز تقتل نفسها في العمل لدرجة أنني أشعر أنه طرف ثالث في علاقتنا، أود أن أشكره لأنه جمعنا معًا. نخب ذا داونلودا!».

نهض المدعوون ثانيةً، ثم كرروا كالببغاوات: «نخب ذا داونلودا!».

لم ألتقِ خطيب چولز إلا بعد خطبتهما رسميًا. كانت متكتمةً للغاية عنه. كأنها لم ترغب في أن تحضره إلى المنزل قبل أن يلف الخاتم إصبعها، تحسبًا من أن نفرط في انتقاده. لربما أبدو لئيمةً لقولي هذا، لكن چولز كانت دائمًا قاسية حيال أمورٍ كثيرة. لا ألومها بتاتًا، ليس بالضبط. أمي أحيانًا تكون عبئًا لا يحتمل.

نظّمت چولز، كعادتها دائمًا، اللقاء كله دون إغفال أي تفصيل. كانت الخطة أن يأتيا إلى منزل أمي أولًا لشرب القهوة، ويمكثا نصف ساعة ثم نذهب جميعًا إلى مقهى ريڤر لتناول الغداء (أخبرتنا أنها حجزتْ في مكانهما المفضل). كانت تعليماتها لأمي ولي واضحة للغاية: «لا تفسدا هذا النهار عليَّ».

صراحةً لم أقصد إفساد لقائي الأول بخطيب چولز. لكن حين وصلا ودخلا عبر الباب، كان عليَّ أن أركض إلى الحمام لأتقيأ. ثم كنتُ عاجزةً عن الحركة. تهاويتُ جوار المرحاض وجلست على الأرض لوقتٍ شعرته طال للغاية. شعرت أن أنفاسي قطعت، كأن أحدًا لكمني في معدتي.

رأيتُ كيف سار الأمر بالضبط. عاد إلى المتحف بعدما وضعني في سيارة الأجرة. هناك التقى شقيقتي، حسناء الحفل، كانت تناسبه أكثر مني بكثير. القدر. وأتذكّر ما أخبرني به في لقائنا الأول: «إن كنتُ أكبر سنًا بقليل لكنتِ المرأة المثلى لي». فهمت كل شيء.

بعد برهةٍ من الزمن -وبسبب جدول أعمالها المزدحم طبعًا- صعدت چولز للطابق العلوي. نادت عليَّ: «أوليڤيا. علينا أن نذهب لتناول الغداء الآن. سأحب أن تكوني معنا بالطبع، لكن إن كنتِ لا تشعرين أنك بخيرٍ فلا مشكلة، أظن». كان بوسعي أن أسمع أنها مشكلة، مشكلة كبيرة، لكن تلك كانت أتفه مخاوفي وقتها.

تمكنتُ بمعجزةٍ أن أُخرج صوتي، وقلتُ من خلف الباب: «لا أ... لا أستطيع أن آتي. إنني... متعبة».

بدا هذا أسهل الخيارات وقتها، أن أتفق معها فيما قالته. ولم أكذب، لم أكن بخير، كانت معدتي مضطربةً كما لو أنني تجرّعتُ سمًّا.

قلّبتُ ما حدث في رأسي كثيرًا وقتها. ماذا لو كنتُ قد استجمعت قواي وفتحت الباب وأخبرتها الحقيقة، في لحظتها وفي وجهها؟ بدلًا من الانتظار والاختباء حتى فوات الأوان؟

سمعتها تقول: «طيب. لا عليك. إنني حزينة أنك لن تأتي (لم تبدُ حزينةً بالمرة) لن أهوّل الموضوع الآن يا أوليڤيا. ربما أنتِ متعبة فعلًا. سأحسن الظن. لكنني حقًا أحتاج دعمك في هذا. أخبرتني أمي أنك مررت بوقتٍ عصيبٍ مؤخرًا، وأنا مستاءة لهذا بالطبع. لكن لمرةٍ واحدةٍ فحسب، أريدك أن تحاولي أن تفرحي من أجلي».

تداعيتُ وأنا مستندة على باب الحمام، أحاول أن أتنفس.

محاه بسرعة رهيبة، رد فعله. حين دخل من الباب، تلك كانت أول مرةٍ «نلتقي»، ربما مرت عليه ثانية واحدة من الصدمة. ربما صعق لجزءٍ من الثانية فحسب. ثانية واحدة أنا وحدي من لمحها. رجفة الجفن، انقباض طفيف في الفك. لا شيء أكثر من ذلك. محاه ببراعةٍ شديدة، كان خفيفًا سلسًا.

لذا كما ترى، أعجز عن التفكير فيه بشخصه ويل. سيظل دائمًا في عقلي ستيڤن. لم أفكر في هذا حين سجلتُ باسمٍ مغايرٍ في تطبيق المواعدة. لم يخطر ببالي أنه قد يكذب بالمثل.

قررتُ في حفل خطبتهما أنني لن أركض وأختبئ مثلما فعلت. قضيت شهرين أقلّب في رأسي شتى ردود الفعل التي كانت لتكون أفضل بكثير من الهرب والتقيؤ، أقل إثارة للشفقة. لم أرتكب أي خطأ. كنتُ سأواجهه هذه المرة. هو من يقع على عاتقه تبرير كل شيءٍ لي ولچولز. هو من عليه أن يشعر بالغثيان. أفلت من يدي في المرة الأولى. أما هذه المرة، فكنت سأريه.

في البدء حيّرني؛ قابلني بابتسامةٍ عريضةٍ عند وصولي وقال: «أوليڤيا! آمل أنك قد تحسّنتِ. خسارة أننا لم نلتق بشكلٍ لائقٍ المرة الماضية».

صُدمت حد أنني عجزت عن قول أي شيء. كان يمثّل أننا لم نلتق من قبل قط، أمام وجهي. شككني هذا في نفسي. أكان هو فعلًا؟ لكنني كنتُ أعرف حق المعرفة بأنه كان هو. لا مجال للشك هنا. دققت النظر فيه ورأيت التجعيدات نفسها أسفل عينيه، والشامات نفسها على رقبته أسفل فكه. وتذكّرتُ، بوضوحٍ لا غبار عليه، التعبير الذي كسا وجهه لجزءٍ من الثانية حين رآني أول مرة.

كان يعرف ما يفعله بالضبط، أنه يصعّب عليَّ تكوين روايتي الخاصة من الحقيقة. وكان مطمئنًا إلى كوني مثيرةً للشفقة لدرجة أنني لن أخبر چولز بأي شيء، كان يعرف أنني خائفة أنها قد لا تصدق أيًّا مما أقول.

وكان محقًا.



هانا

المُرافِقة

أشعر بشيءٍ غريبٍ في خطاب ويل. شيء فيه بدا مألوفًا بغرابة، مثل إحساسٍ بالديجاڤو. لا أقدر على تحديده بالضبط، لكن بينما كان كل من حولي يهتف ويصفق، شعرتُ باضطرابٍ في معدتي.

أسمع أحدًا على الطاولة يهمس قائلًا: «لننطلق، هل الجميع جاهزون للحدث الأهم؟».

لا يجلس تشارلي على طاولتي. إنه يجلس على طاولة العروسين في صدر الصيوان، يجاور مرفق چولز الأيسر مباشرةً. أظنه أمرًا منطقيًّا، لستُ من ثلة العروس، لكن تشارلي منها. لكن كل الجالسين من حولي هن زوجات برفقة أزواجهن. لم أرَ تشارلي منذ الصباح، سوى عند البار في الخارج، فشعرتُ بانفصالٍ أعمق عنه إن كنا لم نرَ بعضنا بعضًا بالمرة. أشعر كأن فجوةً غائرةً فُتحت بيننا، في غضون أربع وعشرين ساعة لا أكثر.

تراهن المدعوون الجالسون قربي على طول كلمة الإشبين. خمسون جنيهًا لكل رهان، لذا رفضت. كذلك سمّوا طاولتنا بـ«طاولة الداعرين»، يلفها شعور مخبول ومنفعل. كأنهم أطفال ظلوا محبوسين لوقتٍ طويل. خلال الساعة الماضية، شرب كل واحدٍ منهم قرابة زجاجة ونصف لوحده. كان پيتر رامسي، الجالس جواري، يتحدث بسرعة بالغة لدرجة أنه أشعرني بالدوار. ربما لهذا علاقة ببقايا المسحوق الأبيض العالق بأنفه، أنني أبذل قصارى جهدي كيلا أنحني وأمسحه بطرف منديلي.

ينهض تشارلي، مستأنفًا لعب دور مدير الحفل، يأخذ الميكروفون من ويل. أراقبه بتمعنٍ بالغٍ بحثًا عن أي إشارةٍ تخبرني إن كان قد أفرط في الشراب. هل وجهه متراخٍ بطريقته الفاضحة المعتادة؟ هل اتزانه مختل بعض الشيء؟

يقول: «والآن...»، لكن يقاطعه صراخ هاتف من الناس، تحديدًا من أصدقاء العريس، أراهم يزأرون ويتضاحكون ويغطون آذانهم. يحمر وجه تشارلي. أنكمش حرجًا له. لكنه يحاول من جديد: «والآن... حان وقت الإشبين. رجاءً حيوا جميعًا چوناثان بريجز».

يصرخ ويل ويداه متكورتان على فمه: «كن رحيمًا يا چونو!». يبتسم له ابتسامةً ساخرة في جفولٍ مصطنع، فيضجّ المكان بالضحك.

دائمًا تكون كلمة الإشبين فقرةً يصعب مشاهدتها. تتقل دومًا بترقبٍ هائل. هناك فارق مقداره سُمك شعرةٍ بين أن تكون كلمة بسيطة أو مهينة. الأفضل طبعًا هو الالتزام باللباقة في المجمل عوضًا عن محاولة قول شيءٍ ذي وقْعٍ قويٍّ. يصلني الانطباع بأن چونو ليس من النوع الذي قد يقلق من إهانة أي أحد.

ربما هيّأ لي أنه ترنح قليلًا وهو يتناول الميكروفون من تشارلي. يبدو زوجي بجانبه يقظًا كأنه لم يشرب قطرةً واحدة. ثم، وبينما يشقّ چونو طريقه ليستدير ويقف أمام الطاولة، يتعثر ويوشك أن يسقط على وجهه. أسمع الكثير من الغمز واللمز من رفقائي على الطاولة. وجواري يضع پيتر رامسي أصابعه في فمه ويطلق صفيرًا جعل طبلة أذني ترن.

وحين يصل چونو ويقف أمامنا جميعًا، يتضح وضوحًا لا غبار عليه أنه ثمل. يقف مكانه صامتًا للحظات قبل أن يلوح عليه أن يتذكر أين هو وما عليه أن يفعل. يقرع الميكروفون عدة مراتٍ فيدوي الصوت في الخيمة.

يصرخ أحدهم: «هيا يا چونرز! سنشيخ ونحن في انتظارك (يقرع المدعوون الطاولات بقبضات أيديهم ويضربون الأرض بأقدامهم) تكلم، تكلم، تكلم! تكلم، تكلم، تكلم!». تنتصب الشعيرات على ذراعي، إنها تذكير بليلة البارحة، الإيقاع العشائري، الشعور بالخطر المتربص.

يؤدي چونو بيده إشارة: «اهدؤوا، اهدؤوا». يبتسم لنا، يلتفت وينظر ناحية ويل. ثم يسلك حلقه ويأخذ نفسًا عميقًا.

- مضينا عريق، أنا وهذا الرجل. تحياتي لكل أبناء تريڤليان القدامى!

يعلو الهتاف، من ناحية أصدقاء العريس بالأخص.

يسترسل چونو بينما يتلاشى الصوت شيئًا فشيئًا، ويلوّح بيده نحو ويل: «انظروا إلى هذا الشاب. لا شيء أسهل من كرهه، أليس كذلك؟ (تمر فترة من الصمت، ربما أطول مما ينبغي، قبل أن يردف قائلًا) إنه يحظى بكل شيء: الوسامة والسحر والمهنة والمال... (ألهذا مغزى؟) وكذلك... (يشير إلى چولز) وفتاة الأحلام. لذا، حين أفكر في الأمر... أظن أنني أكرهه فعلًا. هل من أحد آخر؟».

يموج المكان بالضحك، ويصرخ أحدهم: «أكمل، أكمل!».

يبتسم چونو. عيناه تتألقان بلمعانٍ وحشيٍّ ومنذرٍ بالخطر: «لمن لا يعرفون منكم، كنتُ أنا وويل في المدرسة معًا. لكنها لم تكن مدرسة عادية. كانت أشبه بـ... أوه، لا أدري... معسكر اعتقالٍ يشبه قصة أمير الذباب... شكرًا لأنك ذكّرتنا بهذا البارحة يا تشارلي! لم يكن أهم ما فيها هو حصاد أعلى الدرجات الممكنة. بل النجاة».

أتساءل إن كنتُ قد سمعت تأكيدًا على الكلمة الأخيرة، نطقها كأنها اسم علمٍ صحيحٍ قائم بذاته. أتذكّر اللعبة التي أخبروني عنها على العشاء البارحة. كان اسمها «النجاة»، صحيح؟

يسترسل چونو: «ودعوني أخبركم. نلنا نصيبنا من المتاعب هناك على مر السنوات. إنني أتحدث عن أيام تريڤليان على الأخص. لكن مررنا بأوقاتٍ صعبة. أوقات مجنونة. كان يبدو الأمر أحيانًا بأننا في تحدٍ مع العالم أجمع (ينظر إلى ويل) أليس كذلك؟».

يومئ ويل مبتسمًا.

هناك شيء غريب يشوب نبرة چونو. كأن بها حدة خطرة، إحساسًا بأنه قد يفعل أو يقول أي شيءٍ ويخرج عن سيطرته كليًّا. أنظر إلى الطاولات الأخرى

من حولي، أتساءل إن كان الآخرون يشعرون به مثلي. هدأ المكان قليلًا كأن الكل من حولي يحبس أنفاسه.

يقول چونو: «وهذه هي مهمة الصديق الحقيقي، صحيح؟ أن يحميك ويقف في ظهرك دومًا».

أشعر كأنني أتفرج على كأسٍ زجاجية تترنح على حافة الطاولة، وعاجزة عن فعل أي شيءٍ حيالها، فقط أجلس في انتظار تشظيها. أرمق چولز بنظرةٍ سريعةٍ وأجفل، فمها ثابت على خطٍ رفيع متجهم. كأنها لا تنتظر سوى أن ينتهي كل هذا.

يردف چونو مشيرًا إلى نفسه: «وانظروا إلى هذا... إنني لعين سمين يرتدي بدلةً ستنفجر ضيقًا. أوه... (يلتفت إلى ويل) تتذكر لما قلتُ إنني نسيتُ بدلتي؟ آه، لهذه القصة كواليس (يستدير كي يواجهنا، نحن جمهوره) إذًا، إليكم الحقيقة... الحقيقة الصادقة. لم تكن هناك بدلة من الأساس. أو... كان هناك بدلة، ثم لم تكن. في البداية ظننتُ أن ويل ربما سيحضرها لي. لا أعرف كثيرًا عن تلك الأمور، لكني واثق تمامًا أن الأمر سار هكذا مع ثياب الوصيفات، أليس كذلك؟».

ينظر إلينا جميعًا في تساؤل. لا يجيبه أحد. وقع الصيوان برمته في صمتٍ عميق، حتى پيتر رامسي توقف عن هز ساقه.

سألنا جميعًا: «ألا تشتريها العروس؟ هذه هي القاعدة، صحيح؟ لأنها تجبرهن على ارتدائها. ليس وكأنهن اخترنها بأنفسهن. أما ويل العزيز فقد أرادني أن أرتدي بذلةً من بول سميث، لا شيء أقل من هذا سيصلح لزفافه».

دخل في صلب الموضوع الآن. إنه يذرع المكان أمامنا مثل كوميديان يؤدي عرضًا في ملهى رخيص.

- على أي حال... بينما كنا نقف في المحل، رأيتُ سعرها، وقلت في نفسي: اللعنة! إنه سخيٌّ للغاية. ثمانمئة جنيه استرليني! إنها البذلة التي توقع بها الفتيات، صحيح؟ لكن ثمانمئة؟ الأفضل أن تدفع للفتيات مباشرةً. يعني ماذا لدي في حياتي لأفعله ببذلة بهذا الثمن؟ ليس وكأنه لدي مناسبات راقية أحضرها كل أسبوع. على ذلك فكرتُ، إن كان يريدني أن أرتديها، فمن أنا لأجادله؟

أنظر إلى ويل. إنه مبتسم، لكن واضح أنها ابتسامة صفراء مزيفة.

يقول چونو: «لكن، أتت اللحظة المربكة عند الدفع، حين تنحى جانبًا، وتركني أمام الأمر الواقع. قضيتُ الوقت برمته أدعو أن تمر بطاقتي الائتمانية. صراحةً كانت معجزة لعينة أنها نفعت. ووقف هو جواري، مبتسمًا طيلة الوقت. كأنه اشتراها لي فعلًا. كأن عليَّ أن ألتفت إليه وأشكره عليها».

همس پيتر رامسي: «حمى وطيس المعركة».

- لذا، عدتُ في اليوم التالي، وأعدت البذلة. طبعًا لم أكن سأخبر ويل عما فعلت. لذا، وكما ترون، اختلقت القصة كلها قبل أن آتي إلى هنا، أنني سأدّعي نسيانها في المنزل. لن يجعلوني أرجع كل هذه المسافة لكي أحضرها، صحيح؟ وحمدًا لله أنني أعيش في مكانٍ يشبه العراء حيث سيعجز أيٌّ منكم عن أن «يعرض بلطفٍ» أن يذهب ويحضرها من أجلي، كانت ستصبح ورطة، هاهاها!

سألت المرأة الجالسة قبالتي: «أيفترض أن يكون هذا مضحكًا؟».

يقول چونو: «ثمانمئة جنيه استرليني لأجل بذلة! ثمانمئة. لأنه مُحاك على قماشها اسم رجلٍ ما. كان سيكون عليَّ أن أبيع كليتي! كان سيكون عليَّ أن أبيع هذا كله... (تحسس جسده بيده على نحوٍ فج، فصدرت بعض من صرخات الاستهجان الفاترة) في الشوارع. وتعرفون أن الإقبال ضعيف على الحمقى السمينين». وأطلق ضحكةً جامحةً تشبه الزمجرة.

ومن باب اتباع العادة -كأنه منحهم الإذن- ضحكت زمرة قليلة من الجمهور معه. إنها ضحكات الارتياح، تشبه ضحكات من حبس أنفاسه وقتًا طويلًا.

لم ينتهِ چونو: «أقصد... كان بمقدوره أن يشتري لي البذلة، صحيح؟ ليس وكأنه ليس مثقلًا بالأموال، صحيح؟ الشكر لك أساسًا يا حبيبتي چولز. لكنه ابن حرامٍ بخيل. أقول هذا، طبعًا، مع كامل حبي». ثم يرفرف جفنيه إلى ويل في تمثيلٍ غريبٍ ومبالغٍ فيه.

لم يعُد ويل مبتسمًا. ولا أقوى حتى على النظر إلى التعبير الذي يعلو وجه چولز. أشعر كأن عليَّ أن أغض بصري، ليس هذا بمختلفٍ كثيرًا عن الشعور المُلحّ الشنيع الغامض الذي يدفعك للنظر إلى حادث سيارة.

يكمل چونو: «أيًا كان. أعارني بدلته الاحتياطية دون أن يطرح أسئلة. هذه شيم الرجال، صحيح؟ لكن عليَّ أن أحذرك يا صاحبي... (شدّ ذراعيه فضغطت السترة على الزر الذي يغلقها) ربما لن تعود هذه كسابق عهدها أبدًا (يلتفت إلينا من جديد) لكنها مهمة الصديق الحقيقي، صحيح؟ أن يحميك ويقف في ظهرك دومًا. صحيح أنه بخيل، لكني أعرف أنه دائمًا معي».

يضع يده الضخمة على كتف ويل. ويبدو كأن ويل مال تحت ثقلها، كأن چونو يضغط عليه: «وأدري، صدقًا أدري، أنه لن يغدر بي أبدًا (يلتفت إلى ويل، وينزل أقرب إليه، كأنه يبحث عن وجهه) أليس كذلك، يا صاحبي؟».

يرفع ويل يده ويمسح وجهه من رذاذ ريق چونو.

يخيم الصمت، صمت غريب ومتمدد، خلاله اتضح أن چونو ينتظر في الواقع سماع إجابته. وأخيرًا نطق ويل: «لا. لن أفعل. بالطبع لن أفعل».

يقول چونو: «حسنًا هذا رائع. هذا عظيم! لأن هاها... كل تلك الأشياء التي خُضناها معًا. الأشياء التي أعرفها عنك يا رجل. لن تكون خطوةً حكيمة، صحيح؟ كل الماضي الذي قضيناه معًا؟ تتذكره، صحيح؟ كل تلك السنوات التي خلت».

يلتفت إلى ويل ثانيةً. الآن ابيضّ وجه ويل.

أسمع أحدهم على الطاولة يقول: «ما الذي يقصده چونو بهذا الكلام؟ هل تعاطى شيئًا؟».

أسمع إجابة: «فعلًا! هذا جنون».

يكمل چونو: «أتعرف؟ دردشتُ قليلًا مع بقية الصحبة سابقًا. ورأينا جميعًا أنها ستكون إضافة لطيفة لو أحيينا شيئًا من التقاليد. لأجل الأيام الخوالي (يشير بيده في المكان) شباب؟».

نهضوا رهن إشارته. وتجمعوا حول ويل.

يهز ويل كتفيه بمرحٍ ويقول: «أعلن استسلامي!». يضحك الجميع. لكن في وسعي رؤية أن ويل لا يبتسم حتى.

يقول چونو: «إنه العدل. العادات والتقاليد. هيا يا صاحبي، ستكون ممتعةً!».

يقف ويل وسطهم، ثم يمسكونه. إنهم يضحكون ويهتفون، إن لم يفعلوا فكان سيبدو الأمر برمته وكأنهم يُقدِمون على فعلٍ شائن. ينزع چونو ربطة عنقه ويلفها حول عيني ويل لتكون كعصابةٍ لعينيه. ثم يرفعونه على أكتافهم ويسيرون به في موكبٍ. خارج الصيوان، نحو الظلمة المتفاقمة.

چونو

الإشبين

ألقينا ويل في قاع الكهف الهامس. أظنه لن يفرح بأن بذلته الفاخرة تلمس الرمال الرطبة، أو أن رائحة المكان صفعتني مثل لكمةٍ على وجهي من شدتها، إنها مزيج من رائحة الطحالب المتعفنة والكبريت. بدأت الدنيا تظلم أكثر وأكثر حد أنني أضيق عينيَّ كي أرى جيدًا. البحر أهوج مما كان عليه، أسمع صوت أمواجه تتكسر على الصخور. كان ويل يضحك وينكّت معنا طيلة الطريق: «يستحسن بكم ألا تأخذوني إلى مكانٍ فوضويٍّ. إن أصاب البذلة أي شيءٍ فستقتلني چولز...»، أو «ألا يمكن أن أرشي واحدًا منكم بصندوقٍ إضافيٍّ من شمبانيا بولينجر ليعيدني؟».

استمر الشباب في الضحك. إنها متعة مسلية بالنسبة إليهم، شيء من مغامرات الماضي. كانوا يجلسون في الصيوان لعدة ساعاتٍ لا عمل لهم سوى الثمالة والتضجّر، تحديدًا أولئك مثل پيتر رامسي الذي سفّ مساحيق بأنفه. تناولتُ القليل قبيل إلقاء كلمتي في الحمام مع بعضٍ من الرجال، ولم تكن فكرةً سديدة. لم تجعلني سوى أشد اضطرابًا وعصبية. لكنها جعلتْ كل ما حولي واضحًا بشكلٍ عجيب.

أما بقيتهم فكانوا متحمسين لكونهم في العراء. كان الأمر أشبه بحفل العزوبية. كل الرجال معًا، تمامًا مثل الأيام الخوالي. الريح تعصف عصفًا الآن، وتُضفي لمسةً مثيرةً على الحدث. كان علينا أن نثني رؤوسنا قليلًا لنتمكن من السير، كذلك صعّبتْ حمل ويل كل هذه المسافة.

إنه موقع رائع هنا، في الكهف الهامس. قصي عن كل شيء. في وسعنا التخيل لو أنه كان في مدرسة تريڤيليان كهف كهذا، فكنا بالتأكيد سنستعين به في لعبة النجاة.

يستلقي ويل على حصى الشاطئ، ليس قريبًا من المياه. إننا لا نعرف حال المد والجزر هنا. ربطنا رسغيه وكاحليه بربطات العنق، كما كان متّبعًا أيام المدرسة.

أقول: «حسنًا يا شباب! لنتركه هنا بعض الوقت. ولنرى إن كان بوسعه أن يفك قيده بنفسه».

همس دنكن في أذني بينما كنا نغادر الكهف: «لن نتركه هنا فعلًا، أليس كذلك؟ حتى يحل قيوده؟».

أجيبه: «لا! إن لم يظهر خلال نصف ساعةٍ فسنعود إليه».

يصرخ ويل: «حري بك! عندي زفاف أحضره!». ما زال يتصرف كما لو كان كل شيءٍ دعابة كبيرة.

أعود بصحبة البقية إلى الصيوان، وأقول حين نمر جوار القلعة: «سأميل هنا قليلًا. أريد أن أتبول».

أراقبهم بينما يعودون إلى الصيوان، يضحكون ويتدافعون. أتمنى لو كنتُ أشبههم. أتمنى لو كانت بالنسبة إليَّ مجرد ذكريات ماتعة وبريئة من أيام المدرسة. أتمنى لو أنها لا تزال مجرد لعبة.

حين يختفون جميعًا عن مرمى بصري، أعود أدراجي إلى الكهف.

ينادي ويل وأنا أقترب منه: «من هناك؟». يتردد صدى كلماته في الفراغ، فيبدو وكأن أصواتًا خمسة تسأل.

أجيب: «إنه أنا. يا صاحبي».

يسأل ويل بصوتٍ كالهسيس: «چونو؟». ينجح في النهوض على قدميه، ويميل ظهره أسفل جدار الكهف. الآن ينهي تمثيليته بما أن بقية الرجال رحلوا. أرى أنه مستاء بشدة حتى وعيناه معصوبتان، ويصر بقوةٍ على فكه: «فكّ قيدي، أزِل العصابة، الآن! عليَّ أن أكون في الزفاف، چولز ستغضب. فعلتَ دعابتك وانتهينا. لكنها لم تكن ظريفة».

أقول: «صحيح. أعرف أنها لم تكن. أنا لا أضحك كما ترى. كما أن الأمر ليس ماتعًا كثيرًا وأنت في الجانب الآخر، أليس كذلك؟ لكنك لم تعرفه، ليس قبل الآن على الأقل. لم تلعب قط لعبة النجاة، ونحن في تريڤز، صحيح؟ أفلت منها أيضًا بطريقةٍ ما».

أراه يقطب وجهه أسفل عصابة عينيه. ويقول بنبرةٍ ودودة ورقيقة: «تعرف يا چونو. ذاك الخطاب... والآن هذا. أظنك أفرطتَ في تناول الأشياء الرائعة.. جديًا يا صاحبي...».

أقول: «لستُ صاحبك. وأعتقد أنك قادر على تخمين السبب».

لعبتُ دور السكير أكثر مما كنتُ عليه حقًا خلال إلقاء الكلمة. لست ثملًا لهذا الحد. كذلك شحذ الكوكايين تفكيري. أشعر بعقلي غايةً في الصفاء، كأن أحدًا أضاء مصباحًا ساطعًا ضخمًا في رأسي. فجأةً أشعر بأمور كثيرة واضحة، منطقية.

هذه آخر مرةٍ يخدعني فيها أي أحد.

أخبره: «كنت صاحبك حتى الساعة الثانية ظهرًا. لكن ليس الآن، لم نعد كذلك».

يسأل ويل: «ما الذي تتحدث عنه؟». بدأت ثقته بنفسه تتزعزع. صحيح طبعًا. معك حق لتخاف.

كنتُ أراه ينظر إليَّ طيلة كلمتي، متسائلًا عما أفعله. متسائلًا عما سأقوله تاليًا، عما سأحكيه لكل مدعويه عنه. آمل أنه كان مذعورًا. أتمنى لو كنتُ لفظت كل ما يدور في رأسي خلال الخطاب، لو كنت أخبرتهم بكل شيء. لكن خفت. كما خفت طيلة تلك السنوات، حين كان عليَّ أن أذهب إلى المعلمين، وأدعم كلام الفتى الذي وشى بنا، أيًا من كان. أن أخبرهم بما فعلناه بالضبط. لن يقدروا على تجاهل اثنين منا، صحيح؟

لكن عجزتُ عن ذلك وقتها، وعجزتُ عنه وأنا ألقي الخطاب. لأنني جبان لعين.

هذا ثاني أفضل شيء.

أقول: «خضتُ حوارًا مشوِّقًا مع بيرس صباح اليوم. حوار غزير المعلومات».

يزدرد ويل ريقه ويقول بحذرٍ: «اسمع... (نبرته عقلانية، رجلًا لرجل. لكنها تغضبني أكثر) لا أعلم ما قاله لك بيرس، لكن...».

أقول: «لقد غدرتَ بي. لم يكن بيرس بحاجةٍ لأن يقول كل هذا الكلام. اكتشفتُ الأمر بنفسي. نعم، أنا. چونو الأبله، كان عليك أن تبذل جهدًا أكبر... لم تُطِق أن أكون معك هناك، صحيح؟ عبء يفوق الحد. تذكير بما كنته ذات يوم. بما فعلت».

يتجهم ويل ويقول: «چونو، يا صاحبي، أنا...».

أقول: «أنت وأنا. أترى؟ كان مفترضًا أن يكون أنت وأنا، أن نؤازر بعضنا بعضًا، دومًا. كلانا في مواجهة العالم أجمع، هذا ما قلته أنت، خصيصى بعدما فعلناه معًا، بعد كل ما عرفناه عن بعضنا بعضًا. أحميك وتحميني. هكذا ظننتُ الأمر».

- إنه هكذا فعلًا يا چونو. أنت إشبيني...

أقاطعه: «هل لي أن أخبرك شيئًا؟ عن مشروع الويسكي؟».

يقول ويل بسرعةٍ ولهفة: «نعم طبعًا. هيل-ريزر! (تذكّر الاسم هذه المرة) أترى؟ ها أنت ذا. إنك تؤدي عملًا مذهلًا بنفسك. لا داعي إذًا لكل هذه الضغينة...».

أقاطعه ثانيةً: «لا. لأنه لا جود له».

- ما الذي تقوله؟ والزجاجات التي أعطيتها لنا!

- مزيفة (أهز كتفيَّ رغم أنه لا يراني) إنه ويسكي اشتريتُه من السوق، ونقلته في زجاجاتٍ فارغة. وطلبت من صاحبي آلن أن يصمم لي الملصقات.

- چونو، ما...

- فكرت فعليًّا في البداية بأن أشرع فيه. وهذا ما يجعل الحدث مأسويًّا للغاية. لذا جعلتُ آلن يصمم تصميمًا ساخرًا للتصميم الأصلي، لأرى كيف سيكون شكله. لكن أتعرف مدى صعوبة إطلاق نوعٍ جديد من

الويسكي هذه الأيام؟ إلا إن كنت ديڤيد بيكهام. أو إن كان لديك عائلة ثرية تمولك، أو لديك صلات بأناس مهمين. ليس عندي لا هذا ولا ذاك. أبدًا في حياتي كلها. كل الفتيان في تريڤز كانوا يعرفون هذا. وأعرف أن بعضًا منهم كانوا يدعونني بالمشرد من وراء ظهري. لكن ما كان بيننا نحن، ظننته متينًا.

يتحرك ويل على الأرض، محاولًا أن ينهض، لن أساعده: «چونو، صاحبي، يا إلهي...».

- نعم. ولم أغادر عملي في المنتجع لأحضّر الويسكي. لأي درجة هذا مثير للشفقة؟ لا، وانتظِر لتسمع المزيد... طُردت من وظيفتي لأنني انتشيتُ خلال ساعات العمل. مثل مراهق. كنت أدير دورةً لتوطيد روابط فريقٍ ما، وتركتُ رجلًا سمينًا يهبط الجبل بسرعةٍ شديدةٍ فانزلق، وكُسر كاحله. وتعرف لماذا كنت منتشيًا؟

يسأل باحترازٍ: «لمَ؟».

- لأنني كان عليَّ أن أدخن الحشيش، كي أستمر. لأنه الشيء الوحيد الذي ساعدني على النسيان. كأن حياتي كلها توقفتْ عند تلك النقطة منذ كل تلك السنوات. كأنه... كأن لا خير حدث من وقتها. الشيء الوحيد الجيد الذي حدث لي خلال كل السنين بعد تريڤز كانت تلك الفرصة في المسلسل... وأنتَ سلبتها مني (أتوقف وآخذ نفسًا عميقًا، أحضّر نفسي لأقول ما أدركتُه أخيرًا، بعد نحو عشرين عامًا) لكن الوضع لم يكن هكذا لك، صحيح؟ كأن الماضي لم يؤثر فيك البتة. لم يهمك إطلاقًا. تستمر في أخذ ما تحتاجه. ودائمًا تنجو بفعلتك.

هانا

المُرافِقة

عاد أربعتهم بجلبةٍ صاخبةٍ إلى الصيوان، يدخل پيتر رامسي متزحلقًا على ركبتيه على الأرضية الصفيحية، وكان على وشك الارتطام بالطاولة التي تحمل كعكة الزفاف المهيبة. يقفز دنكن على ظهر آنجس، ويلف ذراعيه حول عنقه، يخنقه في طوقٍ ضيقٍ حتى ازرقّ وجهه. يترنح آنجس، نصف ضاحك ونصف لاهثٍ. ثم يقفز فيمي على كليهما، فينهار جميعهم في كومةٍ متشابكةٍ من الأذرع والأقدام. إنهم في حالة ثورةٍ واهتياجٍ حماسيٍّ بسبب أنهم حملوا ويل وألقوا به خارج الصيوان.

يزمجر دنكن وهو يقفز واقفًا على قدميه قائلًا: «إلى البار يا شباب! آن أوان إشعال الجحيم!».

يتبعهم البقية، يضحكون ويثرثرون، هذه علامة إطلاق سراحهم. أظل جالسةً على مقعدي. معظم الضيوف ثائرو الحماس ومهتاجون، بعد الكلمة التي أُلقيت والمشهد الذي تلاها. لكني لا أشعر مثلهم، رغم أن ويل كان مبتسمًا، حامتْ روح خفية حول الأمر: العصابة وتقييد يديه وقدميه بهذه الطريقة. أنظر إلى الطاولة الرئيسية، إنها صحراء خالية من الجميع إلا چولز التي تجلس في سكون، وواضح أنها لاهية في أفكارها.

ثم بغتةً تندلع الفوضى في الخارج. تصلنا أصوات عالية.

«مهلًا... اهدأ!».

«اللعنة، ما مشكلتك يا رجل؟».

«يا إلهي، اهدؤوا...».

ثم، وبلا ذرة شكٍ واحدة، أسمع صوت زوجي. يا إلهي. أنهض أهرع نحو البار. هناك جمع من الناس، الكل يراقب بلهفة، مثل أطفالٍ في ملعب. أشقّ طريقي إلى الأمام بأسرع ما يمكنني.

تشارلي جاثم على الأرض. ثم أعي أن قبضته مرفوعة وأنه رابض فوق رجلٍ آخر: دنكن.

يقول تشارلي: «كرر ما قلته».

للحظةٍ لا أقدر سوى على التحديق إليه، زوجي، معلّم الجغرافيا، والد طفليّ، الرجل الدمث اللطيف. لم أرَ هذا الجانب منه منذ وقتٍ طويل. ثم أدرك أن عليَّ أن أتصرف. أقول مندفعةً إلى الأمام: «تشارلي!».

يلتفت ناحيتي لوهلةٍ ويرمش مرارًا كأنه لا يعرفني. وجهه أحمر وجسده يرتعش من الأدرينالين. رائحة الكحول تفوح من أنفاسه. أتابع: «تشارلي، ما الذي تفعله بحق الجحيم؟».

يبدو وكأنه عاد لوعيه قليلًا إثر هذا السؤال. ثم، وحمدًا لله على هذا، ينهض دون لغطٍ أو اعتراض. يعدّل دنكن قميصه متمتمًا بكلامٍ غير واضح. يتبعني تشارلي ويفسح لنا الجمع الغفير طريقًا كي نمُر، أشعر بأعين كل الضيوف مسلطة علينا، تراقبنا في صمت. والآن بما أن ارتياعي قد هدأ، أشعر بحرجٍ بالغ.

أسأله حين نرجع إلى الخيمة ونجلس على أقرب طاولة: «ما كان هذا؟ تشارلي، ماذا دهاك؟».

يقول: «طفح الكيل (في كلامه لعثمة بلا ريب، ولون لسانه المائل للبياض يؤكد لي سكره) كان يهذي بكلامٍ عن حفل العزوبية، وطفح بي الكيل».

أقول: «تشارلي... ما الذي حدث في الحفل؟».

يتأوه تأوهًا طويلًا ثم يغطي وجهه بيديه.

أقول: «احكِ لي. إلى أي مدى سيبلغ سوؤه؟ حقًا؟».

ترتخي كتفاه. يبدو أنه مذعن الآن ليحكي لي، هكذا بغتةً. يأخذ نفسًا عميقًا. ويمر صمت طويل. ثم أخيرًا يبدأ بالحديث.

- ركبنا عبّارةً لنصل لذلك المكان، كان على بُعد ساعتين من ستوكهولم، أقيم مخيم هناك على إحدى جزر الأرخبيل. كان مكانًا... تعرفين، خطرًا ومثيرًا، نصبنا الخيام وأشعلنا النيران. أحدهم جلب معه شرائح من اللحم شويناها على الجمر. لم أكن أعرف أي أحدٍ منهم وقتها سوى ويل، لكني افترضتُ أنهم أناس أخيار.

ثم وكأن الحديث فجأةً بدأ يتساقط منه من كل اتجاه، والكحول الذي تجرعه حل عقدة لسانه. أخبرني أنهم جميعًا كانوا في مدرسة تريڤيليان، لذا فإن بينهم ذكريات كثيرة مشتركة مملة، جلس تشارلي هناك مبتسمًا يحاول أن يبدو مهتمًا بما يقال. طبعًا لم يرغب في الإفراط في الشراب فسخروا منه بسبب رغبته هذه. ثم قدّم أحدهم -تشارلي يعتقد أنه كان پيت- بعضًا من الفطر.

- تشارلي؟ أكلتَ فطرًا؟ فطرًا سحريًا؟

أكاد أضحك، ليس هذا أبدًا من شيم زوجي العاقل المحتذي بتعليمات السلامة دومًا. إنني الشخص المندفع لتجربة هذه الأشياء، وغرقتُ بها عدة مراتٍ خلال مراهقتي وسط حفلات مانشستر الصاخبة.

يعبس تشارلي ويقول: «نعم. صحيح. كنا كلنا نأكله. حين تكونين وسط مجموعةٍ من رجالٍ مثلهم... فلا يمكنك الرفض، صحيح؟ وأنا لم أذهب إلى مدرستهم الراقية، لذا فقد كنتُ الدخيل بينهم بالفعل».

أردتُ أن أقول له: «لكنك في الرابعة والثلاثين من عمرك!».

ماذا كنت لتقول لابنك بن إن حثّه أصدقاؤه على فعل شيءٍ لم يرغب في فعله؟ ثم تخطر ببالي ليلة البارحة، حين ازدرت الكأس وهم يهتفون في وجهي. رغم أنني لم أرغب في شربه، لكن كنت أعرف أنني لست ملزمة. أتابع: «إذن. أكلتَ الفطر السحري؟»، هذا هو زوجي، نائب المدير، الذي يتبع سياسةً صارمةً لا تتسامح أبدًا مع تعاطي المخدرات في مدرسته. ثم أقول: «يا إلهي! (ثم أضحك، لا أقدر على كبتها أكثر) تخيّل ما قد يقول الأعضاء في رابطة الآباء والمعلمين عن هذا!».

يحكي لي تاليًا أنهم جدّفوا إلى جزيرةٍ أخرى على متن زوارق صغيرة. كانوا يقفزون في المياه عُراة. تحدوا تشارلي أن يقفز ويسبح إلى جزيرة

ثالثة صغيرة –وكانت هناك تحديات كثيرة على تلك الشاكلة– وحين عاد وجد أنهم اختفوا جميعًا. تركوه هناك، دون زورق.

- لم يكن معي أي ملابس. ربما كان وقتها ربيعًا، لكننا كنا في القطب الشمالي يا هان. الجو يحول صقيعًا في الليل. بقيتُ هناك لساعاتٍ قبل أن يقرروا العودة لأجلي. كان تأثير الفطر يتلاشى. وشعرتُ بالبرد الشديد. ظننت وقتها أنني سأتجمد... ظننت أنني سأموت. وحين عثروا عليَّ كنت...

- ماذا؟

- كنتُ أبكي. كنتُ مستلقيًا على الأرض وأجهش بالبكاء مثل طفل.

إنه يشعر بخزيٍ شديد الآن حد أنه قد يشرع في البكاء، ويرق قلبي عليه. أود أن أعانقه، كما كنت سأفعل مع بن، لكن لا أعرف كيف سيتلقى عناقي. أعرف أن الرجال يُقدِمون على فعل الحماقات في حفلات العزوبية، لكن ما فعلوه به يبدو مستهدفًا ومقصودًا له تحديدًا، كأنهم أرادوا إقصاء تشارلي. هذا ليس منصفًا، صحيح؟

أقول: «هذا... شنيع. كأنه تنمر! أقصد.. إنه تنمر».

يكتسي وجه تشارلي بتعبير ثابت تائه. أعجز عن قراءته. يا لغرور افتراضي بأنني أعرف دومًا ما يدور في خلد زوجي قلبًا وقالبًا. قضينا سنواتٍ معًا. لكن تطلّب الأمر أربعًا وعشرين ساعةً في هذا المكان العجيب ليتضح أن هذه المعرفة ليست سوى وهم محض. شعرتُ به منذ أن وصلنا إلى هنا. كان تشارلي كأنه شخص غريب عني. وما حدث في الحفل هو تأكيد آخر على هذا، اكتشاف تجربةٍ مريعةٍ أخفاها عني، التي أظن الآن أنها غيّرته على نحوٍ معقدٍ وخفيٍّ. الحقيقة هي أنني لا أعتقد أن تشارلي على طبيعته تمامًا في لحظتنا هذه، أو ليس الإنسان الذي أعرفه. فعل هذا المكان شيئًا به... بل بنا.

يقول تشارلي: «كانت فكرته. إنني واثق من هذا».

- فكرة من؟ دنكن؟

- لا. هذا غبي. تابع لهم لا أكثر. أقصد ويل. كان هو زعيم العصابة. إنه أمر واضح. جونو كذلك. البقية كانوا يتبعون التعليمات.

لا أتصور مطلقًا أن ويل دفع الآخرين لفعل هذا. كما أن العزّاب هم عادةً من ينظمون أشياء كهذه، وليس العريس. نعم، أستطيع أن أتخيل چونو مدبرًا لكل هذا، لا مانع، بالأخص بعد الغوغاء التي أحدثها بعد إلقاء كلمته. كذلك تلفه روح من الجموح. ليست روحًا خبيثة، لكنه قد يصعّد المواقف دون أن يقصد فعلًا. إنه حتمًا دنكن. لكن لا، ليس ويل. أظن أن تشارلي يفضل إلقاء اللوم على ويل لأنه لا يطيقه ببساطة.

يسألني تشارلي بوجهٍ مكفهر: «أنتِ لا تصدقينني، أليس كذلك؟ لا تصدقين أن ويل كان السبب».

أجيبه: «حسنًا. بصراحةٍ، ليس فعلًا. لأنه...»

يقول مزمجرًا: «لأنك تريدين ممارسة الحب معه؟ أتظنين أنني لم ألاحظ؟ رأيت الطريقة التي كنتِ تنظرين إليه بها البارحة يا هانا. حتى طريقة نطقك لاسمه (ثم يحتد صوته وكأنه يقلدني) أوه، أخبرني يا ويل حين تجمدت من الصقيع، أوه يا لعضلاتك...».

تلك القسوة في نبرة صوته لم تكن متوقعةً بالمرة حد أنني تراجعتُ بعيدًا عنه. مر زمن طويل منذ أن ثمل تشارلي لدرجة أنني نسيت عمق تحوله. لكنني جفلت كذلك من شوائب الحقيقة في كلامه. انتابتني رجفة من الشعور بالذنب أمام تذكُّري الطريقة التي كنت أنظر بها إلى ويل. لكنه حوّل شعوري أي نفسه بسرعةٍ إلى شعور بالغضب.

صررتُ على أسناني قائلةً: «تشارلي! كيف... كيف تجرؤ على أن تتكلم معي بهذه الطريقة؟ ألا تلاحظ إهانتك لي؟ وهذا كله لأنه بذل قليلًا من الجهد ليشعرني بالترحاب... وهو أكثر بكثيرٍ مما فعلته أنت!». ثم أتذكّر مغازلاته مع چولز البارحة. والتسلل إلى غرفتنا في مطلع الفجر بعدما قضى الليل كله يشرب مع بقية الرجال.

أقول بصوتٍ يرتفع شيئًا فشيئًا: «في الواقع، حجتك واهية! كل تلك التمثيلية المقززة مع چولز البارحة. إنها دائمًا تتصرف وكأنك خاتم في إصبعها، وأنت تسايرها! ألديك أي فكرةٍ عما أشعر به أنا؟ (أصرخ فيه) تدري؟». إنني ممزقة بين الغضب والبكاء، وكل التوتر والوحدة اللذين شعرتُ بهما اليوم يحكمان قبضتهما عليَّ.

يتفاجأ تشارلي. يفتح فاه ليتكلم لكن أهز رأسي.

- مارستَ الحب معها، صحيح؟

لم أرغب قط في معرفة إجابة هذا السؤال من قبل. لكني أشعر الآن بشجاعةٍ كافيةٍ تدفعني لسؤاله.

يخيم صمت طويل. يضع تشارلي رأسه بين يديه. ويقول بصوتٍ مختنقٍ بين أصابعه: «مرة واحدة. لكن منذ زمنٍ سحيق، بصراحة...».

- متى؟ متى حدث هذا؟ في مراهقتكما؟

يرفع رأسه. يفتح فاه، كأنه كان سيقول شيئًا، ثم يغلقه ثانيةً. تعبير وجهه. يا إلهي الرحيم. ليس وهما صغيران. أشعر كأنه لكمني في معدتي. لكن عليَّ أن أعرف. أسأل: «بعدها؟».

يتنهد ثم يومئ.

كأن حلقي انسد، أكافح لتخرج الكلمات: «هل كانت... ونحن معًا؟».

ينطوي تشارلي على نفسه، يضع وجهه بين يديه. ويئنّ أنينًا طويلًا مختنقًا: «هان... إنني آسف. آسف للغاية. أقسم لك إنه لم يعنِ أي شيء. كان فعلًا غبيًا. كنت... كان، حسنًا، كان حين مر وقت طويل ولم نمارس الحب. كان...».

- بعدما أنجبت بن؟

أشعر بالغثيان يضطرم في معدتي. أتأكد فجأةً. ليس عليه قول أي شيء، هذا هو التأكيد الذي أحتاجه.

ينطق أخيرًا: «أنتِ تعلمين... كنا نمر بوقتٍ عصيب. كنت... كنت حزينةً طوال الوقت، ولم أعرف ما أفعل، كيف أساعد...».

- تقصد حين كنت أمُر باكتئاب ما بعد الولادة؟ حين كنت أنتظر الغرز لتشفى؟ يا للهول يا تشارلي...

- أنا آسف (تبخرت كل القسوة من نبرة صوته الآن. أكاد أصدق أنه واعٍ كأنه لم يشرب نقطة واحدة) إنني آسف للغاية يا هان. كانت چولز وقتها قد انفصلتْ عن حبيبها... ذهبنا لنشرب شيئًا بعد العمل...

وشربتُ كثيرًا. بعدها اتفقنا على أنها كانت فكرةً شنيعةً، وأنها لن تحدث ثانيةً أبدًا. لم تعنِ أي شيء. إنني لا أتذكّرها. هان... انظري إليَّ.

لا أقدر على النظر إليه. لن أنظر إليه.

إنه فِعل لشدة شناعته لا أقدر على التفكير فيه بوضوح. أشعر كما لو أنني صُعقت، كأن الألم كله لم يتوغل بداخلي بعد. لكنه سلط ضوءًا جديدًا على كل تلك المغازلات بينهما، كل التلامس الجسدي، إنه ضوء جديد مروِّع. تخطر ببالي كل تلك المرات التي شعرتُ فيها أن چولز قصدت أن تقصيني عمدًا، أن تستحوذ على تشارلي لنفسها.

تلك الساقطة.

أقول: «يعني، طوال الوقت الذي كنتَ تخبرني فيه أنكما صديقان فحسب، وأن قليلًا من الغزل بينكما لا يعني شيئًا، وأنها مثل أختٍ لك... لم يكن أيٌّ منه صحيحًا؟ ليس عندي أي فكرةٍ عما كنتما تفعلانه البارحة. لا أريد أن أعرف. لكن، كيف تجرأت؟».

يمد يده ويلمس رسغي في تردد: «هان...».

- لا... لا تلمسني (أنتزع يدي، وأقف) أنت مقزز. أنت عبء عليَّ يا تشارلي. أيًّا كان ما فعلوه بك في الحفل، فإنه ليس عذرًا لسلوكك الآن. نعم، ربما كان مرعبًا ما فعلوه بك. لكنه لم يضرك أي ضررٍ قويٍّ، صحيح؟ بحق المسيح، إنك رجل راشد... أب... (وعلى وشك أن أضيف «زوج» لكنني عجزتُ) على عاتقك مسؤوليات! ولعلمك، لقد مللتُ الاعتناء بك. لا ألقي بالًا لك. في وسعك أن تدبر فوضاك اللعينة بنفسك

ثم أستدير وأبتعد عنه بسرعة.

چونو

الإشبين

يقول ويل: «چونو... (يضحك ضحكةً خافتة. تردد جدران الكهف صداها على مسامعنا) فعلًا لا أعرف عمَّ تتحدث. كل هذا كلام من الماضي. ليس نافعًا لك. عليك أن تمضي قدمًا».

صحيح. لكن لا أستطيع. كأن جزءًا مني ظل عالقًا هناك. وبقدر محاولاتي أن أنساه، ظل يأكل في قبي، ذاك السم. أشعر كأن شيئًا لم يحدث في حياتي من وقتها، شيئًا ذا أهمية. وأتساءل كيف تمكّن ويل من المضي في حياته، دون حتى أن يلتفت إلى الماضي ولا مرة واحدة.

أقول: «لقد قالوا إنه حادث مأسويٌّ. لكن ليس هذا ما حدث. كنا نحن يا ويل. كان هذا خطأنا نحن».

أخبرنا الفتى -المتوحد- حين عدنا من تمرين الرجبي أنه كان «يرتب الغرفة». كنتُ أنا من طلب منه أن يرتبها بعدما نفدت مني أي أوامر أخرى. ثم قال: «لكنني وجدت هذه». ورفعها بطرف يده كما لو أنها ستحرقه: رزمة من أوراق امتحانات الثانوية.

نظر إلى ويل. قد تشعر من تعبير الفتى أن شخصًا قد مات. أظنه من وجهة نظره فإن شخصًا قد مات فعلًا: بطله الشخصي.

قال ويل بهدوءٍ شديد: «أعدها مكانها».

قال الفتى: «ما كان عليك أن تأخذها».

رأيتُ أن قوله كان قولًا ينُم عن شجاعة كبيرة، إذ إن كلينا كان في ضِعف طوله. كان فتىً شجاعًا، ومؤدبًا كذلك. هكذا أراه حين أفكر به. وهو ما أحاول ألا أفعله. هز رأسه وقال: «إنه... إنه غش».

التفت ويل إليَّ بعدما غادر الغرفة وقال: «إنك غبي أحمق. لمَ جعلته يرتب الغرفة وأنت تعرف أنها هنا؟». كان هو من سرقها، وليس أنا. لكني واثق الآن أنه كان سيجعلني أتلقى اللوم على سرقتها إن افتضح أمرها.

أتذكّر أنه ابتسم لي وقتها ابتسامة لم تكن ابتسامة على الإطلاق وقال: «تعرف؟ أظننا الليلة سنلعب لعبة النجاة».

أقول لويل: «لم تتحمل الأمر. لأنك كنت تعرف أنك ستُفصل من المدرسة إن افتضح أمرك. وكانت سمعتك الغالية هي كل ما يهمك. كنت هكذا دومًا، تأخذ ما تشتهي، وإلى الجحيم أي شخصٍ آخر، إن كان محتملًا أنه سيقف في طريقك. حتى إن كان أنا».

يقول ويل ونبرته هادئة رزينة: «جونو. لقد أفرطتَ في الشراب. أنت لا تعي ما تقول. إن كان خطؤنا فما كنا لنفلت منه، صحيح؟».

كنا اثنين لا أكثر. كان في مهجع الفتى المتوحّد أربعة فتيان تلك الليلة، مرض اثنان منهما وقضيا الليل محتجزَين في عنبر المستشفى. ساعدنا هذا. شعرتُ أن أحدًا تحرك حين دخلنا المهجع، لكننا كنا سريعين. شعرتُ كأنني قاتل مأجور، وكان شعورًا رائعًا. كان ماتعًا. لم أكن أفكر فيما أفعل. كان الأدرينالين يضخ بداخلي ويقودني. حشرتُ جوربًا من جوارب الرجبي في فمه بينما ربط ويل العصابة حول عينيه، حتى إن أثار أي صخبٍ فسيكون مختنقًا وخفيضًا إلى حدٍّ كبير. حمله لم يكن صعبًا، كان وزنه مثل ريشة. قاوم قليلًا. لكنه لم يتبول على نفسه مثلما يفعل معظم الأولاد. كما قلت، كان ولدًا شجاعًا للغاية.

ظننتُ أننا سنتجه إلى الغابة. لكن ويل أشار إلى الجروف. نظرت إليه في عدم فهم. مرت لحظة مروعة ظننت فيها أنه سيقترح أن نلقي بالفتى من فوقها. لكنه حرك فاه دون أن ينطق: «طريق الجروف، المنحدر». «آه. حسنًا». غمرتني الراحة. استغرقنا وقتًا طويلًا لنصعد المنحدر، والصخر الطباشيري يتداعى مع كل خطوة، أقدامنا تنزلق، ولم نستطع أن نستند على الدرابزين

المثبّت في الصخور لأن أيدينا كانت مشغولة. توقف الفتى عن المقاومة. ولبث ساكنًا. قلقتُ وقتها إن كان عاجزًا عن التنفس، لذا أردتُ أن أزيل حشوة فمه، لكن ويل هز رأسه وقال: «في وسعه أن يتنفس من أنفه». ربما وقتها بالتحديد بدأ شعور سيئ يتسلل بداخلي. قلتُ لنفسي إنه شعور تافه، كلنا خضنا هذا، أليس كذلك؟ ومضينا قدمًا.

وصلنا إلى الشاطئ أخيرًا، وتركناه على الرمال الرطبة. لم أكن أعرف كيف كنا سنصعّب المهمة عليه. سيكون واضحًا مكانه فور أن يزيل العصابة عن عينيه، حتى دون نظاراته. لم يكن مكانًا بعيدًا عن المدرسة بمسافةٍ طويلة، والكل يقدر على صعود المنحدر، خصيصى إن كان فتىً ضئيلًا. يصعده الأولاد ليصلوا إلى الشاطئ طوال الوقت. لكني ظننتُ أن ويل يريد تسهيلها عليه. بسبب كل الأمور التي أنجزها لنا. نظف أحذيتنا ورتب مهجعنا وأشياء أخرى. كان هو العدل.

أنول: «أنت تعرف في قرارة نفسك يا ويل... (يصدر صوت من مكانٍ سحيقٍ بداخل صدري، صوت الألم. أظن أنني أبكي) كان علينا أن ندفع الثمن... ثمن ما اقترفناه».

أتذكّر أن ويل أشار إلى نهاية المنحدر، وأخرج بعض الأربطة. لم تكن مميزة، أربطة أحذية الرجبي العادية.

قال: «سنربطه هنا».

كان أمرًا سهلًا. ربطه ويل في الدرابزين في نهاية المنحدر، كنتُ أنا بارعًا في عقد العُقد والأمور الشبيهة. وقتها فهمت. هذا سيصعّب وضعه كثيرًا. عليه أن يكون ببراعة هوديني[1] ليهرب منها، وكان هذا هو الجزء الذي سيستغرق وقته. ثم تركناه.

بقول ويل: «بحق الله يا چونو! لقد سمعت بنفسك ما قالوه وقتها. كان حادثًا مروعًا».

- أنت تعرف أن هذا لم يكن حقيقيًّا...

---

(1) هاري هوديني (Harry Houdini): فنان خفة من أصول مجرية، أدى عروضًا وحيلًا كثيرةً اتسمت بخفة اليد والبراعة في الهروب من الأقفال والسلاسل معقدة التركيب، وكان رئيسًا لرابطة السحرة الأمريكيين.

- بل هي الحقيقة. لا شيء غيرها.

أتذكّر أنني صحوتُ اليوم التالي ونظرتُ إلى البحر من نافذة المهجع. وقتها أدركت إدراكًا لا مناص منه. عجزت عن تصديق فداحة ما فعلنا. كان المد عاليًا.

قلتُ: «ويل... ويل، لا أظن أنه تمكّن من حل قيده. المد... لم أفكر فيه. يا إلهي، أظنه ربما قد...»، جاشت نفسي وشعرتُ أنني سأتقيأ.

أجابني ويل: «چونو، اخرس. لم يحدث أي شيء، تمام؟ أولًا، علينا أن نبقي هذا بيننا نحن الاثنين. وإلا سنتورط في متاعب وخيمة. تفهم هذا، صحيح؟».

لم أصدق أن الأمر يحدث. أردتُ أن أنام ثانيةً وأصحو فلا أجده حقيقيًا. لم يبدُ حقيقيًا، كانت لعنةً شنيعةً أيما شناعة. وكله كان لقاء بضعة امتحانات مسروقة.

أكمل ويل: «حسنًا؟ هل تتفق معي؟ كنا نائمين. لا نعرف أي شيء».

سبق الأحداث كلها سريعًا. لم يكن قد خطر ببالي أساسًا أن أُخبر أحدًا. لكني افترضتُ أن هذا ما علينا أن نفعله. كان هو الصواب، صحيح؟ لا يمكن للمرء أن يبقي أمرًا كهذا سرًا. لكن لم أكن لأخالف رأيه. أخافني وجهه. تغيرت عيناه، كأن نورًا بهما انطفأ. أومأتُ ببطءٍ. لم أكن قد أمعنت التفكير في ماهية الأمر بعد، وكيف سيدمرني لاحقًا.

قال ويل: «قلها بصوتٍ عالٍ».

أجبته: «نعم»، كان صوتي مثل النعيق.

كان ميتًا. عجز عن تحرير نفسه. كان «حادثًا مأساويًا». هذا ما قيل لنا جميعًا عقب أسبوعٍ في اجتماعٍ أقامته المدرسة، جرفته الأمواج ووجده حارس المدرسة ملقىً على الشاطئ. حُلّت العقد في النهاية، لكن ليس في الوقت المناسب لينقذ حياته. ظننتُ أنها ستترك علامات على رسغه. لكن رئيس الشرطة ووالد ويل صديقان، بل كانا يشربان معًا في مكتب والد ويل. وأظن أن هذا ساعدنا.

***

أقول لويل الآن: «إنني أتذكّر أبويه. حين أتوا للمدرسة بعدها. كان مظهر أمه يبدو كأنها تود أن تموت كذلك».

رأيتها، من المهجع في الطابق العلوي وهي تنزل من سيارتها. رفعتْ نظرها إلى الأعلى فتراجعتُ خطوةً للوراء، مرتجفًا، لأبتعد عن مرمى بصرها.

أربض كي أكون في نفس مستوى ويل. أمسك كتفيه بإحكام وأجبره على النظر صوبي بعينيه المعصوبتين: «قتلناه يا ويل. قتلنا ذاك الفتى».

يرفسني بعيدًا ويلوح بذراعيه دون هدف. تقبض أظافره على عنقي، تخدشني أسفل ياقة قميصي. تلسعني. أزج به على الصخرة بيدٍ واحدة.

يقول ويل بينما يتنفس بصعوبة: «چونو. عليك أن تلملم شتات نفسك. عليك أن تخرس أيها الأحمق اللعين».

وهنا أدرك أنني نلتُ منه. إنه نادرًا ما يسبّ. لا تتماشى هذه الألفاظ وصورته اللامعة البراقة على ما أظن.

أسأله: «أكنت تعرف؟ كنت تعرف، صحيح؟».

- كنت أعرف ماذا؟ لا أدري عمَّ تتحدث. بحق المسيح يا چونو... فك قيدي. طال هذا أكثر من اللازم.
- هل كنت تعرف أن المد سيعلو؟
- لا أدري عمَّ تتحدث. چونو... أنت تهذي. من البارحة، يا صاحبي، ثم ما فعلته حين ألقيت خطابك. كذلك أسرفت في الشراب. هل تمر بمشكلة؟ اسمعني. إنني صديقك. والمساعدة دائمًا متاحة. وأنا في وسعي مساعدتك. لكن كفى وهذه التخيلات.

أرفع شعري عن عيني. ورغم برودة الجو فإنني أشعر بالعرق يسيل على أصابعي: «كنتُ أحمق! لم أكن سريع البديهة، أدري هذا. لست أقول إنه كان عذرًا لي. أنا من ربط عقد وثاقه، نعم، حين طلبت مني. لكن لم أفكر في المد. لم يخطر ببالي حتى صباح اليوم التالي، حين فات الأوان».

يهمس ويل وكأنه مرتعب أن أحدًا قد يأتي: «چونو...».

لكنه لا يحثّني سوى أن أرفع صوتي أكثر: «طوال هذا الوقت. طوال هذا الوقت سألتُ نفسي هذا السؤال مرارًا وتكرارًا. وأحسنت الظن فيك. قلت

لنفسي: صحيح أن ويل كان لعينًا بغيضًا في المدرسة من آنٍ لآن، لكن كلنا كذلك. بل عليك أن تكون هكذا لتنجو بنفسك في ذاك المكان».

لقد حوّلتنا إلى حيوانات.

أفكر في الفتى، كان نموذجًا لما يحدث حين لا تكون على تلك الشاكلة، إن كنت طيبًا أو صادقًا، إن لم تفهم القواعد.

أكمل: «لكن قلت لنفسي كذلك: ويل ليس شريرًا. لن يقتل الفتى. محال. ليس لقاء بضعة امتحانات مسروقة. حتى إن كان سيُفصل بسببها».

يقول ويل: «لم أقتله. لم يقتله أحد. قتلته المياه. ربما قتلته اللعبة. لكن نحن لم نقتله. ليست غلطتنا أنه لم يهرب».

أقول: «صحيح، نعم. هذا ما كررتُه لنفسي طيلة تلك السنوات. كررت القصة التي نسجتها أنت، كانت لعبة. لكننا كنا نحن بذاتنا اللعبة يا ويل. لقد حسبنا أصحابه. وثق بنا».

- چونو (الآن هو غاضب. يميل إلى الأمام) تجلّد أيها الجبان اللعين. لن أدعك تفسد كل هذا عليَّ. فقط لأنك تشعر بالندم والأسف على شيءٍ من الماضي، فقط لأن حياتك فوضى وما من شيءٍ لتخسره! ولد صغير مثله... لم يكن لينجو قط في العالم الحقيقيّ، قط. كان هشًا. لولانا نحن لقتله شيء آخر.

انتهى الفصل الدراسي مبكرًا، بسبب موته. انشغل الجميع بعطلة الصيف التي على الأبواب وبدا كأن الفتى لم يوجد من الأساس. أظنه فعلًا لم يوجد من وجهة نظر بقية من في المدرسة؛ كان طالبًا في سنته الأولى، بلا هوية ولا قيمة.

لكننا عرفنا أن هناك بلاغًا. وشى طالب بنا. إنني متأكد أنه كان صديق المتوحد السمين. قال إنه رآنا حين دخلنا غرفة نومهم وقيدنا صديقه. لكن لم تتصعد الشكوى، مدير المدرسة هو والد ويل. كان شنيعًا معظم الوقت، خصيصى مع ويل أكثر من أي شخصٍ آخر. لكن تلك المرة، حمى ويل، وحماني كذلك. وكنا نحن في حماية بعضنا بعضًا.

كل تلك السنوات التي قضيناها معًا، تربطنا الذكريات والأهوال التي مررنا بها، ما فعلناه. ظننتُ أنه يشعر مثلي، أننا بحاجةٍ لبعضنا بعضًا. لكن ما فعله في المسلسل يثبت أنه كان يحاول طيلة الوقت التملص من صداقتنا. إنني عبء ثقيل عليه. أراد أن يُبعد نفسه عني. لا عجب أنه بدا منزعجًا حين قلتُ له إنني سأكون إشبينه.

يقول ويل: «چونو... فكر في أبي. أنت تعرف طباعه. لهذا السبب كنتُ أحاول الحصول على هذه الدرجات باستماتة. كان عليَّ أن أفعل ما فعلت. وإن اكتشف الحقيقة... إن اكتشف كيف خبأت الأوراق، كان ليقتلني. لذا أردتُ أن أخيف الفتى...».

أقاطعه: «إياك أن تجرؤ على هذا. لا تشعر بالأسف على نفسك. أتعرف كم مرةً دبرت أمرك هكذا بلا ثمن؟ بسبب مظهرك وقدرتك على إقناع الناس بأنك ذاك الرجل المغوار العظيم؟ (شفقته على ذاته أجّجت حنقي) سأخبره. لا أستطيع تحمُّل الأمر وقتًا أطول. سأخبرهم جميعًا...».

يقول ويل: «لن تجرؤ (تغير صوته الآن، خافتًا وخشنًا) ستدمر حياتنا. حياتك أيضًا».

أقول: «ههااا! إنني دمرتُ حياتي بالفعل. إنني أدمرها كل يومٍ منذ أن أشرقت شمس ذلك الصباح، حين قلت لي أن أبقي فمي مغلقًا. لم أكن لأسكت قط لولاك أنت. منذ أن مات الفتى لم يأتِ يوم عليَّ دون التفكير في الأمر، في أنه كان عليَّ أن أخبر أحدًا. لكن أنت؟ أوه لا، لا، لم يؤثر فيك بأي شكل، أليس كذلك؟ مضيتَ وعشتَ حياتك، كما فعلتَ دومًا. بلا عواقب. لكن تعرف؟ أظن أن الوقت حان لتجرب العواقب. بالنسبة إليَّ فإنها ستكون راحة عظيمة، سأفعل ما كان على كلينا أن نفعله منذ زمنٍ بعيد».

هناك صوت في الكهف، صوت امرأة: «مرحبًا؟».

نتيبس.

إنها منظمة الزفاف.

- ويل؟ هل أنت هنا؟ (تظهر من خلف التواء الحائط الصخري) أوه، چونو! مرحبًا. أرسلوني لأعثر عليك يا ويل... أخبرني بقية أصدقاءك

أنهم تركوك هنا (تتكلم بهدوءٍ وعملية، رغم أننا نقف في كهف عظيم مرعب، وأحدنا جاثم على الأرض، مقيدًا ومعصوب العينين) مرت نصف ساعةٍ تقريبًا. لذا أرادت چوليا أن آتي و... حسنًا، وأنقذك. يجدر بي أن أحذرك بأنها ليست... (تتردد وكأنها تحاول أن تجد طريقةً لتصيغ قولها بلطف) إنها ليست سعيدةً بما جرى... كذلك الفرقة على وشك أن تبدأ.

تنتظرنا بينما أفك قيد ويل وأساعده، تراقبنا وكأنها معلمة تشرف على طلابها. ثم نتبعها خارج الكهف. أتساءل إن كانت سمعتْ أو رأتْ أي شيء. أو عما كنتُ سأفعله إن لم تقاطعنا.

إيفا

مُنظّمة الزفاف

اشتد الاحتفال في الصيوان ليصل إلى مستوى آخر. شرب المدعوون الشمبانيا لاذعة المرارة، ثم انتقلوا إلى الأصناف الأقوى، الكل يطلب إما كوكتيلًا وإما جرعة مركزة من ساقيّ البار. أصابتهم حالة من الانتشاء وسط انعتاق الليل.

حين كنتُ في حمامات القلعة أبدّل بالمناشف أخرى نظيفة، رأيتُ بقعًا من مسحوقٍ أبيض على الأرض، متناثرة في محيط الحوض الرخامي. لستُ متفاجئة، رأيت ضيوفًا يمسحون أنوفهم خلسةً حين عادوا إلى الصيوان. تهذب هذا الجمع طيلة اليوم. قطعوا مسافات طويلة ليصلوا إلى هنا. أتوا ومعهم الهدايا. تهندموا وتأنقوا وجلسوا منصتين خلال المراسم وإلقاء الكلمات، رسموا على وجوههم تعبيراتٍ دمثة وقالوا كلمات إطراءٍ لطيفة. لكنهم راشدون ألقوا بمسؤولياتهم خلف ظهورهم لوقتٍ وجيز، إنهم مثل أطفالٍ رحل آباؤهم. الآن، هذه الساعات، إنها فرصتهم. حتى بينما كان العروسان في انتظار أن يرقصا رقصتهما الأولى، اندفع المدعوون للاستيلاء على منصة الرقص لأنفسهم.

قبل ساعةٍ أو نحوها، حين عدتُ إلى القلعة، سمعت صوتًا في الطابق العلوي. كان المبنى مغلقًا كي لا يدخله أحد لكن طبعًا ما من تدابير تكفي لمنع الثملين من التجول حيثما يرغبون. صعدتُ كي أتقصى الأمر، فتحت باب غرفة نوم العروسين وجدتُ، لا، ليس الزوجين السعيدين، بل رجلًا وامرأة آخرين مستلقيَين على الفراش. وعند اقتحامي الغرفة تدافعا لستر جسديهما،

هي أنزلتْ تنورتها بسرعةٍ بوجهٍ يتضجر حمرةً، وهو يحاول أن يغطي نفسه بقبعته. بعدها بقليلٍ رأيتهَما يعودان ببراءة، اتجه كل واحدٍ منهما إلى ناحيةٍ مختلفةٍ من الصيوان. ما أثار اهتمامي بالتحديد حيالهما أنني عرفتُ فيما بعد بأن كليهما يرتدي خاتم زواج. ولأنني ربما حفظتُ خطة توزيع الضيوف عن ظاهر قلبٍ مثل چوليا نفسها، حدث أنني أعرف أن كل الزوجات كُنَّ يجلسن قبالة أزواجهن.

لكنهما لم يقلقا من حضوري، ليس بالضبط. تلاشى فزعهما من دخولي وحل محله ارتياح مرحٍ مرتبك. إنهما يعرفان أنني لن أبوح بسرهما. لا سيما أنني لم أتفاجأ؛ شهدتُ الكثير من هذه الأسرار سابقًا. هذه التصرفات هي السير الطبيعي للأحداث. دائمًا تقع أسرار على هامش حفلات الزفاف. أسمع الأشياء التي تقال في السر، وأسمع التعليقات الخبيثة والنميمة. حتى إنني سمعتُ بعضًا من كلمات الإشبين في الكهف.

إليك جوهر تنظيم أي حفل زفاف، في وسعي إعداد يومٍ مثاليٍّ ما دام جاراني المدعوون في مخططاتي، وتذكّروا دومًا أن عليهم ألا يتجاوزا حدودًا بعينها. لكن إن لم يمتثلوا لهذه القاعدة، فإن تبعات الزفاف قد تطول لأكثر من مجرد أربع وعشرين ساعة. لا أحد في مقدوره السيطرة على تصدُّع مثل هذا.

چولز

العروس

بدأت الفرقة في الغناء، أمسك ويل -الذي عاد إلى الصيوان في حالةٍ فوضوية- بيدي ونحن واقفان على الأرضية الصفيحية. ألاحظ أنني أمسك بيده بإحكامٍ حد أنها تؤلمه، فأُرخي من قبضتي. إنني أشتعل غضبًا من عرقلة الأمسية التي تسبب بها أصدقاؤه ومزاحهم المعتوه. يلفنا المدعوون من كل اتجاه، يهتفون ويصرخون. وجوههم محمرة وغارقة في العرق، أسنانهم لامعة وأعينهم جاحظة. إنهم سكارى حتى آخر قطرةٍ في دمائهم. يندفعون نحونا ويميلون علينا، وفجأةً تضيق المساحة. الكل قريب منا لدرجة أنني أشم روائحهم: رائحة العطر والكالونيا، رائحة البيرة والشمبانيا اللاذعة المختمرة، رائحة أجسادهم، رائحة أنفاسهم الثملة. أبتسم في وجوههم لأن هذا ما يُمليه عليَّ وضعي. أبتسم كثيرًا لدرجة أنني أشعر بألمٍ وخدرٍ أسفل أذني، كأن فكي قطعة من المطاط سُحبت أشد من اللازم.

آمل أن وجهي يوحي لهم بأنني أستمتع بوقتي. أسرفتُ في الشراب، لكنه لم يؤثر فيَّ البتة سوى أنه ضاعف من ضجري واستيائي. منذ ذاك الخطاب وأنا أشعر بانزعاجٍ متفاقم. أنظر حولي. الكل يقضي وقتًا رائعًا، تحرروا من حرجهم وخجلهم. بالنسبة إليهم فإن كارثة الخطاب ليست سوى تذييل تافه لليوم، دعابة مسلية.

أميل أنا وويل إلى ناحية، ثم إلى أخرى. يديرني بعيدًا عنه ثم يسحبني إليه ثانيةً. يصرخ المدعوون في إعجابٍ بهذه الحركات المتواضعة. لم نأخذ دروسًا في الرقص لأنه سيكون أمرًا مبتذلًا إلى حد أعجز عن وصفه، لكن ويل

راقص ماهر بالسليقة. باستثناء أنه وطئ على ذيل ثوبي عدة مرات وسحبتُه بعيدًا عن قدمه قبل أن أتعثر. ليست هذه الرعونة من طبعه. يبدو مشتتًا.

أسأله حين أستند على صدره: «ما كان ذلك بحق السماء؟». أهمس بسؤالي وكأنني أهمس بغزل حلو في أذنه.

يجيب ويل: «أوه، كانت حماقة. يتصرفون على طبيعتهم. يعبثون معي، كما تعرفين. بقايا من حفل العزوبية»، يبتسم لكنه لا يبدو على سجيته. شربتُ كأسين كبيرتين من الشمبانيا حين عاد إلى الصيوان، واحدة تلو الأخرى. هز كتفيه: «مزاح چونو المعتاد».

أقول: «الطحالب كانت مزحةَ البارحة. ولم تكن مضحكة بالمرة. والآن يفعل هذا؟ وذاك الخطاب؟ ما الذي كان يقصده بكل هذا؟ عن كل حديثه عن الماضي؟ عن كتمان الأسرار... عن أي أسرارٍ كان يتكلم؟».

يقول: «أوه. لا أدري يا چولز. إن چونو يعبث معي فحسب. إنه لا شيء».

ندور في دائرةٍ بطيئة، أشعر بالوجوه المتهللة والأيادي المصفقة.

أقول: «لكن لم يبدُ أنه لا شيء. بل على العكس، بدا شيئًا هائلًا. ويل، هل يلوي ذراعك بشيءٍ ما؟».

يقول بحدة: «أف، بحق الله يا چولز. قلتُ لكِ إنه لا شيء. انسي الأمر. أرجوك».

أحدق إليه. لم أُبالِ بالكلمات في حد ذاتها بل الطريقة التي قالها بها، وكذلك الطريقة التي شد قبضته على ذراعي. إنه برهان قويٌّ كقوة الإجابة التي أسعى لها، بأن ما بينه وبين چونو أبعد ما يكون عن «اللاشيء».

أقول وأسحب ذراعي من قبضته: «أنت تؤلمني».

يلوح ندمه فورًا: «چولز... اسمعي، آسف (اختلف صوته بالكامل، تلاشت العدائية التي سمعتها) لم أقصد أن أصرخ في وجهك. كان يومًا طويلًا، يومًا رائعًا طبعًا لكنه طويل. سامحيني؟».

ثم يبتسم، الابتسامة نفسها التي أعجز عن مقاومتها منذ رأيتُها أول مرةٍ في متحف ڤيكتوريا وألبرت. لكنها الآن لا تؤثر فيَّ التأثير ذاته. بل تقلقني أكثر، بسبب سرعة التغير. كأنه ارتدى قناعًا.

أقول: «إننا متزوجان الآن. يفترض أن نتشارك كل شيء. أن نطمئن لبعضنا بعضًا».

يديرني ويل أسفل ذراعه ثم إليه ثانيةً. يهتف الحشد لهذه الحركة المتباهية.

ثم حين نواجه بعضنا بعضًا من جديد، يتنفس ويل نفسًا عميقًا ويقول: «انظري. يطنّ في رأس چونو شيء يقول إنه حدث في الماضي، حين كنا صغيرين. إنه مهووس به. لكنها تهيؤات. أشعر بالحزن على حاله، طوال تلك السنين. أخطأتُ في هذا تحديدًا. لأنني شعرتُ أن عليَّ أن أراضيه دومًا، كما ترين حياتي سارت على ما يرام، عكس حياته. الآن هو حقود، بسبب كل ما أملك، كل ما نملك. إنه يعتقد أنني مدين له».

أقول: «نعم! بحق الله. ما الذي يمكن أن تدين له به؟ واضح أنه ينتفع من نجاحك منذ وقتٍ طويل».

لا يجيبني عن سؤالي. بل يجذبني إليه بينما الأغنية تصل لأوج نغماتها. يندلع هتاف من الحشد. لكنه يبدو بعيدًا عنا. يقول ويل بحزمٍ هامسًا فوق شعري: «ستمر هذه الليلة وسينتهي كل هذا. سأخرجه من حياتي، أقصد حياتنا. أعدك. لقد اكتفيتُ منه. ثقي بي. سأحل كل شيء».

هانا

المُرافِقة

همتُ على وجهي في خيمة الرقص. انتهت الرقصة الأولى، حمدًا لله، واحتشد كل المتفرجين في المكان وملؤوه. لستُ أدري عمَّ أبحث بالضبط. أظنني أبحث عن مصدر تشتيت يُلهيني عن ممخضة الأفكار الدائرة في رأسي. تشارلي وچولز. يؤلمني بشدة التفكير فيهما.

يبدو المكان وكأن الضيوف كلهم، فردًا فردًا، محشورون هنا، إنهم مثل عصّارةٍ حارةٍ من الأجسام البشرية. تمسك مغنية الفرقة الميكروفون وتقول: «مستعدون للرقص يا شباب؟».

ثم تبدأ الفرقة بعزف إيقاعٍ ملتهب، أربعة كمانات، نغمات جامحة تحث الأقدام على قرع الأرض. تتزاحم الأجساد بينما يحاول الجميع، بثمالةٍ وفشلٍ ذريع، أن يؤدي نسخته -أو نسختها- من الرقصة الأيرلندية الشعبية. أرى ويل ينتزع أوليڤيا من وسط الحشد: «آن الأوان بأن يطالب العريس برقصته مع الوصيفة!». لكن يبدو أنهما لا يتفقان بطريقةٍ تثير الريبة وهما يصعدان على منصة الرقص، كأن أحدهما يقاوم الآخر. أتمهل بينما أتأمل في وجه أوليڤيا تبدو محاصَرة. كان في خطاب ويل ذاك الجزء الذي حيرني. فكرتُ فيه. ماذا كان؟ أذهلني أنه كان مألوفًا لي بغرابة شديدة. أفتش في ذاكرتي أكثر، أحاول أن أركز.

متحف ڤيكتوريا وألبرت، نعم، هذا هو. أتذكّر ما حكته لي البارحة، عن أنها اصطحبت ستيڤن إلى هناك، إلى حفلة، أقامتها چولز. ثم يسكن كل

شيء حولي حين يخطر ببالي... لكن هذا الجنون بعينه. مستحيل. لن يكون منطقيًا. حتمًا كانت صدفة مريبة.

يقول رجل وأنا أدفعه لأمُر: «مهلًا! لمَ العجلة؟».

أقول ببالٍ شارد: «أوه... آسفة. كنتُ... مشتتة قليلًا».

- حسنًا... ربما تساعدك هذه الرقصة.

يبتسم. أنظر إليه. إنه على قدرٍ من الوسامة، طويل، أسود الشعر، تظهر غمّازة على إحدى وجنتيه حين يبتسم. وقبل أن أقول أي شيء يأخذ بيدي ويسحبني برقةٍ نحوه، على الأرضية الصفيحية. لا أُبدي أي مقاومة.

يصرخ وسط ضجيج الموسيقى: «رأيتكِ في الصباح. في الكنيسة، تجلسين وحدك. وفكرتُ: هذه هي المرأة التي تستحق عناء التعرّف عليها».

تلك الابتسامة من جديد. أوه. إنه يظنني عزباء، وبمفردي هنا. إذن فقد فاته المشهد مع تشارلي عند البار.

يشير إلى صدره ويصرخ قائلًا: «لويس».

- هانا.

ربما عليَّ أن أشرح له أنني هنا بصحبة زوجي. لكن لا أريد أن أفكر في تشارلي الآن. وحين رأيتُ تلك الصورة الفاتنة الجديدة لذاتي عبر عينيه، لستُ الدخيلة رديئة الملابس التي ظننت، بل امرأة مثيرة وغامضة، قررت ألا أقول شيئًا. أدع جسدي يتحرك معه، مع الموسيقى. أدعه يقترب مني أكثر، عيناه على عيني. لعلي اقتربتُ منه بالمثل. إنني ملتصقة به حد أنني أشم رائحة عرقه، لكنه عرق نظيف، رائحة طيبة. أشعر بالإثارة تضطرم في معدتي. بلدغةٍ خفيفةٍ من الرغبة.

الآن

ليلة الزفاف

هناك شخص آخر هنا. في الظلام.

أرعبتهم الفكرة حتى من ظِلهم، جفلوا من أي أشكالٍ تشكلت لهم في الظلمة الدامسة، التي بدت كأطياف تلوح أمامهم ثم يتبين أنها ليست سوى ألاعيب تنسجها مخيلاتهم. تحركوا في حلقة ضيقة مُحكمة، خائفين أن يخسروا واحدًا آخر منهم. لا يزال پيت مفقودًا.

كأنهم يشعرون بوخزات أعين مجهولة تراقبهم. لخمتهم تضطرم، وتعرّيهم يزيد. يتعثرون على الأرض الوعرة، على تكتلاتٍ خفيةٍ من العشب. يحاولون ألا يفكروا في پيت. إنها رفاهية لا يتمتعون بها الآن، عليهم الاعتناء بأنفسهم. ينادون على بعضهم بعضًا بين حينٍ وحين دون هدفٍ سوى البحث عن الطمأنينة، أصواتهم مثل مصابيح يشعلونها في وجه سواد الليل، تنُم أصواتهم عن اهتمامٍ يناقض عادتهم: «هل أنت بخيرٍ يا آنجس؟»، «نعم... أنت على ما يرام يا فيمي؟». أسئلة تساعدهم على الاستمرار. تساعدهم على نسيان الذعر المتفاقم.

- يا إلهي... ما هذا؟

يُميل فيمي مصباحه ويتفحص دائرةً واسعةً بشعاعه. يصب نوره على شكلٍ منتصب، يبرز باهتًا من بين الظلال، طوله بطول رجلٍ تقريبًا. ثم تظهر أشكال مشابهة أخرى، بعضها أصغر حجمًا.

يجيب آنجس بلين: «إنها المقبرة».

يحدقون إلى الصلبان القلطية، وشواهد القبور الصخرية المهدمة، جيش صامت غريب ومفزع.

يصرخ دنكن: «اللعنة. ظننتها آدميًا».

جميعهم، للحظةٍ عابرة، ظنوه كذلك، الشكل المستدير والقاعدة المنتصبة الرفيعة تواطأت عليهم لفترةٍ وجيزةٍ لتبدو إنسانًا. لكن حتى الآن، وبينما يتراجعون بحذرٍ شديد مرتعب، من الصعب زعزعة شعورهم بأن هذه الشواهد ترمقهم بنظرةٍ معاتبة، كأنها حراس تقف لهم بالمرصاد.

يمضون برهةً في اتجاهٍ جديد.

يصرخ آنجس: «هل تسمعون هذا الصوت؟ أظننا اقتربنا كثيرًا من البحر».

يتوقفون. ومن مكانٍ ليس ببعيد يميزون هدير تكسُّر المياه على الصخور. بإمكانهم الشعور بالأرض تهتز أسفل أقدامهم تأثرًا به.

يفكر فيمي بصوتٍ عالٍ: «آه. حسنًا. المقبرة خلفنا والبحر أمامنا. لذا أظن أن علينا السير... في هذا الاتجاه».

ثم بدؤوا زحفهم بعيدًا عن صوت الموج المتهشم.

- شباب... يوجد شيء ما هناك.

يقفون جميعًا مكانهم في التو واللحظة.

- ماذا قلت يا آنجس؟

- قلتُ إن شيئًا ما هناك. انظروا.

يرفعون المشاعل. يرتعش لهيبها المُسلَّط على الأرض. إنهم في حالة تأهبٍ لما قد تقع عليه أبصارهم من منظرٍ تقشعر له أبدانهم. يندهشون، بل تغمرهم الراحة، حين يعكس النور بريق المعدن الصلب.

- إنه... ما هذا؟

يتقدم فيمي، الأشجع بينهم، ويلتقطه. يلتفت إليهم ويحجب عينيه ليتفادى الوهج الساطع، يرفعه ليروه جميعًا. يميزون الشيء على الفور، رغم أنه مشوه عن شكله الأصلي، معقوف ومكسور. إنه تاجٌ ذهبيٌّ.

مساء اليوم

أوليڤيا

وصيفة العروس

أتجول في أنحاء الصيوان. أتحرك بين الطاولات. أتناول الكؤوس نصف المملوءة، بقايا مشروبات الآخرين، وأشربها بسرعة. أريد أن أثمل إلى أقصى حدٍ ممكن.

تملصتُ من ويل بأسرع ما تمكنتُ بعدما جذبني لنرقص تلك الرقصة. شعرت بالغثيان من قربي منه، من الشعور بجسده يضغط عليَّ، من التفكير في كل الأمور التي فعلتها معه... الأمور التي أجبرني على فعلها... السر الشنيع الذي بيننا. كأنه يستمتع به. وفي نهاية الرقصة همس في أذني: «الفوضى المجنونة التي سببتِها هذا الصباح... كانت الخاتمة، تمام؟ لا مزيد منها. هل تسمعين؟ لا مزيد منها».

لم يلاحظني أحد بينما أقضي على كل مشروباتهم المنبوذة. كلهم ثملون الآن، إضافةً إلى أن الكل غادر الطاولات لأجل منصة الرقص. المكان متكدس بالكامل. كلهم في أوساط ثلاثينياتهم، يرقصون ويتحسسون بعضهم بعضًا كما لو أنهم مراهقون في ملهىً ليليٍّ في مطلع الألفية يرقصون على أغنيات «50 سنت»، وليس في صيوان على جزيرة نائية بصحبة فرقةٍ تعزف على الكمانات.

أوليڤيا القديمة كانت ستضحك من منظرهم. أتصور نفسي أراسل أصدقائي، وأعطيهم تقريرًا مباشرًا عن الإحراج البالغ الذي يحدث أمامي الآن.

قلة من النذل يراقبون الضيوف في نواحي الصيوان، كأنهم في انتظار نهاية كل شيء. بعضهم في عمري، أو أصغر قليلًا. كلهم يكرهوننا، كراهيتهم جلية بشدة. ولستُ متفاجئة. أشعر أنني أكرههم أيضًا. الرجال على الأخص. لقد شعرتُ الليلة بلمساتٍ على كتفي وعلى جسدي من قِبل الرجال هنا، من أصدقاء ويل وچولز المزعومين. تمتد الأيادي لتجذب وتمسّد وتعصر وتتحسس في غفلةٍ من الحبيبات والزوجات، كأنني قطعة من اللحم. لقد سئمتُ من هذا.

آخر مرةٍ لمسني فيها أحدهم استدرتُ ورمقته بنظرةٍ تتطاير شررًا لدرجة أنه ابتعد عني، يرفع يديه عاليًا في الهواء بوجهٍ أبله وعينين جاحظتين، بريء تمامًا. أشعر إن حدث هذا ثانيةً فإنني سأفقد صوابي فعلًا.

شربتُ أكثر. أتذوق طعم الشراب في فمي كريهًا، لاذعًا وعفنًا. أحتاج لأن أشرب حتى لا آبه لما يحدث. حتى يتخدر لساني وإحساسي. ثم تحاصرني ابنة خالتي بيث وتجرني معها إلى خيمة الرقص. لم أرها منذ العام الماضي في حفل عيد ميلاد خالتي، ثم رأيتُها صباح اليوم أمام الكنيسة. إنها تضع أطنانًا من مساحيق التجميل على وجهها، لكن في وسع أي أحدٍ أن يرى أنها ما زالت طفلة، وجهها بيضاويٌّ ناعم، وعيناها نجلاوان. أريد أن أقول لها أن تمسح الحمرة والألوان التي تطلي شفتيها وجفنيها، أن تظل في فقاعة الطفولة الآمنة لوقتٍ أطول قليلًا.

أقف على منصة الرقص، يحركني ويدفعني من حولي، إنني محاطة بأجسادٍ كثيرة، ثم دارت الغرفة. كأن كل الكؤوس التي تجرعتُها انقضتْ عليَّ دفعةً واحدة. ثم أتعثر. ربما على قدم أحدهم أو بسبب كعب حذائي العالي الغبي. أسقط، بقوة، أُصدر فرقعة أسمعها قبل أن أشعر بها بزمنٍ طويل. أظنني أصبتُ رأسي.

أسمع بيث، عبر الروائح العفنة في الأسفل، تتكلم مع شخصٍ ما قريب منها: «أظنها ثملتْ بشدة. يا إلهي».

يقول أحدهم: «نادوا چولز. أو والدتها».

- لا أرى چولز في أي مكان.

- أوه، انظروا. ها هو ذا ويل.

- ويل، إنها ثملة للغاية. هل بإمكانك مساعدتها؟ لا أعرف كيف أتصرف...

يأتي ناحيتي مبتسمًا: «أوه... أوليڤيا. ما الذي حدث؟ (يمد ذراعه صوبي) هيا، لنساعدك على النهوض».

أقول: «لا، لا تلمسني». أضرب يده كي أبعدها عني.

يقول: «هيا. لا عليك (صوته يقطر عطفًا ورِقة. أشعر به يحملني، لا مغزى من المقاومة) لنخرج حيث الهواء المنعش». يضع يده على كتفيَّ.

- أبعِد يديك عني! (أحاول التملص من قبضته).

أسمع همهمات المتفرجين من حولنا. إنني الأخت الأصعب مراسًا، أراهن أن هذا ما يتمتمون به لبعضهم بعضًا. إنني الشقيقة المجنونة. عار العائلة.

***

نخرج من الصيوان، تضربنا الرياح بكل عنفوانها، تضربنا بقوةٍ لدرجة أنها كانت ستُسقطنا. يقول ويل: «من هذه الطريق. المكان أهدأ هناك». ينال مني التعب والثمالة بغتةً فلا أقوى على المقاومة. أدعه يقودني إلى خلف الصيوان، نحو الأرض المنبسطة إلى البحر مباشرةً. أرى الأضواء على البر من مسافةٍ بعيدة، مثل خيطٍ من رقائق براقة مبعثرة في جنح الليل. أراهم بوضوح شديد تارةً ويغشاهم الضباب تارةً، كأنني أراهم عبر المياه.

الآن، ولأول مرةٍ منذ زمنٍ بعيد، نكون وحدنا.

أنا وهو.

چولز

العروس

زوجي اختفى. أسأل ضيوفي: «هل رأى أحد منكم ويل؟». يرفعون أكتافهم ويهزون رؤوسهم. أشعر كأنني فقدتُ أي سيطرة كنت أتمتع بها عليهم. واضح أنهم نسوا أنهم هنا لأجل يومي أنا. كانوا يحيطون بي قبل قليلٍ من كل جانبٍ حتى لم أُطِق تحمُّل تجمهرهم، يأتون مُحمَّلين بكلمات الإطراء والأمنيات، مثل عشيرةٍ تلتف حول ملكتها. أما الآن فلا يبالون بي البتة. أظن أنهم رأوا اليوم فرصةً للانغماس في اللذة، للعودة إلى الحرية التي تمتعوا بها أيام الجامعة وبداية عشرينياتهم، قبل أن يثقلهم أولادهم أو وظائفهم المتطلبة. الليلة هي ليلتهم، يوصلون ما انقطع من أخبارٍ مع أصحابهم، ويغازلون أولئك الذين أفلتوا من قبضتهم في الماضي. لي الحق أن أغضب، لكن لن يكون لهذا أي منفعة. تشغلني أمور أهم حاليًّا: ويل.

كلما يطول بحثي عنه يستفحل إحساسي بالقلق.

يتحدث أحد بغتةً: «أنا رأيته (إنها ابنة خالتي الصغيرة بيث) كان مع أوليڤيا... ثملتْ بعض الشيء».

تقفز قريبة أخرى لي في الحديث: «أوه، نعم. أوليڤيا! خرجا من المدخل الرئيسيِّ. قال إن الهواء سينعشها».

أوليڤيا، فضيحة أخرى. لكن حين أخرج لا أرى أي أثرٍ لهما. تنتشر عند مدخل الصيوان مجموعة من المدخنين، أصدقاء من الجامعة. يلتفتون ناحيتي ويقولون ما تفرضه اللباقة عليهم: يا لجمالي، ويا لسحر المراسم، أقاطعهم: «هل رأيتم أوليڤيا، أو ويل؟».

يشيرون إلى جانب الصيوان، ناحية البحر. لكن لماذا بحق السماء قد يذهب ويل وأوليڤيا إلى هناك؟ أظلمت الدنيا، ونور القمر خافت فلا أرى شيئًا. تصرصر الرياح حول الصيوان وحولي حين أحاول السير في جعجعتها. أتذكّر حادث غرقها الوشيك، وأشعر بمعدتي تنقبض جزعًا. محال أن تقدم أوليڤيا على فعل حماقةٍ ما، صحيح؟

ألمح طيفًا باهتًا لهما على النور المتسلل من الصيوان، قرب البحر. لكن غريزة أعجز عن تسميتها منعتني عن ندائهما. إنهما متلاصقان. يظهران في الظلمة كأنهما جسد واحد ممتزج. وللحظةٍ مارقة مرعبة أظنهما.... لكن لا، مؤكد أنهما يتبادلان الحديث. لكنه ليس مشهدًا منطقيًّا. لستُ واثقة أنني رأيتُ شقيقتي وويل يتحدثان من قبل، باستثناء محادثات اللباقة فحسب. أعني أنهما لا يعرفان بعضهما بعضًا بالمرة. التقيا مرةً واحدةً بالضبط. مع ذلك يبدو أن في جعبتهما أحاديث كثيرة. ما الذي قد يتحدثان عنه بحق السماء؟ ولمَ قطعا كل هذه الطريق إلى هنا، بعيدًا عن أنظار الضيوف؟

أسير -في هدوء اللصوص وخفتهم- في قلب السواد المتنامي.

أوليڤيا

وصيفة العروس

- سأخبرها عنا (إنه لجهد أن أنطق بهذه الكلمات، لكني عاقدة العزم) إنني ســـ... سأحكي لها عما حدث بيننا (أتذكّر ما قالته هانا سابقًا) دائمًا الخيار الأفضل هو إفشاء كل شيءٍ للعلن. حتى إن بدا مخزيًا، حتى إن شعرت أن الناس سوف ينهشون لحمك بسببه.

يطبق بيده على فمي. تصعقني الصدمة، المفاجأة. أشم رائحة عطره، وأتذكّر حين كنتُ أشم هذه الرائحة ملتصقةً بجلدي. كنت أشمها رائحةً شهيةً، من عالم الكبار. لكنها تخنق نفسي الآن.

يقول: «أوه لا، يا أوليڤيا (صوته حنون، رقيق، وهو ما يضاعف سوءه) في الواقع لا أظنك ستقولين لها أي شيء. وتعرفين السبب؟ لن تخبريها لأنكِ ستفسدين سعادة شقيقتك. هذا يوم زفافها يا مغفّلة. كما أن چولز عزيزة عليك للغاية، لن ترضي هذا لها. وما الغاية؟ ليس وكأن شيئًا سيحدث بيننا الآن».

نسمع ثرثرةً تأتي من الناحية الأخرى من الصيوان، ولربما هو قلق أن أحدًا سيأتي ويرانا على هذه الشاكلة إذ إنه سحب يده من على فمي.

أقول: «أعرف هذا! ليس هذا ما أقصده... ليس هذا ما أريده».

يرفع حاجبيه كأنه متردد أن يصدقني: «حسنًا. ما الذي تريدينه يا أوليڤيا؟».

أقول في نفسي: أن أنفض عني إحساسي المريع. أن أزيح عن صدري السر الذي يثقلني. لكن لا أجيبه. لذا يسترسل حديثه: «إنني أفهم. تريدين أن

تهاجميني. سأكون أول من يقر بأنني لم أتصرف بحكمةٍ في كل ما حدث. كان عليَّ أن أنهي علاقتي بكِ بطريقةٍ ملائمة. بل ربما كان عليَّ أن أكون واضحًا أكثر. لم أقصد إيذاء أي أحدٍ قط. وهل لي أن أخبرك بما أفكر فيه بصراحة يا أوليڤيا؟».

يبدو أنه ينتظر ردًا لذا أومئ.

- أظنك لو كنتِ ستخبرينها فعلًا، فما كنت لتنتظري إلى الآن.

أهز رأسي. لكنه على حق. كان بين يدي وقت طويل كي أفصح لها بالحقيقة. استلقيتُ على الفراش مرات كثيرة في الساعات الأولى من الصباح أفكر في كيف أختلي بچولز، كيف أقترح أن نتناول الغداء معًا أو أن نشرب القهوة. لكن لم أُقدِم على فعلها قط. خفتُ. بل رحتُ أتهرب منها، مثلما تهربت من الذهاب لقياس ثوب الزفاف الذي جلبته لي. كان الاختباء أسهل، أن أتظاهر بأن شيئًا لم يكن.

فكرتُ كثيرًا فيما كنت سأفعل في موقفٍ كهذا إن كنت مكان چولز، أو مكان أمي. كيف كنت سأحدِث جلبةً هائلة، ربما في أول مرةٍ أراه فيها، أن أحرجه أمام الجميع في حفل الخطبة. لكنني لستُ في صلابتهما، لست في ثقتهما بنفسيهما.

لذا حاولتُ في رسالة. طبعتُها وألقيتُها في صندوق چولز البريديِّ.

«ويل سلاتر ليس الرجل الذي يدّعيه.

إنه خائن وكاذب. لا تتزوجيه».

ظننتُ أن رسالةً كهذه ستحثّها على مساءلته على الأقل. تحثّها على التفكير. أردتُ أن أزرع أي بذرةٍ ضئيلةٍ من الشك في عقلها. كانت محاولةً مثيرةً للشفقة، أرى هذا بوضوحٍ الآن. محتمل أن چولز لم تفهمها أساسًا. ربما رآها ويل قبلها، أو غُمرتْ بكمٍ هائلٍ من النشرات وضاعت بينها. وحتى إن قرأتها، كان عليَّ أن أعرف أن چولز ليست من الناس الذين قد تزعجهم رسالة. چولز ليست قلقة.

يقول ويل: «أنت لا تريدين تدمير حياة شقيقتك، صحيح؟ لن تفعلي هذا بها».

هذا صحيح. رغم أنني أحيانًا أشعر أنني أكرهها، لكنني أحبها أكثر. ستظل شقيقتي الكبرى، وسيفسد هذا علاقتنا لأبد الآبدين.

إنه يروي قصته بثقةٍ وطيدة. أما روايتي أنا، فإنها تتداعى. وأظنه على حقٍ حين قال إنه لم يكذب، حقًا. لقد أخفى الحقيقة فحسب. لن أقدر على كبح جماح غضبي وقتًا أطول، كبح قوته المحتدمة. أشعر بالغضب يتسلل مني، مُخلِّفًا مكانه شيئًا أسوأ وأقبح، نوعًا من الخواء.

ثم، بغتةً، تخطر چولز ببالي، الابتسامة التي رُسمتْ على وجهها وهي تقف جواره في الكنيسة، وليس عندها أدنى فكرة عن حقيقته. لم تدع أحدًا يخدعها من قبل... لكنه خدعها. أشعر بالغضب لها بطريقةٍ عجزت عن الشعور بها لنفسي.

أخبره: «لقد احتفظتُ برسائلك. في وسعي أن أطلعها عليها».

إنها القشة الأخيرة التي أمسكها عليه، إنها سلاحي الأخير. أرفع هاتفي أمامه تأكيدًا لما قلتُ. كان عليَّ أن أتوقع ما سيحدث. لكنه كان يتحدث بلطفٍ ورِقة، لذا لم أتوقع شيئًا. انقضتْ ذراعاه عليَّ. يقبض على رسغي ويرفعه في الهواء. ثم يقبض على رسغي الثاني. وفي حركة واحدة سريعة ينتزع هاتفي مني. وحتى قبل أن أفهم ما يفعله، يكون قد قذفه بعيدًا، بعيدًا للغاية عنا، في المياه القاتمة، ليصدر صوت قرقعةٍ خافتة حين يسقط.

- سيكون لها نسخة احتياطية (لستُ أعرف كيف سأصل لها).

يجيب هازئًا: «أوه فعلًا؟ تريدين العبث بحياة الناس يا أوليڤيا؟ لأنني أظن أنه يجدر بك معرفة أن لدي بعض الصور، على هاتفي...».

أقول: «توقف!». فكرة أن تراني چولز -أن يراني أي مخلوق- على هذه الشاكلة...

لم أشعر بالارتياح حين التقط الصور. لكنه كان بارعًا للغاية حين طلب مني هذا، حين غازلني قائلًا إنني مثيرة حين أمتعه، وكيف ستثيره هذه الصور. قلقتُ وقتها إن رفضتُ فسيراني مجرد فتاةٍ متزمتة، طفلة. ولم يظهر هو فيها بالمرة، لا وجهه ولا صوته. قد يدّعي أنني أرسلتها له. أنني التقطتها بنفسي. قد ينكر الأمر كله من الأساس.

وجهه شديد القرب من وجهي الآن. للحظةٍ مارقة رعناء أحسبه سيقبّلني. ورغم كراهيتي لنفسي على هذا، فإن جزءًا صغيرًا من نفسي يرغب في هذه القُبلة. جزء مني يريده. ويثير هذا غثياني.

لا يزال يحكم قبضته على رسغي الآخر. يؤلمني. أتأوه وأحاول انتزاعه منه إلا أنه يحكم قبضته أكثر، أصابعه تنخر في لحمي. إنه قويٌّ، أقوى مني بكثير. أدركتُ هذا صباحًا حين حملني وأخرجني من المياه، يدّعي أنه بطل مغوار أمام حشد الضيوف. أفكر في الموسى الصغير، لكنه في حقيبتي الخرزية، ملقاة في مكان ما في الصيوان.

يجرني ويل للأمام فتتعثر قدمي. ينخلع حذائي. الآن أدرك أن حافة الجرف ليست ببعيدةٍ عنا. يسحبني نحوها. أرى المياه المنبسطة كلها، سوداء براقة أسفل نور القمر. لكن.... لا، لن يفعل، صحيح؟

الآن

ليلة الزفاف

حدقوا إلى التاج المعقوف الذي يحمله فيمي. بدا في غير محله حيثما عثروا عليه -ملقى على الأرض السوداء في معمعة العاصفة- حد أنهم استغرقوا برهةً من الوقت ليتذكروا أين رأوه من قبل.

يقول آنجس: «إنه تاج چولز».

يقول فيمي: «اللعنة! طبعًا إنه هو».

الكل يتساءل في صمت، أي قوةٍ عنيفةٍ تعرض لها لتشوه معدنه بوحشيةٍ هكذا؟

سأل آنجس: «هل رأيتم وجهها؟ چولز؟ قبل أن تقطع الكعكة؟ شعرتُ أنها بدت... غاضبةً بشدة. أو ربما مرعوبة».

سأل فيمي: «هل رآها أحدكم في الصيوان؟ بعدما عادت الكهرباء؟».

قال آنجس مذعورًا: «لكنك حتمًا لا تعتقد... أنت لا تعني أنه ربما مكروه أصابها؟».

- اللعنة (يزفر دنكن زفيرًا مستهجنًا).

يجيب فيمي: «لستُ أقصد هذا بالضبط. إنني أقول فحسب... هل يتذكّر أحد أنه رآها؟».

يمر صمت طويل.

- لا أتذكر...

- لا، يا دنكن. ولا أنا أتذكّر.

تتفحص أعينهم الظلمة باجتهادٍ لتلمح أي حركة، آذانهم منتصبة لأي صوت، أنفاسهم عالقة في حلوقهم.

- يا إلهي. انظروا، هناك شيء ما آخر هناك.

ينحني آنجس ليمسك به. الكل يلحظ ارتعاش يده حين يرفعها في وجه النور، لكن لا يسخر من خوفه أحد هذه المرة، الكل خائف الآن.

إنه حذاء. حذاء مدبب المقدمة، حريري، رمادي اللون، مرصع بالجواهر.

قبيل عدة ساعات

هانا

المُرافِقة

لويس راقص بارع. تستفز الفرقة الحضور لتدخلهم في حالةٍ من الجنون المستعر، تجبرنا الأنغام على أن نتلاصق ببعضنا بعضًا بينما تتمايل أجسادنا. وأجدني أفكر في الوحدة والإنهاك اللذين شعرتُ بهما طيلة اليوم. تقع المسؤولية على كاهل تشارلي وحده. لكن لا أرغب في التفكير فيه الآن. إنني غاضبة منه، بل حزينة. كذلك متى آخر مرةٍ تركتُ نفسي تنجرف مع الموسيقى... متى آخر مرةٍ رقصتُ فيها من قلبي؟ متى آخر مرةٍ شعرتُ أنني مرغوبة هكذا، مثيرة هكذا؟ أشعر كأنني فقدت هذا الجزء مني على قارعة طريقٍ ما. لكني سوف أستمتع باستعادته خلال هذه السويعات. أضع يدي فوق رأسي، وأؤرجح شعري، أشعر به يتمايل على كتفيَّ العاريين. أشعر بعينَي لويس تراقبانني. أجاري إيقاع الموسيقى بفخذيَّ. كنتُ دومًا راقصة بارعة خلال تلك السنوات التي قضيتُها في ملاهي مانشستر أيام مراهقتي، وأنا أفقد صوابي على أحدث الأغاني التي تصلنا من جزيرة إبيثا. نسيتُ كيف يشعرني التناغم مع جسدي، كيف يثيرني. وأرى روعتي منعكسةً في الاستحسان المرتسم على وجه لويس، في عينيه اللتين تبتعدان عن عيني فقط لتلتهما جسدي وأنا أرقص.

يهدأ إيقاع الموسيقى. يسحبني لويس أقرب إليه. يداه على خصري وأشعر بنبض قلبه عبر قميصه، بحرارة صدره أسفل القماش. في إمكاني شم رائحة

جسده. شفتاه على بُعد سنتيمترات عن شفتيَّ. ثم أعي ما يجري، أدرك أن أجسادنا تتلامس، أنه مستثار، يضغطُ على جسدي.

أبتعد لترك مساحةٍ بيننا. أريد أن أصفي ذهني. أقول: «ممم تعرف (في صوتي رجفة) سأذهب لأحضر شيئًا أشربه».

يقول: «أكيد. فكرة عظيمة!».

لم أقصد أن يأتي بصحبتي. أشعر بغتةً أنني بحاجةٍ لأكون وحدي، لكن في الوقت نفسه خارت قواي فلا أقدر على شرح ما أريد. لذا نتجه إلى البار معًا.

أسأله بصوتٍ أعلى من ضجيج الموسيقى: «كيف تعرف ويل؟».

- ماذا؟ (يقترب مني ليسمع، أذنه تحتك بشفتيَّ).

أكرر السؤال، وأضيف: «هل كنتَ في تريڤيليان أنت أيضًا؟».

يقول: «أوه. تقصدين المدرسة؟ لا. التحقنا بالجامعة ذاتها في إدنبرة. كنا معًا في فريق الرجبي».

- أهلًا أهلًا، لويس (يمد رجل عند البار ذراعه ويلفه في عناقٍ بينما نحن نقترب) تعالَ واشرب معي، إنني وحدي منذ تركت إيونا لترقص، لن أراها حتى ينفض كل شيء (يلمحني) أوه! أهلًا. إنني سعيد بلقائك. كنت ترافقين صديقنا، صحيح؟ لقد لمحك في الكنيسة، ثم...

يقول لويس خجلًا: «اخرس. لكن، صحيح. رقصنا رقصةً جميلة، أليس كذلك؟».

أقول: «أنا هانا». يخرج صوتي مختنقًا قليلًا.

أتساءل عما أفعله هنا.

يقول صديق لويس: «وأنا جيثرو. إذن يا هانا، ماذا تريدين أن تشربي؟».

- مممم...

أتردد، أظن أن عليَّ أن أتعقل. أسرفتُ في الشرب اليوم. ثم يخطر تشارلي ببالي، وما حكاه عنه وعن چولز. أرغب في استعادة حس الحرية الذي انتابني للحظةٍ شاردةٍ على منصة الرقص. أريد أن أتخلص من صحوي ورصانتي.

أقول وأنا ألتفت إلى الساقي: «جرعة مركزة... (إنه أوين الذي قابلته صباح اليوم) من... ممم، تاكيلا».

لا أريد أن أضيّع لحظةً واحدة.

يرفع جيثرو حاجبيه. «تماااااام. موافق. لويس؟».

يصب أوين ثلاث كؤوسٍ صغيرةٍ من التاكيلا المركّزة. نزدردها جرعةً واحدة. يقول لويس وهو يضرب البار بكأسه وعيناه تدمعان: «يا للهول!». لكن أشعر أن كأسي لم تترك أي تأثيرٍ فيَّ. كأنني شربتُ ماءً.

أقول: «واحدة أخرى».

يقول جيثرو للويس: «إنها تعجبني! لكن أظن أن كبدي يمقتها».

يقول لويس بابتسامةٍ مشرقة: «اللعنة! إنها رائعة للغاية».

يقول جيثرو، مضيقًا عينيه: «لم تكوني في إدنبرة، صحيح؟ بالتأكيد كنتُ سأتذكرك إن كنت هناك. فتاة متقدة مثلك لا تُنسى».

- لا (هذا المكان من جديد، ينتشلني مجرد ذِكره من أي ثمالةٍ أغرق فيها) إنني...

يقول جيثرو: «نحن كنا هناك (يلقي بذراعه حول عنق لويس) أحلى أيام حياتنا. صحيح، يا لو؟ ما زلت أفتقدها. أفتقد لعب الرجبي كذلك. رغم أنني أظن أنه من الأأمن لي أنني لا ألعب». يشير إلى أرنبة أنفه المفلطحة، واضح أنه أصابها كسر قديم.

يقول لويس: «أما أنا فقد فقدتُ سنًّا».

يضحك لويس ويقول: «أتذكّر هذا! (يلتفت ناحيتي) طبعًا ويل لم يُصَب بخدشٍ واحد. كان مهاجمًا، ذاك الوغد. موضع الناعمين، لهذا السبب هو وسيم على نحوٍ بغيض!».

- كان أسوأ عائقٍ نواجهه حين نخرج معًا بعد المباريات. نبذل جهدنا لنبدأ أي حديث مع بضع فتيات، ثم يأتي ويل ويسألهن إن كُنَّ يردن جولةً من الشراب، ودائمًا كُنَّ لا يلتفتن إلا له وحده.

يقول جيثرو مؤكدًا: «نجاحه معهن كان جنونيًّا. ولهذا السبب وحده انضم إلى نادي الريلينج سوسايتي في الجامعة، لأجل الجنس الناعم خصيصى. لكن دعنا لا ننسى أنه لم يكن ماهرًا على الدوام. تتذكر تلك الفتاة التي تملصت منه؟».

يجيب لويس: «أوه، صحيح. نسيتها. تقصد فتاة الشمال؟ العبقرية؟».

يا إلهي الرحيم. أشعر كما لو أن الضباب ينقشع عن حدثٍ شنيع. ولا أقدر سوى على الوقوف مكاني ومراقبته.

يقول جيثرو: «نعم. مثلك (يغمز لي) لكنه اقتص منها حين هجرته. تتذكر يا لويس؟».

يضيق لويس عينيه: «ليس كثيرًا. أقصد... أتذكّر أنها تركت الكلية. صحيح؟ كذلك أتذكّر أنه انزعج بشدةٍ حين أنهت العلاقة. كان يراها دومًا تفوقه ذكاءً وأكدتْ هي ظنه».

تضطرم دوامة الغثيان في معدتي.

يقول جيثرو: «انتشر ذاك المقطع مثل النار في الهشيم، تتذكره؟».

يقول لويس بعينين جاحظتين: «يا للهووول! طبعًا، أتذكّره. كان ذلك.... كان وحشيًّا!».

يقول جيثرو: «ربما وصل إلى پورن هب الآن. في قسم الكلاسيكيات بلا شك. أتساءل عما تفعله في حياتها الآن، وهي تعرف أنه أذيع للعلن هكذا».

يقول لويس بغتةً، وهو ينظر إليَّ: «مهلًا، هل أنتِ بخير؟ يا إلهي... (يضع يده على ذراعي) وجهك شاحب للغاية (يقطب وجهه ويسألني بنبرةٍ متعاطفة) آخر جرعةٍ اتجهت للمكان الخطأ؟».

أدفعه بعيدًا عني، أتعثر بينما أتراجع عنهما. أحتاج أن أخرج من هنا. أصل في الوقت المضبوط قبل أن أهوي على يديَّ وركبتيَّ ثم أتقيأ على الأرض. ينتفض جسدي كله كأنني مصابة بالحمى. أرى رؤيةً ضبابية ضيفين يقفان داخل المدخل ويصدران همهماتٍ تعبّر عن صدمتهما وقرفهما، وأسمع جلجلةً من الضحك. ألحظ بإنهاكٍ أن الطقس هنا غدا جامحًا أشد من ذي قبل، يسحب شعري من على رأسي، ويلسع الدمع في عينيَّ.

أتقيأ ثانيةً. لكن على عكس دوار البحر الذي شعرتُ به على متن الزورق، لا أشعر الآن بتحسن. هذا الغثيان، ضرب بجذوره بعمقٍ في داخلي، السم الذي يبثّه هذا الاكتشاف الجديد. لقد شق طريقه إلى أعمق أعماق قلبي.

الآن

ليلة الزفاف

- من كانت ترتدي هذا؟ (يرفع آنجس الحذاء. يده ترتجف).

يجيب فيمي: «رأيته في مكانٍ ما. لكن لا أستطيع أن أتذكّر أين... كأنني رأيته من وقتٍ بعيد». اليوم هو ما حال سيرياليًّا. كان ما يحدث الآن فحسب -الليل، العاصفة، الذعر- هو كل ما في الوجود.

يسأل آنجس: «هل علينا أن نأخذه معنا؟ ربما... ربما يكون مثل مفتاحٍ يقودنا لما حدث».

يقول فيمي: «لا. علينا أن نتركه مكانه. ما كان علينا أن نلمسه من الأساس. ولا التاج بصراحة».

يسأل آنجس: «لماذا؟».

يجيب دنكن بنزقٍ: «لأنه قد يكون دليلًا يا غبي».

ينادي آنجس بعدما تركوا فردة الحذاء ومضوا قدمًا: «مهلًا... الرياح... لقد توقفت».

إنه على حق. بطريقةٍ ما ودون أن يلاحظوا، هدأت العاصفة. تركتْ في أذيالها سكونًا غريبًا جعلهم يتوقون لعودتها. يشبه هذا الصمت نفسًا مكتومًا، هدوءًا مزيفًا. والآن في وسعهم سماع أنفاسهم المذعورة، مبحوحة ومفرّغة.

كان صعبًا تقدُّمهم وهم يتفحصون كل اتجاه، يحملقون بجزعٍ في الظلمة المخملية بحثًا عن أي تهديد، أي حركة. لكن الآن، وأخيرًا، تبزغ القلعة بعيدًا عن مرمى أبصارهم، تعكس نوافذها بريقًا داكنًا.

- هناك.

توقف فيمي بغتةً. تخشّب بقيتهم خلفه.

يقول: «أظن... أظن أن شيئًا ما هناك».

يصرخ دنكن: «عساه يكون حذاءً لعينًا آخر. أين نحن؟ مع سندريلا؟ هانسل وغريتل؟». لم يقنع أيٌّ منهم بأن محاولته هذه كانت دعابة، جميعهم سمعوا رعشة الخوف في صوته.

يقول فيمي: «لا، ليس حذاءً».

التقطت آذانهم جميعًا الحدة في صوته. نفّرتهم من النظر إلى الشيء، راغبين في الانكماش بعيدًا عنه، أيًّا كانت ماهيته. لكنهم أجبروا أنفسهم على أن يقفوا ويراقبوا المشهد بينما هو يحرّك مصباحه في دائرةٍ بطيئة، الضوء يركض باهتًا على الأرض.

شيءٌ ما هناك. لكنه هذه المرة ليس شيئًا. ينظرون في رعبٍ ينمو وينمو إلى شكلٍ طويلٍ يظهر في الضوء على الأرض. إنه إنسان منبطح مروع المنظر، إنسان بلا ريب. يستلقي قريبًا من القلعة، على حافة الأرض الصلبة التي تستولي على بقيتها سبخة الخث. تتمايل وتهسّ أطراف ملابس الجثة في الرياح، ويبعث هذا، جنبًا إلى جنب مع نورٍ متذبذبٍ ينبعث من مصباح هاتف نقّالٍ جواره، شعورًا مروعًا بحركةٍ ما. كأنها حيلة من قلب الموت، كأنها لعبة من ألعاب خفة اليد.

ليس ممكنًا، من وجهة نظر أصدقاء العريس، أن هذه الملابس تحوي إنسانًا بداخلها فعلًا. إنسانًا كان، قبيل لحظاتٍ، يتكلم ويضحك. إنسانًا كان وسطهم جميعًا، يحتفل معهم بالزفاف.

سابقًا

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

نجحنا، بمساعدة طاقم النُّدُل وأقصى درجات الحذر، أن نرفع الكعكة الهائلة ونضعها في قلب الصيوان. سننادي على الضيوف بعد برهةٍ ليتحلقوا حولها، ليشهدوا قطع القطعة الأولى. كأن تقطيعها طقس مقدس، مثلها مثل المراسم التي أقيمت في الكنيسة صباح اليوم.

يخرج فريدي من مكان إعداد الطعام، يحمل السكين. يقطب وجهه ويسألني بينما ينظر لي من كثب: «هل أنتِ بخير؟».

أجيبه: «إنني بخير (أظن أن توتر اليوم بأكمله يكسو وجهي) منهكة قليلًا».

يومئ فريدي، يفهمني. يقول: «حسنًا. كل شيءٍ على وشك الانتهاء».

يناولني السكين لأضعها جوار الكعكة. إنها تحفة جميلة صُنعت بإتقان، لها نصل طويل ومقبض أنيق من عرق اللؤلؤ. ثم يتابع: «حذِّريهم كي يتأنّوا مع هذه. قد تقطع عنقًا من أخف لمسة. طلبت العروس أن تُسنن على نحوٍ خاص... وهو طلب جنونيٌّ في الواقع، لأن سكينًا كهذه تشبه السكاكين التي تقطع اللحم. ستنساب في الكعكة بسلاسة كأنها زبدة».

چولز

العروس

أوليڤيا مع ويل، يقفان عند حافة الجرف، سمعتُ كل شيء. أو على الأقل ما يكفي لأفهم. نثرت الرياح بعضًا من كلامهما وكان عليَّ أن أقترب منهما حد أنني كنتُ متأكدةً أنهما قد يلتفتان ناحيتي في أي لحظة ويريانني. لكن من الواضح أن كليهما كان غارقًا في تركيزه مع الآخر -في مواجهتهما- فلم يلحظاني. لم أفهم كلمةً واحدةً في البداية.

صرختْ أوليڤيا: «سأخبرها عنا». أولًا، قاومتُ ما فهمتُ. مستحيل، التفكير به مروع...

وقتها خطرت ببالي أوليڤيا حين خرجت من المياه. بدت، للحظةٍ وجيزة، كأنها تحاول أن تقول لي شيئًا ما.

ثم سمعتُ تغير صوته. كيف كتم فمها بيده. كيف سحب ذراعها. صدمني هذا أكثر بكثيرٍ من فحوى كلامه. ها هو ذا، زوجي. إنه رجل لا أعرفه.

حين راقبتهما في الظل، لاحظتُ حسًا من الألفة الجسدية بينهما عبّرت عن الموقف بفصاحةٍ تفوق أي كلمات.

حين رأيتُهما جوار حافة الجرف بدأت صورة دنسة تتشكل أمام عيني.

لم يكن هناك وقت للغضب. اتسع المكان لهول الصدمة الوجودية فحسب، لحظة تداعي كل شيءٍ.

لقد حط من قدري. لقد خدعني. أشعر بالغضب، إنه شعور مريح لعشرتي به، ينمو بداخلي ويطمس في أذياله كل ما عداه.

أخلع تاجي الذهبيَّ، وألقي به أرضًا. أدهسه حتى ينكمش لقطعةٍ ممسوخةٍ من المعدن. هذا ليس كافيًا.

أوليڤيا

وصيفة العروس

- ويل!

إنه صوت چولز. ثم يتبعه نور فاقع يميل إلى الزرقة، مصباح هاتفها. أشعر كأن دائرةً من الضوء سُلطت علينا فجأةً. نتيبس كلانا. يُسقط ويل ذراعي، فورًا، كأن ملمس جلدي يحرقه، ويخطو خطوتين بعيدًا عني.

لم أتمكن من قراءة أي شيءٍ من طريقة لفظها لاسمه. محايدة بالكامل، ربما يشوبها شيءٌ بسيط من نفاد الصبر. أتساءل عن مقدار ما رأته، أو أهم، مقدار ما سمعته. لكن لا أظنها سمعت الكثير، صحيح؟ وإلا... حسنًا، أنا أعرف چولز. لو سمعتْ أي شيءٍ فليس مستبعدًا أن نكون كلانا ممددَين في سفح هذا الجرف الآن.

تسأل چولز: «ما الذي تفعلانه هنا بحق السماء؟ ويل، الجميع يتساءل أين اختفيت. وأنت يا أوليڤيا... سمعت أحدًا يقول إنك سقطت؟». تقترب. أظن أن شيئًا اختلف بها. تاجها الذهبي غير موجود، نعم، هذا هو. لكن ربما هناك تغير آخر، شيء لا أقدر على تحديده بالضبط.

يقول ويل، مستردًا كل سحره: «صحيح. ظننتُ أنه من الأفضل أن آخذها لينعشها الهواء».

تقول چولز: «حسنًا، يا للطفك. لكن أظن أن علينا العودة الآن. حان وقت تقطيع الكعكة».

الآن

ليلة الزفاف

يقترب أصحاب العريس من الجثة بحذر.

تستلقي على حاشية الأرض الجافة، عند بداية سبخة الخث. شرعت السبخة بالفعل في التحلق حول أطراف الجثة، تأخذها في كنفها بمثابرة، بمحبة، حتى إذا دبت الحياة بمعجزةٍ في الميت فجأةً، وحاول أن يتحرك أو ينهض من مكانه، فربما يجد صعوبةً أكثر مما توقع. ربما يصارعها ليحرر يده أو قدمه. قد يجد نفسه ملتصقًا ومتشبثًا في أديم الأرض الأسود الرطب.

ابتلعتْ هذه الأرض جثثًا فيما مضى، ابتلعتها كاملةً كما هي، كأنها تتاءبت والتقمتها إلى أعماقها. لكن حدث هذا منذ زمنٍ بعيد. وظلتْ جوعى لوقتٍ طويل.

بينما اقتربوا ببطء شديد من الجسد الممدد أرضًا، تكشفت لهم أجزاء متباينة في غمرة الضوء. لمحوا ساقين منفرجتين، ورأسًا مائلًا، وعينين خاويتين زجاجيتين، تلمعان على نور المصباح. رأوا فمًا فاغرًا، لسانه بارز ومتورم بفظاظةٍ. وتعلو صدره بقعة من الدم الأحمر القاني.

يقول فيمي: «أوه اللعنة... اللعنة... إنه ويل».

لا يبدو العريس وسيمًا للمرة الأولى، قسمات وجهه ملتوية وثابتة على ألمٍ مبرح، عيناه المحدقتان الغائمتان، ولسانه المتدلي من فمه.

يقول أحدهم: «يا للهول...». آنجس على وشك التقيؤ. يسمع نشيج دنكن، دنكن الذي لم يره أيٌّ منهم متأثرًا بأي شيء. ثم يربض على الأرض ويهز

الجثة: «كفى يا صاحبي! هيا. انهض! انهض!». تسفر الحركة عن محاولةٍ مروعةٍ لإحيائه بينما يميل رأسه من جنبٍ إلى جنب.

يصرخ آنجس: «توقف (ينتزع يد دنكن ويمسكها) توقف!».

يحدقون ويحدقون. فيمي على حق. إنه هو. لكن هذا محال. محال! ليس ويل، ليس مرساة شلتهم، المحصّن صعب المنال، المحبوب منهم جميعًا.

انصبّ جُلّ اهتمامهم عليه -صاحبهم القتيل- تائهين في غياهب الصدمة والفجيعة حد أنهم أرخوا حبال الحذر والخشية. لم يلحظ ولا واحد منهم الحركة الواقعة على بُعد بضعة أميالٍ منهم، إنسان آخر، حي يرزق، يسير نحوهم من قلب الظلمة.

سابقًا

ويل

العريس

عُدنا أنا وچولز إلى الصيوان معًا. تركتُ أوليڤيا لتمضي في طريقها وحدها. كأن شيطانًا وسوس إليَّ، للحظةٍ جنونية واحدة هناك، وأنا أعي قربنا الشديد من حافة الجرف. لن يكون الأمر مفاجئةً صادمة، لقد حاولتْ أن تُغرق نفسها صباح اليوم، أو هكذا بدا الأمر بالتأكيد، قبل أن أنقذها. ومع هذه الرياح العاتية -إنها حقًا تعصف الآن- كان ليحدث التباس عظيم.

لكن هذا ليس من شيمي. لستُ قاتلًا. إنني رجل طيب.

لكن كل شيءٍ خرج عن السيطرة. كل شيءٍ ينفلت من يدي. عليَّ أن أعيد ترتيب كل شيء.

بالطبع كان من المستحيل أن أخبر چولز عن أوليڤيا. ليس حين ربطت بينهما ذاك اليوم في منزل والدتها، ليس بعدما قطعنا شوطًا كبيرًا. ما الفائدة من إيلام چولز ألمًا لا داعي له؟ ما حدث مع أوليڤيا، لم يكن ليصبح حقيقيًّا قط، صحيح؟ كانت نزوةً عابرة. معها بُني كل شيءٍ على الكذب، كذباتها بمقدار كذباتي. بل في الواقع، كان ادّعاؤها الزائف هو ما حثّني على الاستمرار حين التقينا في ذاك الموعد، محاولتها المستميتة بأن تتظاهر بأنها شخص آخر. ادعاؤها بأنها أكبر سنًا، بأنها محنّكة. ذاك التقلقل. جعلني أتوق لأن أفسدها، تمامًا مثل تلك الفتاة في الجامعة، كانت إحدى الفتيات الخيّرات،

ذكية ومجتهدة، وأتت من مدرسةٍ مزرية وآمنت بأنها ليست بارعةً بما يكفي لتستحق مكانها هناك.

لكن حين التقيتُ چولز في الحفلة، كان ذلك شيئًا مختلفًا بالمرة. كأنه كان قدرًا. رأيتُ في لحظتها مدى روعتنا حين نكون معًا. مدى جمالنا، نعم، أقصد جسمانيًّا، لكن أقصد كذلك جمال تناغمنا. أنا، على شفا مستقبلٍ مهنيٍّ واعدٍ، وهي، امرأة تحلق في الأعالي. كنتُ بحاجةٍ إلى امرأة مكافئة، امرأة واثقة بنفسها وطموحة، امرأة تشبهني. معًا سنكون لا نقهر. ونحن هكذا بالفعل.

ستلتزم أوليڤيا الصمت. عرفتُ هذا من البداية. كنت أعرف أنها تشعر بأن أحدًا لن يصدّقها. إنها كذلك تشكّ في نفسها كثيرًا. عدا أنني أشعر -وربما أنا مرتاب لا أكثر- أنها تغيرت منذ وصولنا إلى هنا. كل شيءٍ تغير على هذه الجزيرة. كأن المكان نفسه هو فاعل التغيير، كأننا جُلبنا إلى هنا لسببٍ بعينه. أدري، هذا سخف. إنه تأثير جمع أناسٍ كثر في بقعةٍ واحدة في نفس الوقت، الماضي والمستقبل. إنني متيقظ وحذر في العادة، لكن عليَّ أن أعترف بأنني لم أفكر بروِيةٍ في هذا، فيما سينتج من جمعهم كلهم معًا هنا. العواقب.

إذن. أوليڤيا: أظنني في مأمنٍ منها. لكن أظن أن عليَّ أن أفعل شيئًا حيال چونو فور عودتي إلى الصيوان. لا يمكنني أن أدعه يتجول في الأرجاء ويثرثر لأي أحد. ربما استهنتُ به. ظننته الخيار الآمن أن أحضره، أن أبقيه بجانبي. لكن چولز دعتْ بيرس دون علمي. صحيح، في الواقع هذا بالضبط ما حاد بكل شيءٍ عن مساره. إن لم تدعه فلم يكن چونو سيعرف عن أمر المسلسل وكنا مضينا كالمعتاد. كان محالًا أن تنجح مشاركته في المسلسل، عليه حتمًا أن يعرف هذا. بل في حقيقة الأمر، إنه يعرف، لقد قالها بنفسه بدقةٍ شديدة. إنه عبءٌ ثقيل. مع الحشيش الذي يدخنه وإسرافه في الشراب وذاكرته اللعينة المزرية. كان سيفقد أعصابه أمام أي صحافيٍّ ويفضح الأمر كله. إن كان في وسعه استيعاب هذا -أي كارثةٍ سيكونها- فإنني صدقًا لا أفهم سبب انزعاجه الشديد من الأمر. لكنه يمثل خطرًا على كل حال. ما يعرفه، ما قد يفصح عنه. إنني شبه واثقٍ أن أحدًا لن يصدقه، قصة عبثية حدثت منذ عشرين عامًا! لكن لن أخاطر. إنه خطر بطرق أخرى أيضًا. لم تكن لدي أدنى فكرةٍ عما

كان سيفعله ونحن في الكهف، لأنني كنتُ معصوب العينين، إنني في غاية السعادة لأن إيفا عثرت علينا وقتها، وإلا من يعرف ما كان قد يحدث.

حسنًا. هذه المرة، لن يستغفلني.

هانا

المُرافِقة

أحاول النظر إلى ما عرفتُه من جيثرو ولويس بعين المنطق. هل هناك احتمال ضئيل أنها صدفة؟ أحاول أن أنصت لصوت العقل. أحاول تخيُّل ما كنت سأقوله لتشارلي في موقفٍ مشابه: أنت ثمل. أفكارك ليست متسقة. نم، وفكر في الصباح من جديد. لكنني أعرف -حتى دون أن أفكر بتعمقٍ فيما عرفت- أعرف فحسب. في وسعي الشعور بالأمر. قطع الأحجية متلائمة بإتقانٍ بديعٍ ينفي أي مجالٍ للصدفة.

نُشر المقطع المصور لأليس بشكلٍ مجهولٍ بالطبع. وكنا غارقين في فجيعتنا في ذاك الوقت ليخطر ببالنا أن نتصل بأصدقائها، الذين كانوا قد يساعدوننا في العثور على الجاني. لكن لاحقًا، قطعتُ عهدًا على نفسي أنه إن سنحتْ لي الفرصة لأقتص من الرجل الذي دمر حياة أختي -الذي أنهى حياتها حرفيًّا- فإنني سأجعله يعاني أضعاف ما عانت. يا إلهي... وفكرة أنني اشتهيت النوم معه. بل حلمت به البارحة، إنها تثير غثياني. لكن تلك إهانة أخرى، أن الفتنة التي أسرتني هي ذاتها التي أودتْ بحياة أليس.

أتذكّر سؤال ويل في بروفة العشاء: «هل التقينا في حفل الخطبة؟ شكلك ليس غريبًا عليَّ. ربما رأيتك في إحدى صور چولز». حين قال إنه تعرّف على شكلي وميّزه، لم يكن قد تعرّف عليَّ أنا. بل رأى فيَّ أليس.

بينما أعود إلى الصيوان، يتأجج أسفل منظري الهادئ غضب مستعر لدرجة تُخيفني. سطع نجم الرجل المسؤول عن موت شقيقتي، شقّ لنفسه مستقبلًا باهرًا من رحم سحره الزائف، من وسامته وامتيازاته بصورةٍ

أساسية. بينما أليس، التي فاقته عبقريةً وصلاحًا بملايين المرات، لم تحظَ قط بفرصتها.

إنني محاطة ببحرٍ من البشر. الجميع من حولي غارق في الثمالة والبلاهة، تصرفاتهم مرتبكة وخرقاء. لا أستطيع الرؤية من بينهم، ولا المرور عبرهم. أشقّ طريقي بينهم، أحيانًا بقوةٍ مفرطةٍ أسمع بعدها استهجانات وأشعر برؤوسٍ تميل لتنظر إليَّ.

يبدو أن النور سينقطع ثانيةً. حتمًا الرياح هي السبب. ترتعش المصابيح بينما أسير وسط الحشد وتنطفئ، ثم تعود من جديد. ثم تنقطع. كنا نرى بوضوحٍ شديد وقت الغروب. أما الآن، فإننا نغرق في ظلمةٍ دامسة دون المصابيح. كذلك أضواء الشموع الصغيرة الموزعة على الطاولات لا تُجدي أي نفعٍ. بل العكس، تثري التشويش بعكسها أشكالًا ضبابية للناس، ظلال تتحرك في هذه الطريق أو تِيْك. يجلجل الناس ويتضاحكون، يرتطمون بي. أشعر كأنني في منزلٍ مسكون. أريد أن أصرخ.

أكور قبضتي وأرخيها بقوةٍ شديدةٍ حد أنني أشعر بأظافري تثقب لحم كفيَّ.

هذه ليست أنا. إنه شعور يشبه المس.

يرجع النور. يهتف الكل.

يتردد صدى تشارلي المضخّم عبر الميكروفون في أرجاء المكان: «أعزائي، حان وقت تقطيع الكعكة». أحدق إلى زوجي الذي يحمل الميكروفون من بين الضيوف المتجمهرين أمامي. لم أشعر قط في حياتي كلها بأنني بعيدة عنه هكذا.

ها هي ذي الكعكة، بيضاء وبراقة ومثالية مع أزهارها وأوراقها المصنوعة من السكر. تقف چولز وويل جوارها، على أهبة الاستعداد. وفي الواقع، إنهما يشبهان التمثالَين المتقنَين الواقفَين على قمة الكعكة، هو مفتول العضلات ووسيم في بذلته الأنيقة، وهي بشعرها الأسود وقوامها الشبيه بالساعة الرملية في ثوبها الأبيض. لم أكن لأقل من قبل إني كرهت شخصًا ما. ليس كراهيةً حقيقيةً. ليس حتى حين سمعتُ عن صديق أليس، عما فعله بها، لأنه لم يكن

بين يدي شخص حقيقيٌّ أسلط كراهيتي عليه. أوه... لكني أكرهه، من كل قلبي. وبينما هو واقف هناك، يوزع ابتسامته أمام مئات الهواتف. أقترب.

تجمهر أقرب الضيوف حولهما. يربت أصحاب ويل الأربعة على ظهره، بابتسامات عريضة... وإني لأتساءل، هل لمح أحدهم جوهره الحقيقيَّ؟ هل يعبؤون؟ ثم ها هو ذا تشارلي، يحاول جاهدًا التظاهر -وأنا على ثقةٍ شديدة بأنه يتظاهر فحسب- بأنه يقظ ومسيطر على كامل قواه العقلية. وعلى مقربةٍ منهم، يقف والدَا چولز وويل، يبتسمون في فخرٍ واعتزاز. ومن ثم أوليڤيا، تبدو بائسةً كحالها طوال اليوم.

أقتربُ خطوةً أقرب. لا أدري ما أفعل بهذا الشعور، تلك الطاقة التي تمور بداخلي، كأن أوردتي حُقنتْ بتيارٍ كهربائيٍّ. حين أبسط كفي أرى أصابعي ترتجف معها. توقّد فزعي وحماسي في آنٍ واحد. أشعر لو أنني جربتُ يدي الآن فسوف أجد بها قوة خارقة جديدة.

تتقدم إيفا. تناول چولز وويل السكين. إنها سكين ضخمة، نصلها طويل وحاد. لها يد من عرق اللؤلؤ، كأن هدفها تنعيم منظرها، إخفاء حدتها، كأنها تقول: هذه سكين لتقطيع كعكات الزفاف، لا لاستخدامٍ أكثر ريبة من ذلك.

يضع ويل يده فوق يد چولز. تبتسم چولز لنا جميعًا. تلمع أسنانها البراقة.

أقترب أكثر. إنني قريبة للغاية من الوصول إلى المقدمة.

يقطعانها، عقدة أصابعها بيضاء حول مقبض السكين، ويده مرتخية على يدها. تنفلق الكعكة كاشفةً عن قلبها الأحمر القاني. تصمد ابتسامة چولز وويلٍ أمام كاميرات الهواتف المحيطة بهما من كل اتجاه. تُترك السكين على الطاولة. النصل يلمع. إنها هنا تمامًا. في متناول اليد.

ثم تنحني چولز وتمسك بقطعةٍ كبيرةٍ من الكعكة. وبينما تبتسم للكاميرات، وبسرعة الضوء، تسحقها على وجه ويل. تبدو ضربةً عنيفةً مثل صفعة، لكمة. يبهت ويل، يتقهقر عنها، يحدق إليها فاغرًا فاه بينما تتساقط شظف من الكعكة وزينتها وتهبط على بذلته الفاخرة. وجه چولز عصيٌّ على القراءة.

تمر لحظة من الصمت المرتعب بينما الجميع في انتظار ما سيحدث. ثم يضع ويل يده على صدره، ويمثّل حركةً صامتةً: «لقد أُصبتُ (يبتسم ويقول) يجدر بي أن أذهب لأنظف هذا».

الكل يهتف ويصرخ ويصيح وينسى غرابة ما رآه حالًا، إنه يعدو كونه جزءًا من المراسم.

لكني ألاحظها، چولز لا تبتسم.

يخرج ويل من الصيوان، من الناحية المفضية إلى القلعة. مضى المدعوون في ثرثرتهم، في ضحكاتهم. ربما أنا الوحيدة التي تلتفت وتراقبه مغادرًا.

تبدأ الفرقة بالعزف والغناء من جديد. يتدفق الجميع إلى منصة الرقص. أقف راسخةً ثابتةً في مكاني.

ثم تنقطع الكهرباء.

أوليڤيا

وصيفة العروس

كان محقًا. لن أخبر چولز الآن، مستحيل.

أفكر كيف حرّف كل ما حدث. كيف جعلني أشعر أنه، وبطريقةٍ ما، كان خطئي أنا. لعب على وتر الخزي الذي أشعرني به، الخزي ذاته الذي شملني منذ اللحظة التي رأيتُه فيها يعبر الباب بصحبة چولز. لقد جعلني أشعر أنني تافهة، مكروهة، قبيحة، غبية، وضيعة. لقد كرّهني في نفسي وأقام حائلًا بيني وبين كل من حولي، حتى عائلتي -بل على الأخص عائلتي- بسبب هذا السر الفظيع.

أفكر كيف أمسك بذراعي، قرب الجرف. أفكر فيما كان قد يحدث إن لم تأتِ چولز. إن رأتنا، كل شيءٍ كان سيختلف إن رأتنا. لكنها لم تر شيئًا، وضاعت فرصتي. لن يصدقني أي أحد إن أخبرتهم الآن. أو ربما يلومونني أنا. لا أقدر على الإقدام على فعلها. لا أتحلى بهذا القدر من الشجاعة.

لكن في وسعي فعل شيءٍ ما.

ثم تنقطع الكهرباء.

چولز

العروس

لم تكن الكعكة كافيةً. كانت حركة بسيطة، مثيرة للشفقة. لقد خذلني خذلانًا لا رجعة فيه. تمامًا مثلما خذلتني عائلتي اللعينة كلها، فردًا فردًا. لقد تغاضيتُ عن احترازي وحرصي، السور الذي أعددتُه بعنايةٍ فائقةٍ، لأجله هو. لقد منحته قلبي هشًا واهنًا.

مرآه يبتسم لي ونحن نقطّع الكعكة، يدانا المضمومتان معًا عليها. يداه اللتان كانتا على جسد أختي أنا، التي... يا إلهي، إن التفكير في الأمر يسحقني. هل كان يفكر فيها، حين ننام معًا؟ هل ظن أني بلهاء ولن أتكهّن بعلاقتهما أبدًا؟ أظنه ظن هكذا. وكان محقًا. إنه جزء تافه آخر مما يجعل الأمر كله مهينًا بشدة.

حسنًا. لقد استهان بي.

الغضب يستعر في جوفي، تسيطر عليَّ الصدمة والأسى. أشعر به يضطرم مزدهرًا خلف أضلعي. إنه لأمر مريح، كيف يمحو كل شعورٍ آخر في طريقه.

ثم تنقطع الكهرباء.



چونو

الإشبين

أقف في الظلام. احتدت العاصفة. أشعر كأن أشياء تظهر وتختفي من قلب الليل. أمد يديَّ لأصارعها وأبعدها. جُلّ ما أرى الآن هو ذاك الوجه من جديد، الوجه نفسه الذي رأيته ليلة البارحة في غرفتي. النظارة الكبيرة، النظرة التي تعلقت في عينيه في المهجع آخر مرة، قبيل أن نأخذه ببضع ساعات. الفتى الذي قتلناه. الذي قتله كلانا. لكنه دمر حياة واحدٍ منا فقط.

أشعر أنني مُشوَّش بعض الشيء. كان پيت رامسي يوزع حباتٍ مثل حلوى النعناع بعد العشاء، وأشعر بتأثيرها ينتشر بداخلي ويسيطر عليَّ أخيرًا.

ويل: ذاك الوغد اللعين. عاد إلى الصيوان وكأن شيئًا لم يكن، كأن شيئًا لم يمسه، وابتسامة بلهاء عريضة على وجهه. كان عليَّ أن أقضي عليه في الكهف آنذاك، حين سنحت لي الفرصة.

أحاول العودة إلى الصيوان. أرى نوره لكن كأنه ينبثق من مكانٍ مختلفٍ كل حينٍ وآخر... مرةً أقرب ومرةً أبعد. أسمع الضوضاء الصادرة منه، رفرفة قماشه، الموسيقى....

ثم تنقطع الكهرباء.

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

تنقطع الكهرباء. يصيح المدعوون.

أصرخ: «لا داعي للقلق. المُولِّد هو السبب، توقف عن العمل ثانيةً بسبب الرياح. سيعود النور في غضون لحظات، فلتبقوا جميعًا هنا».

ويل

العريس

أزيل الكعك عن وجهي في حمام القلعة. لم يكن الوصول إلى هنا ماتعًا بالمرة، حتى مع تتبع أنوار المبنى، لأن الرياح كادت تطيح بي. لكن ربما من الأفضل أن أحظى بمساحة لنفسي، لأصفي ذهني. يا للهول، هناك زينة من الكعك عالقة في شعري، وحتى داخل أنفي. فقدتْ چولز صوابها. كان أمرًا مهينًا. حين رفعتُ نظري بعدها، رأيتُ أبي يراقبني. اكتسى وجهه بالتعبير نفسه، مثل حين أعلن عن أول فريقٍ مشاركٍ في المباراة النهائية ولم يكن اسمي فيه. أو حين لم ألتحق لا بكامبريدج ولا بأكسفورد، أو حين تسلَّمتُ نتائج امتحانات الثانوية وكانت قريبةً من الكمال. يشبه أكثر الاستحسان الممتعض، كأنه يثبت لنفسه أنه على حقٍ فيما ظنه عني من البداية. لم أره قط، قط، ولا مرةً واحدة، ينظر إليَّ بفخر. هذا على الرغم من حقيقة أنني كرستُ حياتي وأنا أحاول التحسين من نفسي، أن أحقق شيئًا، كما كرر على مسامعي كثيرًا. على الرغم من كل شيءٍ حققته.

تعبير چولز حين تناولت قطعة الكعك تلك! يا للهول. هل عرفت شيئًا؟ لكن ما هو؟ ربما هي منزعجة من تصرفات أصدقائي حين حملوني بتلك الطريقة: عرقلة أمسيتنا. إنني واثق أن هذا هو السبب، لا أكثر ولا أقل. أو حتى، إن دعت الحاجة، فإنني واثق بمقدرتي على إقناعها بخلاف ذلك.

لم يكن مفترضًا أن يحدث كل هذا. أشعر أن كل شيءٍ أصبح واهنًا فجأةً. كأن كل ما حولي سوف يتداعى في أي لحظة. عليَّ أن أعود إلى هناك وأحكم سيطرتي على كل شيء. لكن بأي شيءٍ أبدأ؟

أرفع بصري، أنظر إلى انعكاسي على المرآة. حمدًا لله على قسمات هذا الوجه. إنه لا يفصح عن أي شيء البتة، ولا أي شيء عن توتر الساعات التي ولّت. إنه جواز سفري. أنول به الثقة والمحبة. ولهذا السبب أعرف أنني في النهاية، سوف أتغلب على رجلٍ مثل چونو. أمسح كسرةً صغيرةً أخيرةً على طرف فمي، أملّس شعري. أبتسم.

ثم تنقطع الكهرباء.

الآن

ليلة الزفاف

ربضوا جميعًا حول الجثة. يميل فيمي -الجرّاح في حياته العادية، التي تبدو بعيدةً عنه الآن- على الجسد الهامد، يضع وجهه قريبًا من الفم وينصت بحثًا عن أي صوتٍ لأنفاسه. محاولة بلا جدوى في الواقع. حتى إن كان ممكنًا سماع أي صوتٍ عدا صوت الرياح، فإنه واضح وضوح الشمس من العينين الجاحظتين الغائمتين والفم الفاغر والبقعة القرمزية على صدره، أنه مات وشبع موتًا.

انصبَّ كل تركيزهم على الجسد الساكن الطريح أمامهم، لدرجة أن أحدًا منهم لم يلحظ أنهم ليسوا وحدهم، لم يلمح أيٌّ منهم الإنسان الذي ظل متلحفًا بالظلام على حافة حلقتهم. الآن حين تقدم ودخل دائرة نور المشاعل، منبثقًا من السواد البهيم مثل تمثالٍ مروعٍ عتيق: مثل تجسيدٍ للثأر انبعث من العهد القديم. لا يتعرفون على هويته في البداية، فالدماء هي أول ما يرون.

يبدو أنه تحمّم بها. تغطي مقدمة قميصه، ملابسه بأكملها تميل إلى القرمزي أكثر منها بيضاء. يداه مضرّجتان بالدم حتى رسغيه. إنها على عنقه، وانسكبتْ على فكه، كأنه كان يشربها.

يحدقون إليه في رعبٍ صامت.

ينشج نشجيًا مكتومًا. يرفع يده، الآن يلمحون وميض المعدن. لذا فإن ثاني ما يرون هو السكين. إن حظوا بوقتٍ للتفكير، لكان لهم أن يميزوه، النصل. إنه نصل طويل، أنيق ذو يدٍ من عرق اللؤلؤ، كان أحدث ظهور له حين شطرَ كعكة زفاف.

فيمي هو أول من استجمع صوته، يقول بتروٍّ وحذر: «چونو... چونو، انتهى كل شيءٍ يا صاحبي. ضع السكين أرضًا».

سابقًا

ويل

العريس

اللعنة. انقطعت الكهرباء ثانيةً. أفتش في جيوبي بحثًا عن هاتفي، أضيء مصباحه حين أخرج إلى سواد الليل. تزأر العاصفة. عليَّ أن أُميل رأسي وأندفع عبرها لأتقدم خطوةً واحدة. يا إلهي، أكره هذا حين تفسد الرياح شعري. ليس هذا اعترافًا قد اعترفه على الملأ، لن يكون أنسب دعاية لمسلسل «النجاة من الليل».

حين أرفع بصري لأتحقق من الاتجاه الذي أسلكه، أعي أن هناك شخصًا قادمًا نحوي، لا أرى إلا نور مصباحه. إنه حتمًا يراني بوضوحٍ بينما هو خفيٌّ عن عيني.

أسأل: «من هناك؟». ثم أتمكن من تمييز الشكل القادم نحوي.

أتمكن من تمييزها.

أقول في اطمئنان: «أوه.. إنه أنت».

تقول إيفا: «مرحبًا يا ويل. هل أزلت كل الكعك العالق؟».

– نعم، انتهيتُ حالًا. ما الذي حدث؟

تقول: «انقطعت الكهرباء مرةً ثانية. أعتذر عن هذا. الطقس هو السبب. لم يذكروا في نشرة الطقس أنه سيكون سيئًا لهذا الحد أبدًا. يعجز مُولِّد الكهرباء

عن مجاراته. كان مفترضًا به أن يعمل الآن... كنتُ في طريقي لأرى ما حدث. في الواقع... هل لك أن تساعدني؟».

حقًا لا أفضّل. عليَّ أن أعود، هناك مشكلات عليَّ أن أحلها: زوجة أسترضيها، ووصيفة وإشبين عليَّ أن... أتعامل معهما، لكن لا أظن أنني سأقدر على فعل أيٍّ من هذا في الظلام. لذا لا بأس في تقديم يد العون. أقول بشهامة: «بالطبع. كما قلتُ صباح اليوم، إنني في الخدمة دومًا».

- شكرًا لكَ. هذا لطف منك. إنه قريب من هنا.

تقودني عبر الطريق، وننعطف خلف القلعة. إننا في مأمنٍ من الريح هنا. ثم -يحدث شيء غريب- تلتفت نحوي وتقف رغم أننا لم نصل إلى شيءٍ يشبه مُولِّدًا للكهرباء. تسلط الضوء على عيني. أرفع يدي. أقول: «إنه ساطع بعض الشيء (أضحك) أشعر كأنني في تحقيق».

تقول: «أوه. فعلًا؟».

لكنها لا تخفض المصباح.

أقول منزعجًا لكن أحاول أن أظل متحضرًا: «من فضلك يا إيفا... الضوء مسلط على عيني. لا أرى أي شيء».

تقول: «وقتنا ضيق، لذا سيكون هذا سريعًا».

- ماذا؟

للحظةٍ غريبة عجيبة أشعر أنها تراودني عن نفسي. إنها جميلة بالتأكيد. لاحظتُ جمالها هذا الصباح، في الصيوان. خاصةً أنها تحاول أن تغطيه... دائمًا راق لي هذا، كما قلت، ذاك الجهل الغافل في المرأة، ذاك التقلقل. ما الذي تفعله بصحبة زوجٍ سمين وأبله مثل فريدي؟ لا أحد يعلم. مع ذلك، فإنني مشغول إلى حدٍ ما حاليًّا.

تقول: «أردتُ أن أخبركَ شيئًا. ربما كان عليَّ أن أخبرك آنذاك حين ذكرته هذا الصباح. لكن ظننت أنه لن يكون من الحكمة قوله وقتها. الطحالب التي وجدتموها على الفراش البارحة. كنت أنا الفاعلة».

- الطحالب؟

أحدق إلى النور، أحاول استيعاب ما تتحدث عنه بحق السماء. ثم أقول: «لا، لا. إنها حتمًا فعلة أحد أصدقائي، لأنها كانت...».

- ما اعتدتم فعله في مدرسة تريڤيليان... للفتيان الأصغر سنًا، نعم. أدري. أدري كل شيءٍ عن تريڤيليان. ربما أكثر بقليلٍ مما أود أن أعرف في الواقع.

- عن... لكن لا أفهم.

نبض قلبي يتسارع في صدري، رغم أنني لا أعرف السبب بالضبط.

تقول: «بحثتُ عنك طويلًا على الإنترنت. ويليام سلاتر... إنه اسم شائع كثيرًا. بعدها أتى المسلسل. فوجدناك. تعرّف فريدي عليك فورًا. لم تغير طريقة اللعبة حتى، صحيح؟ شاهدنا المسلسل حلقةً حلقة».

- ما....؟

تسترسل: «إذن، لهذا السبب حاولتُ جاهدةً أن أحضرك إلى هنا. لهذا السبب عرضتُ خصمًا سخيًّا لدرجة سخيفة لأظهر في مجلة زوجتك. توقعتُ أنها ستحقق في الأمر قليلًا أكثر مما فعلت. لكن أظن أنها تلائمك بشدة لهذا السبب تحديدًا. إنها غارقة في شعور بالاستحقاق حد أنها تصدّق أن العالم مدين لها بشيءٍ ما. بالطبع ظننتْ أنه مستحيل أن نربح شيئًا منه. لكنني ها أنا ذي أربح، لذا أقمناه».

- وما هو ذا؟

بدأتُ أبتعد خطواتٍ عنها. فجأةً ثارت ريبتي. لكن حطتْ قدمي اليمنى على بقعةٍ من الأرض تنخسف تحتها. تغوص قدمي. إننا على حافة السبخة. كأنها خططت ليسير الأمر على هذا النحو.

تقول: «أردتُ أن أتحدث معك. هذا كل ما في الأمر. ولم أستطع التفكير في طريقةٍ أفضل من هذه».

- ماذا... أفضل من هذه؟ وفي خضم العاصفة، في الظلام الدامس؟

- في الواقع أظنها الطريقة المثلى لفعلها. ويل، هل تتذكّر فتى اسمه دارسي؟ في تريڤيليان؟

- دارسي؟ (النور ساطع على وجهي لدرجة أنني أعجز عن التفكير بوضوح. أقول) لا. لا أتذكّر بالضبط. دارسي؟ هل هذا اسم فتى؟
- اسمه الأخير مالون؟ أظنكم لا تستخدمون سوى الأسماء الأخيرة هناك.

في الواقع، أحاول أن أتذكّر، لكن لا يُذكّرني بأي شيء. لكن مستحيل. حتمًا ليس...

تقول: «لكنك حتمًا ستتذكّره باسم الفتى المتوحد. مالون... المتوحد. كان هذا الاسم الذي ناديتَه به، صحيح؟ ما زلتُ أحتفظ بكل رسائله. إنها بحوزتي هنا على الجزيرة. قرأتها هذا الصباح فحسب. كتب لي عنك. عنك وعن چونثان بريجز. «أصدقاؤه». كنتُ أدري أن هناك شيئًا ليس صائبًا في هذه الصداقة، ولم أفعل أي شيء. إنه الثقل الذي أحمله وحدي، هذا ما يقصم ظهري. قبره هناك. حيثما كنا جميعًا في أوج سعادتنا. قبره خاوٍ بالطبع. لم يجد أبواي أي شيءٍ يضعانه فيه، لكنك ستعرف السبب».

- لستُ... لستُ أفهم.

ثم تذكّرتُ صورة... صورة فتاةٍ مراهقةٍ تقف على شاطئ أبيض الرمال. الصورة التي كنتُ وچونو نثير استفزازه بها. الشقيقة المثيرة. لكن، هذا محال...

تقول: «وقتي ضيق ولن يتسع لشرح كل شيء. أتمنى لو كنت شرحتُ. أتمنى لو أننا حظينا بالوقت لنتحدث. كل ما أردته فعلًا هو أن أتكلم، أن أعرف سبب ما فعلت. لهذا السبب كنتُ مصممةً على أن آتي بك إلى هنا، أن أقيم زفافك على هذه الجزيرة. هناك تفاصيل كثيرة أود أن أسألك عنها. هل كان مرتعبًا في النهاية؟ هل حاولت إنقاذه؟ يقول فريدي إنك حين أتيت إلى المهجع كنت متحمسًا، كلاكما كان. كأن الأمر كله لم يتعدَ كونه مزحةً كبيرة».

- فريدي؟
- نعم، فريدي. أو... حسبما أظن، أطلقتم عليه اسم: الضرطة السمينة. كان الفتى الوحيد المستيقظ في المهجع تلك الليلة. ظن أنك قادم إليه هو، ليلعب لعبته من «النجاة». لذا اختبأ، وتظاهر بأنه نائم، ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ حين حملت دارسي. لم يسامح نفسه قط. حاولتُ كثيرًا

أن أشرح أنه لا ذنب له فيما حدث. كنتما أنتما من أخذاه. لكن لعبت أنت الجزء الأكبر. على الأقل يشعر صديقك چونو بالندم على ما فعل.

أقول بحذرٍ قدر المستطاع: «إيفا... إنني لا أفهم. لا أدري... ما الذي تتحدثين عنه؟».

- عدا... ربما لستُ بحاجةٍ لأن أسأل كل تلك الأسئلة الآن. أعرف الإجابة. حين أتيت لأبحث عنك سابقًا، في الكهف، سمعتُ كل الإجابات التي سعيت لها. لكن الآن بالطبع لدي أسئلة أخرى. مثلًا: لمَ فعلت ما فعلت؟ بسبب الامتحانات التي سرقتها؟ هل تراه دافعًا كافيًا لقتل أي أحد، حقًا؟ كيلا تكشف فعلتك؟

- آسف يا إيفا، لكن عليَّ فعلًا أن أعود إلى الصيوان الآن.

تقول: «لا».

أضحك: «ما الذي تقصدينه بلا؟ (أستعين بأشد نبرات صوتي سحرًا) اسمعي. إنك لا تمتلكين دليلًا على أيٍّ مما تقولين. لأنه ليس هناك دليل من الأساس. إنني حزين بشدةٍ لخسارتك. لستُ أعرف ما تفكرين في فعله، لكن أيًّا ما كان، فلن يُجدي نفعًا. سينتهي الأمر بأن تكون كلمتي مقابل كلمتك. وأظننا نعرف من فينا ستُصدَّق كلمته. ووفقًا لكل السجلات والوثائق، فقد كان حادثًا مأسويًّا فحسب».

تقول: «كنتُ أعرف أنك ستقول هذا. أعرف أنك لن تُقِر بفعلتك. وأعرف أنك لستَ نادمًا عليها. سمعت كل ما قلته في الكهف. لقد سلبت مني كل شيء تلك الليلة. في الواقع، أمي ماتت تلك الليلة أيضًا. وفقدنا أبي إثر نوبة قلبية بعدها بسنواتٍ قليلة، بسبب أسى فجيعته بكل تأكيد».

أذكّر نفسي: لستُ خائفًا منها. ليس معها دليل على أي شيء. عندي مشكلات أكبر منها لأنشغل بها الآن، مشكلات ذات عواقب حقيقية. إنها ليست سوى امرأة حقود مشوشة....

ثم ألمح شيئًا ما. بريق المعدن، هذا هو. في يدها الأخرى، يدها التي لا تحمل المصباح.

الآن

چونو

الإشبين

فشلتُ في إنقاذه.

لم يكن عليَّ أن أسحب السكين، أعي هذا الآن. لقد سرَّعَ النزيف.

حاولتُ أن أشرح لهم، حين عثروا عليَّ في الظلام. فيمي وآنجس ودنكن. لكنهم لم ينصتوا لي. كان معهم تلك المشاعل الحارقة، رفعوها أمام وجهي كأنها أسلحة، كأنني كنتُ حيوانًا متوحشًا. كانوا يصرخون في وجهي ويصيحون، أن أترك السكين، أن أضعه أرضًا وكانت تدور في رأسي ضوضاء صاخبة. لم أستطع أن أنطق الكلمات. لذا لم أستطع أن أشرح لهم أنه لم يكن أنا الفاعل. لم أستطع أن أشرح.

لم أستطع أن أشرح كيف تلاشى فجأةً تأثير أيٍّ كان الذي أعطانيه پيت رامسي، هناك في العاصفة.

كيف انقطعت الكهرباء؟

كيف عثرتُ على ويل، هنا في الظلام؟ كيف انحنيتُ عليه ورأيتُ السكين بارزةً من صدره كأن ذراعًا ثالثة نمت له، مغروسة بعمقٍ لدرجة أنني لم أرَ نصلها بالمرة؟ كيف أدركتُ وقتها، رغم كل شيء، أنني ما زلتُ أحبه؟ كيف عانقته وبكيت؟

حاوطني ثلاثتهم. قيدوني مثل حيوانٍ حتى وصلت الشرطة على قواربها. كنتُ أرى خوفهم مني في عيونهم. كنت أرى تأكدهم بأنني لم أكن واحدًا منهم قط.

وصلت الشرطة. صفّدوا يديَّ. اعتقلوني. سيأخذونني إلى البر. سأُحاكَم بتهمة قتل أعز أصدقائي.

صحيح أنني فكرتُ في الأمر، في الكهف. أعني أن أقتل ويل، أن أمسك بصخرةٍ قريبةٍ مني. وحتمًا أتت لحظة فكرتُ، وعزمت حقًا، أن أفعلها. حين شعرتُ أنه الخيار الأسهل. الأفضل.

لكني لم أقتله. أنا واثق من هذا... رغم أن كل شيءٍ بدا مُشوَّشًا قليلًا حين تجرعتُ تلك الحبّة من بيت رامسي، هناك خيط أو اثنان مفقودان. أقصد... لم أكن في الخيمة حتى. كيف أمكنني أن آتي بالسكين؟ لكن يبدو أن الشرطة لا ترى هذه التفاصيل مشكلةً.

لستُ أرى نفسي قاتلًا، تمامًا.

عدا أنني كذلك فعلًا، صحيح؟ ذاك الولد، كل تلك السنوات التي ولّت. أنا من ربطته بنفسي. حثّني ويل لكنني كنتُ من فعلها. وهي ليست حجةً تصمد أمام أي شيء، صحيح، أن يقول المرء إنه كان شديد البلاهة فلم يعِ العواقب؟

أفكر أحيانًا فيما رأيتُه البارحة قبل الزفاف. ذاك الشيء، ذاك الجسم، رابض في غرفتي. بالتأكيد لا فائدة من أن أخبر أي أحدٍ عنه. تخيّل ما سأقول: «أوه، لم أكُن أنا الفاعل، بل أظن أن من طعن ويل حتى الموت بسكين هائلة كان شبح ولدٍ قتلناه. نعم، نعم... أعتقد أنني رأيته في غرفتي عشية الزفاف». لا يبدو كلامًا مقنعًا، صحيح؟ على أي حالٍ فإن ما رأيته على الأرجح كان صورةً نسجها عقلي. هذا منطقيٌّ بعض الشيء، إذ إن الفتى ظل معششًا في رأسي لسنواتٍ وسنوات.

تخطر ببالي الزنزانة التي في انتظاري. لكن، حين أمعن التفكير في الأمر، أجد أنني كنتُ حبيسًا في سجنٍ منذ ذاك الصباح، يوم ارتفع المد. وربما العدالة تأخذ مجراها معي، بسبب الفعلة الشنيعة التي اقترفتها أيدينا. لكني لم أقتل أعز أصحابي. ما يعني أن شخصًا آخر قد فعل.

إيفا

مُنظِّمة الزفاف

أرفع السكين. أخبرتُ فريدي أنني أردتُ إحضار ويل إلى هنا لأتحدث معه فحسب. وكنتُ صادقةً فيما قلت، في البداية على الأقل. ربما ما سمعته في الكهف هو ما غيّر رأيي: غياب الندم.

حيوات أربعة دُمرت تلك الليلة. لذا إن سلبتُ حياةً واحدة مذنبة جزاءً على حياةٍ بريئة، إنها أكثر من مقايضةٍ عادلة.

آمل أنه يرى النصل، أن يلمحه في شعاع المصباح. للحظةٍ أوده -ذاك المحبوب، المحصّن- أن يشعر بقدرٍ ضئيل مما شعر به أخي الصغير تلك الليلة وهو ملقى على الشاطئ، في انتظار أن يبتلعه البحر. الرعب والذعر. أريد أن ترتعد فرائص هذا الرجل أكثر من أي وقتٍ طيلة حياته كلها. أبقي المصباح مصوَّبًا عليه، على عينيه الآخذتين في الاتساع.

ثم، لأجل أخي الصغير، أطعنه. في قلبه.

لقد أشعلت الجحيم.


تتمّة

بعد عدة ساعات

أوليڤيا

وصيفة العروس

توقفت الرياح أخيرًا. وصلت الشرطة الأيرلندية. اجتمعنا جميعًا في الصيوان لأنهم أرادونا في مكانٍ واحد. شرحوا لنا ما حدث، ما عثروا عليه. من عثروا عليه. نعرف أن أحدًا ما اعتُقل، لكن من؟ لم نعرف بعد.

إنه لأمر مذهل مدى خفوت الضجة التي يُحدثها مئة وخمسون شخصًا. يجلس الناس حول الطاولات ويتبادلون الحديث همسًا. يتلحف بعضهم ببطانيات الإسعافات الأولية الحرارية، لاتقاء البرد والصدمة، أصواتها أعلى من أصوات الناس، تصدر حفيفًا مع كل حركة.

لم أقل أي شيءٍ بالمرة لأي أحد، ليس منذ وقوفنا معًا على قمة الجرف. أشعر أن الكلمات كلها سُلبت مني.

جُلّ ما فكرتُ فيه لشهورٍ طوال كان هو. والآن يقولون إنه مات. لستُ سعيدة. أو على الأقل لا أظنني كذلك. خاصةً أنني ما زلتُ أستوعب الصدمة.

لم يكن أنا. لكنه كان أمرًا مطروحًا. أتذكّر شعوري في آخر مرةٍ وقع بصري عليه، يقطّع الكعكة مع چولز. رأيتُ السكين... لعبت الفكرة في رأسي. لم تدُم أكثر من ثانيتين. لكني فكرت فيها، شعرت بها، بقوةٍ كافية حد أن جزءًا مني يتساءل إن كنتُ فعلتها فعلًا ثم محوتُ الذكرى كلها بطريقةٍ ما

من عقلي؟ لا أريد أن تلتقي عيناي عينَي أي أحد، تحسبًا من أن يرى كل شيءٍ مفضوحًا على وجهي.

أجفل حين أشعر بيد شخصٍ ما على كتفي العارية. أرفع بصري. إنها چولز، متدثرة ببطانية حرارية فوق ثوب زفافها. تبدو البطانية عليها مثل جزءٍ لا يتجزأ من ملابسها، كأنها رداء ملكة محاربة. فمها ثابت في خطٍ نحيف مشدود لدرجة أن شفتيها اختفتا. عيناها تلمعان. يدها على كتفي، أصابعها تنقبض بقوةٍ وإحكام.

تهمس: «إنني أعرف. عنه... عنك».

يا إلهي. بعدما قتلتُ روحي تفكُّرًا كي أخبرها، تكتشف هي من تلقاء نفسها بطريقةٍ ما! إنها تكرهني. حتمًا تكرهني. أرى مقتها لي. أعرف أنه ما من شيءٍ في مقدوري فعله لأقنع چولز بأن تعدل عن رأيها، ما من شيءٍ لأقوله.

ثم حدث تغيرٌ ما، أظنني لمحتُ شيئًا جديدًا كسا تعبير وجهها.

- لو كنتُ أعرف... (أرى فمها يشكّل الكلمات أوضح مما أسمعها) لو كنتُ...

تصمت، تزدرد ريقها. تغمض عينيها لحظةً طويلة وحين تفتحهما أرى أنهما مملوءتان بالدموع. ثم تفتح ذراعيها وأنهض وتعانقني. أتوتر حين أشعر بجسدها يرتجف. ثم أعي: إنها تبكي، تصدر نشيجًا قويًّا وصاخبًا وغاضبًا. لا أتذكّر آخر مرةٍ بكت فيها چولز. لا أتذكّر آخر مرةٍ تعانقنا. ربما لم يحدث من قبل قط. كانت تفصلنا تلك الفجوة دائمًا. لكنها انسدت للحظةٍ. ووسط كل شيءٍ آخر، وسط فاجعة هذه الليلة وصدمتها، لا أرى إلا كلتينا: أنا وأختي.

اليوم التالي

هانا

المُرافِقة

أجلس أنا وتشارلي على متن القارب، في طريق عودتنا إلى البر. غادر معظم الضيوف قبلنا، ستبقى العائلة فحسب. أنظر إلى الجزيرة خلفنا. الطقس صافٍ الآن، تنعكس أشعة الشمس على سطح المياه، لكن تلقي الجزيرة عليها بظل غيمةٍ مُعلَّقة. كأنها رابضة في مكانها مثل وحشٍ أسود جسيم، في انتظار وجبته التالية. أشيح بنظري عنها.

لم تجهدني حركة الزورق هذه المرة إلا قليلًا. الدوار الخفيف لا يساوي شيئًا مقابل فوران روحي العميق الذي انتابني حين اكتشفتُ اكتشافي البارحة، أن ويل هو قاتل أختي.

أتذكَّر كيف تشبثتُ بتشارلي ونحن على متن العبّارة في طريقنا إلى الجزيرة قبل أقل من ثماني وأربعين ساعة مضت، كيف ضحكنا معًا على الرغم من استيائي الشديد وقتها. الذكرى تلدغني.

لم أتبادل أنا وتشارلي كلمةً واحدة تقريبًا. لم ننظر إلى بعضنا بعضًا حتى. أظن أن كلينا تائه في غمار أفكاره، مستعيدًا تفاصيل آخر مرةٍ تكلمنا فيها قبل أن يحدث كل شيء. قواي خائرة وأعجز عن الحديث الآن، حتى إن أردتُ ذلك. أشعر أنني محطّمة، جسدًا وروحًا... منهكة حد أنني أعجز عن ترتيب أفكاري، أعجز عن فهم مشاعري. بالطبع لم ينم أحد طوال ليلة أمس، لكن الأمر يفوق هذا.

سيكون علينا مواجهة كل شيء حين نصل إلى البيت. سيكون علينا أن نرى -حين نرجع إلى أرض الواقع- إن كان في وسعنا رتق ما مزقته هذه العطلة. كُسر الكثير.

مع ذلك يتضح أمامي أمر واحد كامل من بين كل ذاك الحطام. عثرتُ على جزء مفقود من الأحجية. لن أسميه خاتمةً، لأن الجرح لن يندمل أبدًا. إنني غاضبة لأني لم أنَل فرصة مواجهته. لكن على الأقل نلتُ إجابة السؤال الذي أطرحه على نفسي منذ رحيل أليس. وفي وسعنا القول إن مقتل ويل كان قصاصًا لشقيقتي كذلك. بل إنني مستاءة لأنني لم أحظَ بفرصة أن أغمد السكين في صدره بنفسي.

قائمة الضيوف

شكر وعرفان

إلى محررتي «كيم يونج»، وإلى «تشارلوت برابن»، نتج هذا العمل ثمرةً لجهوداتٍ متعاونة، لدرجة أنني أشعر أنه ينبغي ذكر اسميكما على غلافه كذلك. شكرًا لكما دومًا، لدفعي إلى الوصول إلى أفضل نسخة من القصة، ولإيمانكما الراسخ بي وبكتابتي من البداية، من بين تجارب عدة أعمالٍ وأساليب أدبية. إنه لشيء نادر ومميز.

إلى وكيلتي الأدبية الاستثنائية: «كاث سمرهايز»، يا لها من رحلةٍ تلك التي قطعناها معًا حتى الآن. شكرًا لكونك أكثر شخص مجتهد في عمله عرفتُه في حياتي (إضافةً للأسماء المذكورة في الأعلى)، ولدعمي وأعمالي في كل فرصةٍ سانحة. شكرًا لك أيضًا لكونك ماتعةً ومرحةً هكذا.

إلى «كيت إلتون» و«تشارلي ريدماين»، شكرًا لدعمكما المتواصل ولثقتكما بي ويما أكتب.

إلى «لوك سبيد»، الوكيل السينمائي الأروع والرجل الألطف. شكرًا لفطنتك وحكمتك.

إلى «چين هارلو»، وكيل الدعايا الألطف والأكثر حماسةً وشغفًا قد يطمح لصحبته أي مؤلف. شكرًا لك على عملك المتفاني وبراعتك، ولكونك رفيق سفرٍ عظيمًا!

إلى «آبي سلاتر»، شكرًا لقواك السحرية في التسويق، تذهلني دائمًا إبداعاتك وابتكاراتك، ولا أطيق صبرًا لأرى السحر الذي تواصلين عمله لأجل الرواية.

إلى «إيزي كوبرن»: أحب أننا نعمل معًا. أبلت ابنتا سلندون بلاءً حسنًا. شكرًا لعبقريتك منقطعة النظير.

إلى «باتريشا مكڤاي»: شكرًا لدعمك أعمالي في أيرلندا ونخب قضاء المزيد من المغامرات على جزيرة إميرالد معًا.

إلى «كلير وارد»: ذهلتُ من قدرتك على استخلاص جوهر الكتاب كله في تصميم غلافه ببساطة ساحرة. إنك حقًا ذات رؤيةٍ فذّة.

إلى «فنيوالا باريت»: شكرًا لأنك عرفت كيف ستبدو كل الأصوات في الرواية بالضبط، أفضل مما عرفت أنا شخصيًّا! وشكرًا لك ولعائلتك لما منحتموه من تدقيقٍ في لكنتي الأيرلندية.

إلى فريق الأحلام في دار نشر «هاربر كولينز»: «روجر كازليت»، و«جريس دنت»، و«أليس جومر»، و«دامون جريني»، و«تشارلوت كروس»، و«لورا دايلي»، و«كليف ويب».

إلى «كايتي مكجاون» و«كالوم موليسون»: شكرًا لنشركما أعمالي حول العالم.

إلى «شيلا كرولي»: شكرًا جزيلًا لدعمك. أنت مذهلة.

إلى «شيلا إدواردز» و«آنا ويجلين»: شكرًا لعملكما الدؤوب وللمساعدة في تنظيم حياة مؤلفةٍ فوضوية!

إلى متاجر «ووترستونز» وموظفيها، لأجل شغفكم وحديثكم الدائم عن الرواية ولعرضكم المدهش لها في المكتبة. مع شكرٍ خاصٍ إلى «آنجي كرفورد»، مديرة مشتريات الفرع الاسكتلندي وأجمل شخص تتجول اسكتلندا بصحبته... إنني في غاية الامتنان لكرمك في الوقت معي ودعمك المستمر.

إلى كل المكتبات المستقلة التي تقيم فاعليات وتبيع كتابي وترشحه لقرائها، والتي تُكِن محبةً للكتابة وتخلق مساحات ماتعة ومرحبة لاستكشافها.

إلى «راين توبردي»، لأنك أتحت وقتًا لقراءتها ولكلامك اللطيف عنها.

إلى كل القراء الذي قرؤوا الرواية وأخبروني أنهم استمتعوا بها، سواء أكنتَ اكتشفتها عبر (Netgalley)، أو تسلّمت نسخة تجريبية عبر البريد أو اشتريتها من المكتبة. أسعدني للغاية سماع آرائكم، لا يسعني وصف السرور الذي أدخلتموه على قلبي برسائلكم.

إلى أبويَّ، لأجل الفخر والحب اللذين غمرتماني بهما. لعنايتكما خير عناية حين كنتُ بحاجةٍ لها. ولأنكما شجعتماني دومًا كي أفعل ما أحبه منذ البداية.

إلى «كيت» و«ماكس» و«روبي» و«شارلوت»: شكرًا لأنكم جعلتم الحياة ماتعةً هكذا ولتشجيعكم لي.

إلى «ليز» و«پيت» و«دوم» و«چن» و«آنا» و«إيڤ» و«سب» و«دان»: شكرًا لمحبتكم ودعمكم، ولحماسكم وبطاقاتكم التي أبدعتم في رسمها بأيديكم.

إلى أقاربي الإنجليز والأيرلنديين، آل فولي وآل آلن، مع شكرٍ خاصٍ (دون ترتيبٍ معين) إلى «ويندي» و«بيج أو» و«ويل» و«أوليڤر» و«ليزي» و«فريدي» و«جورج» و«مارتن» و«چاكي» و«چيس» و«مايك» و«تشارلي» و«تنكي» و«هاورد» و«چين» و«إينيز» و«إيزابيل» و«بول» و«إينا» و«ليام» و«فيلب» و«چنيفر» و«تشارلز» و«آيليين» و«إيڤان».

ختامًا... إلى آل: قارئي الأول دائمًا. شكرًا لكل ما تفعله، لدعمك وتشجيعك اللذين لا ينضبان، لاستعدادك أن تقضي رحلةً بالسيارة تمتد ست ساعات نناقش فيها فكرة رواية جديدة، لأنك تنقذني من أعماق اليأس حين أتعثر في ثغرات حبكة القصة، لأنك قضيت عطلة نهاية الأسبوع بطولها تقرأ المسودة الأولى. لم يكن لهذا الكتاب أن ينتهي دونك.





«لم أظن أن لوسي فولي قد تتفوقُ على روايتها "حفلة الصيد"، لكنها تفوقتْ على نفسها! أحببتُ هذه الرواية. منحتني دفقات السعادة نفسها التي أشعرُ بها حين أغرقُ في إحدى روايات أجاثا كريستي. جزيرةٌ نائيةٌ وعرة، وحفلُ زفافٍ تقريبًا لا أحد سعيدٌ بحضوره، وأسرارٌ قديمة، ثمّ جريمةُ قتل. تُلقي بك وجهات النظر المختلفة من تخمينٍ لآخر، وتُخطئ كل مرةٍ. أنتظرُ روايتها القادمة بشوق».

- أليكس ميكايليديس: مؤلف رواية «المريضة الصامتة».

«تُعيدنا رواية لوسي فولي الذكية والمكتوبة ببراعةٍ إلى أجواء كلاسيكيات أجاثا كريستي العظيمة، تحديدًا في "ثمّ لم يبقَ أحدٌ" و"جريمةٌ في قطار الشرق السريع"، وتأخذنا إلى جزيرةٍ مريبة على سواحل أيرلندا... تبني فولي التشوُّق والترقُّب برويّةٍ وحذرٍ، بصحبةِ كتيبةٍ من الأبطال المُدجَّجين بأسرارهم الشخصية... وتركّز تركيزًا دقيقًا على التفاصيل المتقاطعة من ماضيهم».

-The New York Times Book Review



لوسي فولي

درَستْ لوسي فولي الأدب الإنجليزي في جامعة دَرَم وفي كليّة لندن الجامعية، وعملتْ محررةً أدبيةً في مجال النشر عدّة سنوات قبل أن تتفرغَ للكتابة تفرُّغًا كاملًا. رواية «حفلة الصيد» أول رواية جريمة تكتبها، واستوحتها من مكانٍ ناءٍ ألهبَ مخيلتها في أسكتلندا ومن ثم أتبعتها برواية فارقة وهي قائمة الضيوف.

كتبتْ كذلك لوسي ثلاث رواياتٍ تاريخيةٍ، وتُرجمتْ أعمالها إلى ست عشرة لغة.

يتحوّلُ حفلُ زفافٍ إلى حدثٍ مدمّرٍ وحالكِ السواد في جوٍّ من الإثارةِ والتشويق يُذكّرنا بأجواء أجاثا كريستي.

العروس، المُرافِقة، الإشبين، مُنظّمة الزّفاف، وَصِيفَة العروس، الجثّة.

اجتمعَ الضيوف على جزيرةٍ نائية تقعُ على ساحل أيرلندا للاحتفال بشخصين يتّحِدان معًا في حياةٍ واحدة. العريس: نجمٌ سينمائي صاعد، فاتنٌ ووسيم. والعروس: مؤسِّسة مجلة، ذكيةٌ وطموحٌ. إنه حفلُ زفافٍ من الحفلات التي يُحكى عنها في المجلات، أو حفلات المشاهير. ثوبٌ من مُصممٍ عالميٍّ، موقعٌ ناءٍ، هدايا فاخرةٌ للضيوف. صحيحٌ أن إشارة الهاتف ضعيفة والأمواج عاتية، لكن خُطّط لكل التفاصيل ببراعة وستُنفذ ببراعةٍ كذلك.



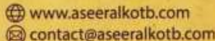
لكنّ الكمالَ منوطٌ بالخطط وحدها، وكلنا بَشرٌ في النهاية. بينما تتّقدُ روح الحفل، تختلطُ الأحقاد والضغائن بالأماني الطيبة وذكريات الماضي. يلعبُ أصحابُ العريس لُعبةً تذكّروها من أيام المدرسة. وتُتلفُ وصِيفَة العروس -ليست بالمصادفة المحضة- ثوبها. ويُلقي أقدمُ أصدقاء العريس نخبًا محرجًا. ثمّ يموتُ شخصٌ ما. مَن ذا الذي لم يتمنَّ خيرًا للعروسين السعيدين؟ وربما السؤال الأهم، ما السبب؟

غلاف: عبد الرحمن الصواف


9 789776 902770







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb